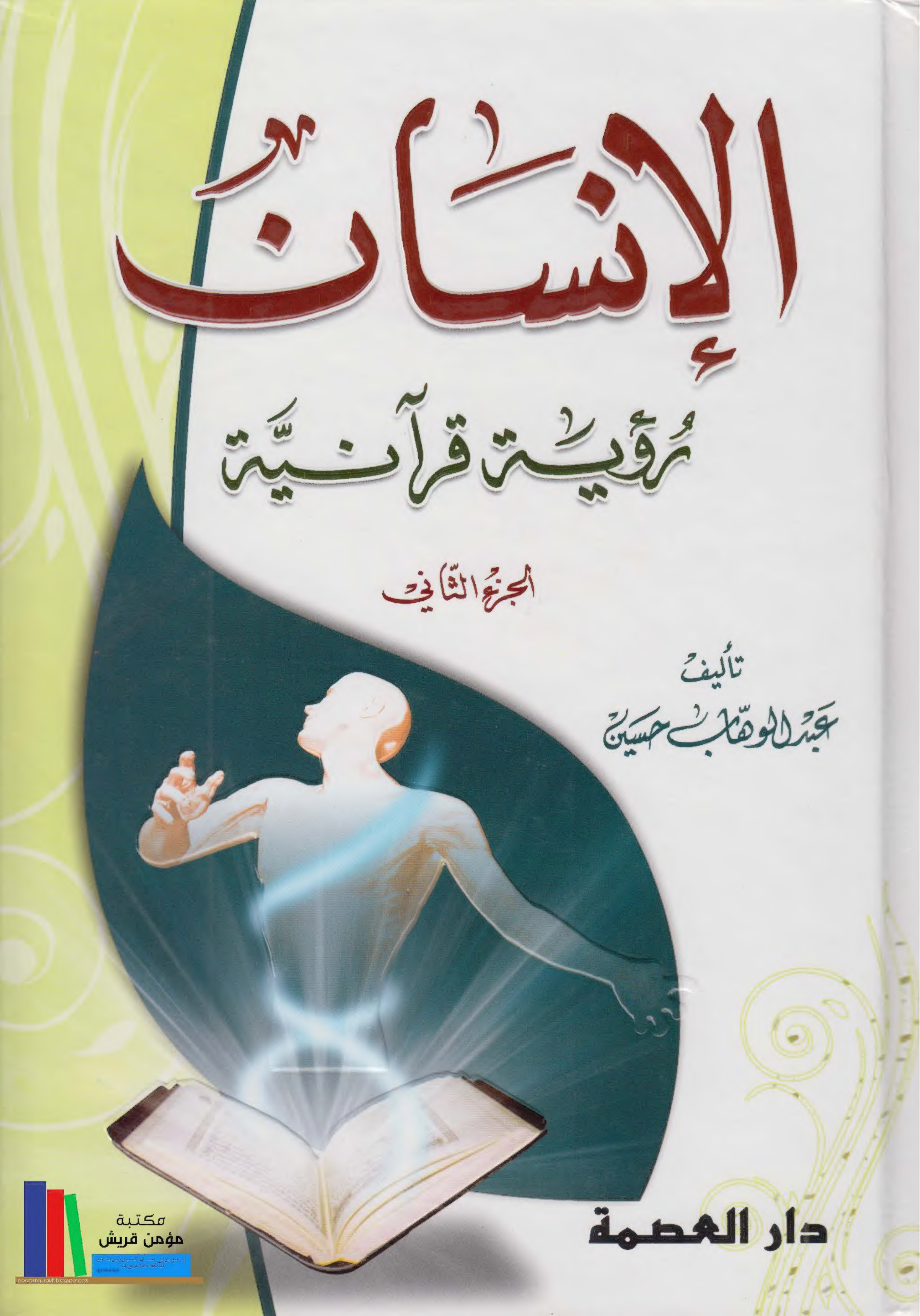


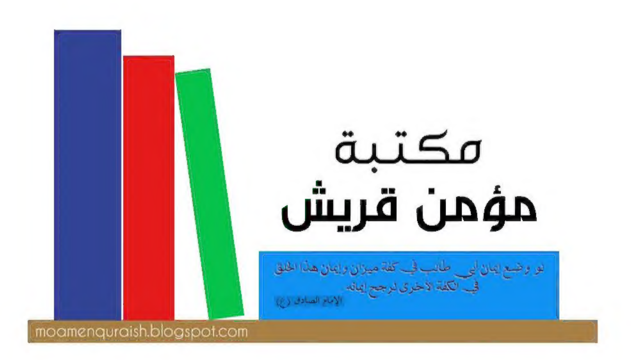
الإنسان
رؤية قرآنيَّة
الجزء الثاني
تأليف
عبد الوهاب حسين
دار العصمة
مكتبة
مؤمن قريش

الإنسان

رؤية قرآنية

الجزء الثاني

الطبعة الأولى
١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م



دار العصمة/كتب - قرطاسية - ترجمة - طباعة - خدمات أخرى

مملكة البحرين - السنابس
٠٠٩٧٣/١٧٥٥٣١٥٦ - ٠٠٩٧٣/٣٩٢١٤٢١٩ - daraleamah@hotmail.com



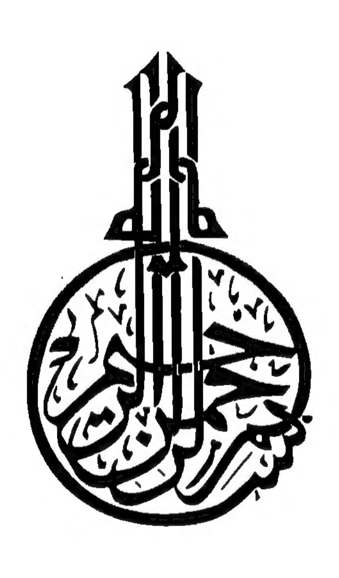
رؤية قرآنية

الجزء الثاني

تأليف

عبد الوهاب حسين

دار العصمة


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

لا أراني متكلفًا إن قلت إن الأستاذ الفاضل – المؤلف – يمتاز بأسلوب ناصع في فكره وأطروحاته، ولعل ابرز ما يمتاز به قلمه أنه جزل الفكرة مع سلاسة في العبارة وجمال في الأداء.

وهكذا يلحظ القارئ في الجزء الأول كيف كان عرض الأفكار متسلسلاً وكيف أن البحث يسير متكاملاً نحو غاية جلية تستوعب الجوانب المختلفة المتشعبة لترسم فكرا أصيلا عن الإنسان بكل أبعاده.

إن هذا البحث ليس كغيره ينطلق في أبعاد الفكر ولا يخرج منه، وإنما هو – كما تراه – ينطلق حياً ليلامس الواقع وليتجذّر من خلال الحياة العملية..

وبعد هذا نترك القارئ العزيز ليقطف ثماره وهو يسير مع الفكر الناصع في هذا البحث – في جزئه الثاني – ليصل في غاية المطاف إلى نهاية منشودة هي الفهم الأصيل لكل ما يتعلق بالإنسان.

الباب السابع

«حياة الإنسان في الأرض»

الفصل الأول: حقيقة حياة الإنسان في الأرض

الفصل الثاني: تاريخ النوع الإنساني وتجهيزه

الفصل الثالث: اعتدال خلق الإنسان وحسن صورته

الفصل الرابع: تجهيز الإنسان لتحقيق غاية وجوده

الفصل الخامس: غاية خلق الإنسان

الفصل الأول

حقيقة حياة الإنسان في الأرض

قول الله تعالى: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾(1).

وقول الله تعالى: ﴿ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾(2).

وقول الله تعالى: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ

---

(1) البقرة: ٣٦ – ٣٩.

(2) الأعراف: ٢٤ – ٢٥.

فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾[1].

بيان المفردات

قال اهبطوا منها جميعا: هبط: نزل وانحدر وذل واتضع، وهبط المكان: دخله، وهبط في الشر: وقع فيه، والهبوط: النزول من الأعلى إلى الأسفل ويقابله الصعود، وقد يستخدم الهبوط في المنزلة كما يستخدم في الناحية المادية، والخطاب موجه لآدام وحواء عليهما السلام وإبليس (عليه اللعنة).. والمراد: هبوطهم إلى الأرض، ومن قال بأن الجنة أرضية يعنى: الانتقال من بقعة إلى بقعة أخرى.

بعضكم لبعض عدو: البعض: الجزء والطائفة من الشيء، والجمع: أبعاض، وبعض الشيء: فرد أو جزء منه، وعدا: ظلم وتجاوز الحد، وعدا قدره: تجاوزه، وعاداه: خاصمه، والعداء: السعي لصرف المرء عما يهمه، ومن صفات العدوا: الترصد من أجل المكاره، والعدوان: الظلم الشديد، والعداوة: البراءة والمباعدة والمعاداة، والعدو: ذو العداوة وضد الولي والصديق، والجمع: أعداء، والعدوى: الاستعانة بولي للنصرة على عدو.

فتلقى آدم من ربه كلمات: سبق بيان معنى آدم والرب، والتلقي: الاستقبال والأخذ والقبول، والكلام: الأصوات المفيدة والمعنى القائم في النفس الذي يعبر عنه الإنسان بألفاظ، وتكلم: نطق بكلام، والكلمة: اللفظة الواحدة الدالة على معنى، والجمع: كلمات، وكلمة الله: حكمته وإرادته وقضاؤه وكل مخلوق من مخلوقاته حيث تدل مخلوقاته على وجوده وصفاته وأسمائه كما تدل الكلمة على معناها، وكلمة التقوى: كلمة التوحيد والاخلاص، وتلقى آدم من ربه كلمات: كلمات التوبة

---

(١) طه:١٢٣- ١٢٩.

والاستغفار والتوسل.. والمراد: ألهمه إياها فاستقبلها بالأخذ والقبول والعمل بها حين علمها ووفق لها، وذلك على سبيل الطاعة المطلقة لله عز وجل.

أما ما هي الكلمات؟ ففيها أقوال:

- قيل: هي قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[1].

- وقيل: قال: « سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى وجدك لا إله إلا أنت ظلمت نفسي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ».

- وقيل: قال: « اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءا وظلمت نفسي فاغفر لي إنك خير الغافرين، لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءا وظلمت نفسي فارحمني وأنت خير الراحمين، لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءا وظلمت نفسي فاغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم ».

- وقيل: قال: « سبحان الله والحمد لله ولاإله إلا الله والله أكبر ».

- وقيل: قال: « يا رب!! ألم تخلقني بيدك؟ قال: بلى. قال: يارب!! ألم تنفخ في من روحك؟ قال: بلى. قال: يا رب!! ألم تسبق رحمتك غضبك؟ قال: بلى. قال: ألم تسكني جنتك؟ قال: بلى. قال: يا رب!! إن تبت وأصلحت أراجعي أنت إلى الجنة؟ قال: نعم. والمقصود هنا جنة النعيم في الآخرة ».

- وقيل: أنه توسل في دعائه إلى ربه بمحمد ﷺ وأهل بيته الطيبين الطاهرين عليهم السلام وذلك بعد أن رأى أسماءهم مكتوبة على العرش وعلم عظيم منزلتهم وكرامتهم عند الله جل جلاله.

- وقيل: هي عبارة عن اللطائف الوجودية التي هي التوحيد والنبوة

---

(١) الأعراف:٢٣.

والولاية ومراتب كل منها ومراتب العالم التي لا نهاية لها. فإن الكلمة كما تطلق على الكلمة اللفظية وعلى الكلمة النفسية (التي هي حديث النفس) تطلق على العقائد والعلوم واللطائف الوجودية وعلى مراتب الوجود.

فتاب عليه: تاب: رجع عن معصيته وندم عليها فهو تائب، والجمع: تائبون، والمؤنث: تائبة، والجمع: تائبات، وتاب الله عليه: غفر له وعاد عليه بفضله، والتواب: كثير التوبة والندم والاستغفار من الذنوب، والتواب: اسم من أسماء الله الحسنى، ومعناه: الذي يوفق عباده إلى اسباب التوبة ويقبلها منهم كثيرا.. والمراد: قبل الله تبارك وتعالى توبة آدم عليه السلام ورجع عليه بالرحمة والمغفرة بفضل الكلمات التي قالها وتوجه بها إليه وسأله بها.

وفي الحقيقة: فإن توبة العبد إذا قبلت كانت محفوفة بتوبتين من الله تبارك وتعالى، وذلك:

- لأن رجوع العبد عن المعصية والندم عليها يحتاج إلى توفيق الله سبحانه وإعانته له حتى يرجع.

- وبعد رجوع العبد بالاستغفار والاقلاع عن المعصية يحتاج إلى قبول الله سبحانه وتعالى توبته بواسع رحمته.

قال الله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[1].

إنه هو التواب الرحيم: سبق معنى التوبة، والرحيم: المبالغ في الرحمة.. والمراد: كثير القبول للتوبة من عباده لكثير رحمته بهم:

---

(١) التوبة: ١١٨.

- فهو يقبل التوبة منهم مرة بعد مرة.
- وأنه يقبل التوبة من عباده إذا تابوا وإن عظمت ذنوبهم.

وأصل التوبة الرجوع:

فإذا وصف بها العبد كان رجوعا إلى الله عز وجل بالاستغفار وذلك بالاقلاع:

- عن المعصية الظاهرة والباطنة.
- أو عن المقامات النازلة التي يقف العبد فيها.
- أو عن المشاهدات التي قد يفتن السالك بها.
- أو عن خطرات النفس التي يتوب منها الأولياء الصالحون.
- أو عن الالتفات إلى غير الله سبحانه وتعالى الذي يتوب منه الأنبياء عليهم السلام.

وإذا وصف بها الرب تبارك وتعالى كان رجوعا عن العقاب إلى المغفرة.

يقول العلامة السيد فضل الله: « ولم يترك الله سبحانه لإبليس أن يجني ثمرة انتصاره فأوحى لآدم بالطريقة المثلى التي يستطيع من خلالها أن يتراجع عن خطئه لتكون أساسا ثابتا في علاقته بالله في الحالات التي يشعر معها بالحاجة إلى اللقاء به في عملية رجوع واستغفار. واستجاب آدم لرعاية الله له ورجع إلى ربه وعاد كما كان إنسانا يسبح في أجواء عفو الله ورحمته ورضوانه، ليمارس دوره الجديد في الخلافة عن الله من موقع المخلوق التائب بخالقه الرحيم الغفور »(١).

وفي الجمع بين التوبة والرحمة: وعد بليغ من الله تبارك وتعالى للتائب

---

(١) من وحي القرآن. ج١. ص٢٦٢.

بالإحسان مع العفو والغفران، وهذا يدل على:

- عمق مبدأ التوبة باعتبارها مرتبطة بصفة الرحمة الإلهية الواسعة.

- أنها سبيلا ثابتا في العلاقة بين العبد وربه، بحيث يلجأ إليها العبد لتصحيح مساره كلما غلبته نفسه الأمارة بالسوء أو غلبه هواه أو استزله الشيطان الرجيم، فباب العودة والرجوع إلى الله ذي الجلال والإكرام وتصحيح المسار مفتوح دائما، فلا يأس ولا استسلام.

يقول العلامة السيد فضل الله: « فقد خلق الله الإنسان وعرف أن غرائزه قد تثور وتنحرف وتقوده إلى غير ما يرضي الله، فأراد أن يفتح للناس أبواب الرجوع إليه في كل وقت، ليستقيموا على طريقه، ويرجعوا إلى شريعته »[1].

- أن الخطيئة تصدر عن الإنسان باختيارة وهي قضية شخصية والتوبة منها قضية شخصية أيضا، فليست هناك خطيئة مفروضة على الإنسان قبل أن يولد، وليس هناك تكفير لاهوتي - كما تقول الكنيسة - بأن عيسى ابن مريم عليه السلام صلب تخليصا لبني آدم من خطيئة أبيهم آدم عليه السلام .

يقول العلامة السيد قطب: « كلا! خطيئة آدم كانت خطيئتة الشخصية، والخلاص منها كان بالتوبة المباشرة في يسر وبساطة، وخطيئة كل ولد من أولاده خطيئة كذلك شخصية، والطريق مفتوح للتوبة في يسر وبساطة.. تصور مريح صريح. يحمل كل إنسان وزره، ويوحي إلى كل إنسان بالجهد والمحاولة وعدم اليأس والقنوط »[2].

والجملة: تعليل لقول الله تعالى : ﴿ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾.

---

(١) من وحي القرآن.ج١ .ص٢٧٢.

(٢) الظلال.ج١ .ص٦١.

يأتينكم مني هدى: أتى: جاء وأعطى، وأتى الأمر: فعله، ووعد مأتي: لا شك في وقوعه، ومن: حرف جر له معاني عديدة يستدل عليها بالقرائن، ومني: من عندي، والهدى: الرشاد والتعريف والتبيين والسوق والدلالة بلطف إلى ما يوصل إلى الغاية والمطلوب، واهتدى: استرشد وطلب الهداية وقام عليها فهو مهتد، والجمع: مهتدون، والهادي: المرشد إلى الحق والخير والصواب واسم من اسماء الله الحسنى.. والمراد: البيان الفكري والأخلاقي والتشريعي الذي يأتي به الأنبياء عليهم السلام وتأتي به الكتب السماوية الحقة.

فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى: تبعه: مشى خلفه وانقاد إليه، وتتبع: طلب وبحث في مهلة ودقة، وأتبع: ألحق، والتابع: المنقاد والمناصر والخادم والمرافق ونحوهم، والجمع: أتباع، والمتتابع: المتوالي، وضل: غاب وضاع وفشل وبعد عن الحق والخير والفضيلة والصراط المستقيم، وضل سعيه: فشل فيه، وأضله الشيطان: أعماه وأبعده عن الحق والصواب، وأضل أعمالهم: أبطلها وأذهب فائدتها، والضلال: العدول عن الحق والصواب والطريق السوي وضد الهدى، والتضليل: التضييع والإبطال والتخسير، والضال: من وقع في الضلال، والجمع: ضالون، والمضل: المبعد عن الحق والصواب، والجمع: مضلون، والشقاء: الشدة والبلاء والعسر وسوء العاقبة، والشقي: من وقع عليه الشقاء وضد السعيد، والجمع: أشقياء.. والمراد: من آمن بالله سبحانه وتعالى وبرسله وباليوم الاخر وعمل الأعمال الصالحة، لا يضل طريقه في الحياة الدنيا، ولا يشقى بعمله في غايته التي هي عاقبة أمره في الآخرة، بل لا يضل ولا يشقى في الدنيا والآخرة معا.

قال ابن عباس: « ضمن الله سبحانه لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الحياة الدنيا ولا يشقى في الآخرة »[1].

---

(١) مجمع البيان. الطبرسي. ج٧. ص٥٥.

ومن أعرض عن ذكري: أعرض: أضرب وصد وجانب، وعارض: ماثل وناقض وقابل وقاوم وبارا، واعترض: صار عارضا، والاعتراض: نسبة القول والفعل إلى الخطأ، والمعارض: من اعترض وقاوم، والجمع: معارضون، وذكر الشيء: حفظه، وذكر الحديث: قاله، وذكر الله: استحضر وجوده وصفات جماله وجلاله وسبحه بقلبه ولسانه فهو ذاكر، والجمع: ذاكرون، والتذكرة: ما نستذكر ونتعظ ونعتبر به، والذكير: الكثير الذكر، وأهل الذكر: أهل العلم والكتاب.. والمراد: من أعرض عن هدايتي التي أبينها في الكتب السماوية وعلى ألسن أنبيائي ورسلي وعن الدلائل والآيات التي أنزلها للعباد وأبثها في الكون والأنفس، فلم ينظر فيها ولم يؤمن بي وبرسليي وباليوم الآخر ولم يطعني، فإن مصيره وعاقبته.

فإن له معيشة ضنكًا: العيش الحياة، والمعيشة: حالة الإنسان في حياته، والمعاش: ما يكون به العيش من المطعم والمشرب والدخل، والجمع: معايش، وجعلنا النهار معاشا: الوقت الذي يحصل فيه الناس على ما يعيشون به، والضنك: الضيق، ومعيشة ضنكة: ضيقة شديدة العسر والحرج لما يشوبها من الألم ويكدر صفوها من المنغصات.

ونحشره يوم القيامة أعمى: حشر: بعث وساق وجمع، والحشر: مكان التجمع، ويوم الحشر: يوم يبعث الناس من القبور ويحشروا للحساب والجزاء في يوم القيامة، والحاشر: الجامع، ويوم القيامة: يوم قيام الخلائق وظهورهم من القبور للحساب والجزاء على أعمالهم بالعدل والاحسان، والعمى: ذهاب البصر، وعمى القلب: ذهاب البصيرة وعدم الاهتداء إلى الحق والصواب، والأعمى: من فقد بصره، والجمع: عميان وعُمي، والعمِ: ذهاب البصيرة، والجمع: عمون، وفي تفسير الآية أقوال، منها:

- أنه أعمى القلب فلا نور له في يوم القيامة يهتدي به إلى الجنة.

قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ

مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَـٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴾[1].

- أنه أعمى البصيرة عن الحجة والدليل، فلا حجة يهتدي إليها ولا دليل يدافع به عن نفسه في يوم القيامة.

- أنه أعمى البصر، وهو المعنى الظاهر للفظ.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ﴾[2].

كذلك أتتك آياتنا فنسيتها: ذا: اسم يشار به إلى المفرد المذكر، فإذا خوطب به، قيل: ذاك، وقد تتقدمها ها التنبيه، فيقال: هذا، وقد تتوسط لام البعد، فيقال: ذلك، وتدخل عليها الكاف للتشبيه، فتقول: كذالك، والآية: العلامة والعبرة والمعجزة، والجمع: آيات، والنسيان: حالة ضعف الذاكرة وترك الشيء عن ذهول وغفلة أو عن عمد، والمنسي: المتروك، وأنساه: حمله على النسيان.. والمراد: مثل ذلك فعلت أنت أيها الإنسان الكافر المستحق للعذاب، فلم تكن في الدنيا بصير القلب، بل كنت أعمى البصيرة، فقد أتتك آياتنا على أيدي الرسل واضحة نيرة غير خافية على أحد، فتركتها ترك المنسي الذي لا يذكر أصلا، وأهملتها وأعرضت عنها في أجواء اللامبالاة وعدم الاكتراث بتحذيرات الرسل والأولياء الصالحين وما نزل منها في الكتب السماوية، ولم تر بقلبك فيها نورا ولا هداية، فلم تؤمن بها ولم تصدقها ولم تتبع شيئا منها.

---

(١) الحديد: ١٣.

(٢) الإسراء: ٩٧.

وكذلك اليوم تنسى: سبق بيان معاني المفردات.. والمراد: مثل ذلك النسيان الذي كنت فعلته في الدنيا بآياتنا، فإنك تهمل اليوم وتصير بمنزلة من ترك كالمنسي في عذاب لا يفنى، جزاء موافقا لإعراضك عن آياتنا وعن أوامرنا ونواهينا.

والخلاصة: أن العمى في الآخرة هو نتيجة للعمى في الدنيا، وأن نسيان العبد لله عز وجل في الدنيا هو سبب ترك الله سبحانه وتعالى له في العذاب في الآخرة، وأن كل من ساء عمله في الدنيا ساء مصيره في الآخرة.

وكذلك نجزي من أسرف: الجزاء: المكافأة على العمل بالثواب والعقاب، والجزية: خراج الأرض وما يؤخذ في الإسلام من أهل الذمة مقابل حمايتهم وتأمينهم، وأسرف: أفرط وتجاوز حد الاعتدال في الفعل والقول والصفة، والمسرف: من فسد عقله وكثرت معاصيه وأخطاؤه، ولا تأكلوا أموال اليتيم إسرافا: بغير حق.. والمراد: هكذا أو مثل ذلك نجزي من أشرك بالله عز وجل، وانهمك في الشهوات وفي طلب الدنيا من حلها وحرامها، وتجاوز الحد في العصيان والتمرد على أمر الله تبارك وتعالى ونهيه، وباشر الذنوب بدون اكتراث، فلم يرع حرمة ولا دين ولا قيمة ولا مبدأ.

ولم يؤمن بآيات ربه: سبق بيان معنى الآيات والرب، ولم: حرف نفي لما مضى وجازمة، والإيمان: الإذعان والتصديق المطلق بالقلب والاقرار باللسان والعمل بالاركان وضد الكفر.. والمراد: لم يؤمن بآيات الله الدالة على وجوده وعلى نبوة أنبيائه ورسله الإيمان الصحيح، ولم يصدق بالكتب التي أنزلها عليهم ولا باليوم الآخر، أو آمن بلسانه وكذب بعمله فسلك طريقا غير طريق الحق والعدل والخير.

ولعذاب الآخرة أشد وأبقى: العذاب: العقاب والنكال وكل ما يشق على النفس، والآخر: ضد الأول، وآخر الشيء: نهايته، والآخرة: الدار الثانية (دار البقاء) التي يرحل إليها الخلائق بعد فناء الدار الأولى (دار الدنيا) للحساب والجزاء على الأعمال، والآخر: من أسماء الله الحسنى، ومعناه: الباقي بعد فناء كل شيء والذي

لا نهاية لوجوده، وأشد: أقوى، والشديد: القوي، والجمع: أشداء، والأشد: الأقوى والأكمل ماديا ومعنويا، وأبقى: أثبت وأدوم وأحفظ، وبقي: فضل، والباقي: الثابت، والمؤنث: باقية، والجمع: بقيات، والأبقى: الأدوم والأثبت، والباقيات الصالحات: أعمال البر والخير التي يثاب عليها الإنسان في يوم القيامة وتبقى ثمرتها خالدة، وبقية الله: الإمام المهدي عليه السلام وما يبقيه الله لعباده، وأولو بقية: أولو نظر في العواقب.. والمراد: أقسم بأن عذاب الآخرة أشد وأنكى من ضنك العيش في الدنيا ومن عذاب القبر وأدوم لأنه عذاب لا ينقطع ولا يزول.

أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون: الكم: العدد والكمية، وكم: اسم ناقص مبهم مبني على السكون، وله استعمالان: الخبر والاستفهام، ويدل الخبر على الكثرة، مثل: كم كتب قرأت (أي قرأت عددا كبيرا من الكتب) أما الاستفهام فيكون للقليل والكثير، وهلك: مات فهو هالك، والجمع: هلكى، والتهلكة: الموت والتخريب والدمار، واهتلك: ألقى بنفسه في التهلكة، واهلكه: جعله يهلك، وأهلك ماله: بدده، وقبل: ظرف للزمان والمكان السابق وضد بعد، والقرن: مائة سنة من الزمن والأمة وأهل زمان واحد، والجمع: قرون.. والمراد: ألم ينبهّم ولم يتبين لهم من خلال الكتب السماوية والرسول، أو ألم يتبينوا من خلال الدلائل والآثار كثرة ما أهلكنا من الأمم الماضية الذين كذبوا بالرسل، مثل عاد وثمود فيعتبروا ويؤمنوا.

يمشون في مساكنهم: مشى: انتقل من مكان إلى آخر بإرادته، والمشاء: من يمشي بالنميمة (نقل الحديث على وجه الإفساد) بين الناس، وسكن: قرّ وهدأ بعد الحركة، وسكن إليه: ارتاح واطمأن، وسكن الدار: أقام فيها، والمسكن: مكان السكن، والجمع: مساكن، والسكينة: الطمأنية التي تسكن إليها القلوب، والسكن: كل ما تطمئن إليه النفوس ماديا ومعنويا، مثل: الدار والزوج.. والمراد: يمشون في سفرهم إلى الشام وغيرها في مساكنهم المدمرة ويرون آثار هلاكهم فيعتبرون بها.

إن في ذلك لعبرة لأولي الألباب: عبر : حزن وسالت دموعه، واعتبر الشيء: اختبره

وامتحنه، واعتبر من الشيء: تعجب، واعتبر بالشيء: اتعظ، والعبرة: العظة، والجمع: عبر، وألو: ذو وأصحاب، والمؤنث: أولات، ولب الشيء: نفسه وحقيقته وخالصه وخياره، واللب: العقل، والجمع: ألباب، ولب: صار ذا عقل، وألو الألباب: أصحاب العقول.. والمراد: أن في هلاك أولئك عظة لأصحاب البصائر والعقول النيرة الذين يتدبرون في أحوالهم ويتستفيدون من الأحداث اليومية ودروس التاريخ.

ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما: لو: حرف تمني وتقدير، فإذا دخلت على ثبوتين كانا منفيين، مثل: لو جاءني لأكرمته، أي: ما جاءني ولا أكرمته، وإن دخلت على نفيين كانا ثبوتين، مثل: لو لم يستدن لم يطالب، أي: استدان وطُولب، وإن دخلت على نفي وثبوت كان النفي ثبوتا وكان الثبوت نفيا، مثل: لو لم يؤمن اريق دمه، أي: آمن ولم يرق دمه، ولزم: ثبت ودام ووجب، واللّزام: الملازم الذي لا يفارق، والالتزام: الاعتناق، وسبق بيان معاني باقي الفاظ.. والمراد: لولا العدة المكتوبة في حكمة الله عز وجل بتأخير عذابهم إلى الأجل المضروب وهو الآخرة أو اليوم المقرر للعذاب للزمهم الأخذ العاجل وحلت بهم عقوبة الاستئصال.

وأجل مسمى: الأجل: غاية الوقت والمدة المحددة، والجمع: آجال، والمؤجل: ما له موعد محدد وما أخر عن موعده، وجاء أجله: حان موته، والمسمى: المعلوم والمعين والمحدد، وأجل مسمى: الوقت المعين.. والمراد: يوم القيامة أو اليوم المقرر للعذاب.

لا خوف عليهم ولا هم يحزنزن: الخوف: انفعال يحصل للنفس نتيجة توقع مكروه، وله درجات متفاوتة: أدناها الخشية، وأعلاها الذعر، والحزن: ألم نفسي يغمر النفس، ويرادفه: الغم والهم والكآبة، ويحصل الحزن:

- إما بسبب فوات محبوب في الحاضر أو في المستقبل.
- وإما بسبب الطبع لانطواء مزاج النفس على القلق والاضطراب.

ومن عادة الحزين: أن يكون مكفهر الوجه، مطرقا اطراق الأسى، مفرطا في النظر إلى العواقب. ويقابلهما: الرجاء والسرور.. والمراد: لا خوف عليهم في الآخرة من لحوق مكروه بهم حين يخاف الكافرون من أهوال يوم القيامة ومن العقاب الأخروي، ولا هم يحزنون حين الموت ومفارقة الدنيا على فوات شيء من زينتها وزخارفها عليهم.

أما الخوف والحزن في الدنيا: فيمكن أن يلحق بهم، وكيف لا يلحق بهم والمؤمن يقف على ميزان الخوف والرجاء، واستشعار الخوف والخشية:

- استعظاما لجلال الله سبحانه وتعالى وهيبته.
- ومن الشعور بالتقصير في أداء التكليف وفي إقامة حقوق العبودية له.

فمن خصائص الخواص والمقربين، قول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ۝ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[1].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: « الخوف جلباب العارفين »[2].

أما الحزن فهو من لوازم الإيمان كما في الأخبار.

روي أن نبي الله داود عليه السلام قال: « إلهي أمرتني أن أطهر وجهي وبدني ورجلي بالماء فبماذا أطهر لك قلبي؟ قال: بالهموم والغموم »[3].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: « من طال حزنه على نفسه في الدنيا أقر الله

---

(١) السجدة: ١٥- ١٦.

(٢) غرر الحكم.

(٣) البحار.ج٧٣.ص١٥٧.

عينه يوم القيامة وأحله دار المقامة »[1].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: « الحزن شعار العارفين لكثرة واردات الغيب على سرائرهم وطول مباهاتهم تحت ستر الكبرياء.... ولو حجب الحزن عن قلوب العارفين ساعة لاستغاثوا، ولو وضع في قلوب غيرهم لاستنكروه »[2].

والذين كفروا وكذبوا بآياتنا: الكفر: البراءة والستر على الشيء وتغطيته وعدم الإيمان والجحود بالنعمة، والكافر: من نسب إليه الكفر، والجمع: كفرة وكفار، والمؤنث: كافرة، والجمع: كافرات، وكذب: أخبر عمدا عن الشيء بخلاف ما هو عليه في الواقع وضد الصدق، وكذب الرأي: أخطأ، والكذاب: كثير الكذب، والمؤنث: كاذبة، والتكذيب: الانكار، وسبق بيان معنى الآيات.. والمراد: جحدوا وكذبوا بالرسل وبالكتب السماوية المنزلة من عند الله عز وجل وبالآيات الأنفسية والأفقية، قول الله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[3] وهذا يدل على أن من مات مصرا على الكفر والتكذيب بالآيات ولم يتب فإنه يخلد في النار.

أصحاب النار هم فيها خالدون: الملازمون للنار الماكثون فيها دائما أو أبدا، فلا يفنون ولا يخرجون منها.

ولكم في الأرض مستقر: القرار: الثبات والبقاء، والاستقرار: السكون، والمستقر: المكان الذي يستقر فيه أو الاستقرار بعينه.. والمراد: أن الله سبحانه وتعالى قد هيأ الأرض وما فيها لاستقرار آدم وحواء عليهما السلام وذريتهما، ولممارسة دور الخلافة بكل أبعادها فيها.

---

(١) غرر الحكم.

(٢) البحار. ج٧٢. ص٧٠.

(٣) فصلت: ٥٣.

ومتاع إلى حين: التمتع: يعني التلذذ والانتفاع، والمتاع: ما يتمتع به الإنسان من حوائج الحياة، وكل ما يتمتع به فهو متاع، والحين: فيه أقوال:

- الوقت: قصيرا كان أو طويلا.
- الوقت الطويل.
- وقت الهلاك أو الهلاك حين يحل وقته.
- ويوم القيامة.

والمراد: التمتع والتلذذ بالعيش والانتفاع بما في الأرض من خيرات إلى حين انقطاع الأجل: إما بانقضاء الآجل كأفراد (يعني الموت) وإما بإنقضاء الحياة الدنيا كجنس بشري (يعني يوم القيامة) والخلاصة: أن للحياة الدنيا ونعيمها ابتداء وانتهاء.

فيها تحيون: أي تعيشون في الأرض

وفيها تموتون: أي تموتون في الأرض.

ومنها تخرجون: أي تخرجون من الأرض عند البعث يوم القيامة.

مضامين الآيات الشريفة المباركة

الآيات الشريفة المباركة تتناول مسألة هبوط آدم وحواء عليهما السلام إلى الأرض بعد خروجهم من الجنة، وقد هبط معهما إبليس (عليه اللعنة) وتتضمن الآيات الشريفة المباركة الإشارة إلى حقائق عديدة، منها:

- العداوة بين بني آدم وإبليس.
- العداوة بين بني آدم وبعضهم البعض.

- أن استقرار الإنسان في الأرض مؤقت وليس دائما.

- أن الله عز وجل سوف يبعث الأنبياء لهداية الإنسان، فمن يتبع هدايتهم عليهم السلام يحصل على الحياة الطيبة الآمنة في الدنيا ويحصل على السعادة الأبدية الخالدة في الآخرة، ومن يعرض عنها يعيش الضيق والاضطرابات والأمراض النفسية والقلق والحيرة في الدنيا ويكون في الآخرة من أصحاب النار.

- أن الإنسان ينتقل بعد انقضاء الحياة الدنيا على وجه الأرض إلى عالم الآخرة ليحاسب على أعماله التي عملها في الدنيا ويحصل على الجزاء المناسب لعمله: الثواب أو العقاب.

- التحذير من العاقبة السيئة للتمادي في المعصية، ومن عقوبة الاستئصال بالعذاب في الدنيا فضلا عن عذاب الآخرة.

ولنا في هذا الفصل تسعة بحوث كالتالي:

- الهبوط إلى الأرض
- العداوة على الأرض
- عداوة إبليس لآدم عليه السلام وذريته.
- عداوة بني آدم لبعضهم البعض.
- الحياة الاجتماعية للإنسان.
- حياة الإنسان والهداية الربانية.
- الاستقرار في الأرض.
- علاقة الانسان بالطبيعة.
- عقوبة الاستئصال.

البحث (١): الهبوط إلى الأرض

قول الله تعالى: ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ﴾[١].

الخطاب في الآية الشريفة المباركة هو لآدم وحواء عليهما السلام ولإبليس (عليه اللعنة) ومن خلال التأمل في الآيات الشريفة المباركة: نجد أن الله جل جلاله قد أوجب قضائين في آدم وحواء عليهما السلام وذريتهما:

القضاء (١) الأكل من الشجرة قد أوجب حكمه تعالى وقضائه بالهبوط والاستقرار في الأرض والحياة فيها بشقاء وتعب.

القضاء (٢) أن التوبة أوجبت حكمه تعالى وقضائه بإكرام آدم وحواء عليهما السلام وذريتهما بالهداية.

يقول العلامة السيد الطباطبائي: « فالمقضي أولا كان نفس الحياة الأرضية، ثم بالتوبة طيب الله تلك الحياة بأن ركب عليها الهداية إلى العبودية، فتألفت الحياة من حياة أرضية وحياة سماوية »[٢].

والأمر بالهبوط ورد مرتين في سورة البقر: قبل التوبة وبعدها، وهذا يدل على ما يلي:

- أن التوبة حصلت بعد التوبيخ الإلهي والأمر بالهبوط وقبل تنفيذ الأمر

---

(١) البقرة:٣٨.

(٢) الميزان. ج١. ص ١٣٥.

بالهبوط.

- أن الخروج من الجنة أمر حتمي بعد المخالفة، وأن التوبة لم تغير من هذا الأمر شيئا.

- أن الهبوط ليس مجرد عقوبة على المخالفة، وإنما يرتبط بتخطيط إلهي لخلافة الإنسان لله تبارك وتعالى ولحياته على الأرض، التي هي المكان الطبيعي لممارسة الخلافة الإلهية التي خلق الإنسان من أجلها.

- إظهار حالتين متغايرتين بشأن الإنسان:

الحالة (١) بعد المخالفة: وفيها إظهار لنتائج مخالفة آدم وحواء عليهما السلام لأمر الله عز وجل في الواقع، وبيان لكون الدنيا دار بلاء وامتحان وخصومة وصراع ومسؤولية وأنها تنتهي إلى الفناء والزوال.

الحالة (٢) بعد التوبة: وفيها إظهار لرحمة الله تبارك وتعالى، ووعد بإيتاء الهدى المؤدي إلى النجاة والسعادة.

- التذكير بسوء عاقبة المعاندين الذين يصرون على المعصية، والبشرى للتائبين بالرحمة وحسن العاقبة.

نتائج مهمة

ونتوصل مما سبق إلى النتائج المهمة التالية:

النتيجة (١): أن العقاب ليس بمقصود من التكليف، وإنما هو نتيجة وجودية لسوء اختيار المكلف.

النتيجة (٢): أن الله تبارك وتعالى لا يسبب المعصية لعباده ولا يصد أحدا

من عباده عن الطاعة ولا يخرجه منها، فقد نسب ذلك إلى الشيطان، وهو يتعالى عما عاب به الأبالسة والشياطين.

النتيجة (٣): أن المعصية تحصل باختيار الإنسان نتيجة الغفلة عن ذكر الله عز وجل والوقوع تحت تأثير الهوى والنفس الأمارة بالسوء وطاعة الشيطان الرجيم وتزيينه.

النتيجة (٤): أن الوصول إلى جنة الخلد يمثل الهدف الكبير لحياة الإنسان على الأرض، وأن قيمتها تكمن في تمثيلها لرضوان الله تبارك وتعالى ولطفه ورحمته بالعباد، وأن الطريق إليها هي الطاعة، وأن المعصية هي الطريق إلى النار وبئس القرار.

في تفسير القمي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: « أن آدم هبط على الصفا وحواء على المروة فمكث آدم أربعين صباحا ساجدا يبكي على خطيئته وفراقه للجنة ».

نكتة لطيفة

إن الهبوط إلى الأرض ومزاولة الإنسان لمسؤولياته الخلافية فيها، يرتبط إرتباطا وثيقا بممارسة الشهوات النفسية والاستجابة لمطالب الجسد، وبدون ذلك:

- لا يحصل كمال للإنسان.
- ولا تتحقق حكمة الخلافة في الأرض.

ولهذا يأخذ الهبوط معنا آخر يرتبط بهذه الحقيقة الوجودية.

يقول العارف الجنابذي: « اعلم أنه تعالى باقتضاء حكمته الكاملة يخلي بين

آدم ومشتهياته المنسوبة إلى نفسه الدانية ليهبط من مقامه العالي إلى سجن الدنيا ليستكمل فيه ويستكثر نسله وأتباعه »[1].

وقال: « وبدون ذلك الهبوط لا يحصل كمال لآدم ولا نسل ولا اتباع »[2].

---

(١) بيان السعادة. ج١. ص٨٢.

(٢) نفس المصدر .

المبحث (٢): العداوة على الأرض

قول الله تعالى: ﴿ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ ﴾[1].

العدوانية: سلوك عنيف مقصود، تصاحبه كراهية وغضب وانتقام، وتتجلى فيه إرادة القوة والسيطرة، ويهدف إلى الحاق الأذى بالآخرين، وهو سلوك يخالف معايير المجتمع المتفق عليها، وحرام شرعا.

وتتميز الشخصية العدوانية:

- بالطموح وحب السيطرة وروح المغامرة والمخاطرة.
- الأنانية والسعي لانتهاز الفرص لإثبات الذات على حساب الآخرين.
- نقص البصيرة وضعف الوازع الديني وانعدام الشعور بالمسؤولية والواجب تجاه الآخرين.
- رفض النظام والخروج على القانون العادل وعدم الاكتراث بالقيم والمباديء النبيلة.
- استخدام كل الأساليب والوسائل المشروعة وغير المشروعة في سبيل تحقيق الأهداف الخاصة.
- القسوة والميل إلى الأعمال العنيفة لإيذاء الغير.
- تجاوز الحد في الانتقام، وعدم الاكتفاء برد السيئة بمثلها، وإنما ردها

---

(١) البقرة:٣٦.

بأضعافها من السيئات، بل قد يتجاوز ذلك إلى الافتخار بالظلم والجور على الناس.

- التعصب الأعمى ضد كل ما يخالف فكره ومصالحه.

ويعتبر السلوك العدواني شكلا من أشكال التعبير عن الحقد والحسد والتعويض عن الشعور بالاحباط والقلق والتوتر والنقص والحرمان لدى المعتدي، بخلاف التسامح الذي هو من أكبر الفضائل الأخلاقية، ويدل على كمال النفس ونضجها وثقة الإنسان بنفسه ورضاه عن الآخرين وسعيه لتحقيق المصالح والأهداف المشتركة مع الغير، كما هي سيرة الأنبياء والأولياء الصالحين عليهم السلام.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾[١].

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴾[٢].

وقال جبرائيل للرسول الأعظم الأكرم صلى الله عليه وآله: « يا محمد إن الله يأمرك أن تعفو عمن ظلمك وتعطي من حرمك وتصل من قطعك »[٣].

وقد نهى الله تبارك وتعالى عن العدوان نهيا مطلقا، أي نهى عن كل ما يصدق عليه أنه اعتداء في الحقيقة والواقع، حيث أن الاعتداء في غاية القبح والبشاعة، وأقبح منه أن يرتكب الاعتداء بأسم الله تبارك اسمه، وقد صرح الله تبارك وتعالى في كتابه المجيد بأنه لا يحب المعتدين.

---

(١) النحل: ٩٠.

(٢) فصلت: ٣٤ - ٣٥.

(٣) مجمع البيان.ج٢.ص٥١٢.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾[1].

وقال الله تعالى: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ ۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[2].

وقال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾[3].

ويترتب على ذلك: مراعاة الأصول الأخلاقية وملازمة الاحتياط في الرد على الاعتداء، لكي لا ينحرف الرد عن جادة الاعتدال في الحجم والطبيعة، وهذا يتطلب صفة التقوى في صاحب الحق الذي يمتلك القدرة على الرد، وبدون التقوى فإن النوازع النفسية تتحكم في التصرف، وتستحكم العصبية وروح الانتقام، مما يؤدي إلى تجاوز الاعتدال في الرد على الاعتداء، فيأخذ أكثر مما له من الحق، ويأخذ البريء بجريرة المذنب.

وليس من العدوان القصاص والدفاع العادل عن النفس.

قال الله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[4].

---

(١) البقرة: ١٩٠.

(٢) المائدة: ٢.

(٣) الأحزاب: ٥٨.

(٤) البقرة:١٩٣- ١٩٤.

والخطاب في الآية موضوع البحث: موجه لآدم وحواء عليهما السلام وإبليس (عليه اللعنة) ويفيد بأن الأرض سوف تكون ساحة مفتوحة للصراع:

الصراع (١): بين إبليس (عليه اللعنة) وبين آدم وحواء عليهما السلام وذريتهما: فهو صراع:

- بين الحق الذي تمثله إرادة الله في وحيه وشريعته من جهة، وبين الباطل الذي تمثله إرادة الشيطان في غوايته وأضاليله ووسوسته من جهة ثانية.

- وبين طبيعة شريرة محضة ويمثلها إبليس (عليه اللعنة) من جهة، وطبيعة مزدوجة الاستعداد للخير والشر ويمثلها الإنسان من جهة ثانية.

لتكون الحياة بالنسبة للإنسان ساحة امتحان وابتلاء يتقرر من خلالها مصير الإنسان، بين: السعادة والشقاء، والجنة والنار.

ولإبليس في هذه المعركة هدفان:

- إيجاد الاضطراب والقلق في حياة الإنسان من خلال خلق المشاكل والفتن والحروب، لكي لا يشعر الإنسان بالراحة والاطمئنان في الحياة.

- إبعاد الإنسان عن طاعة الله سبحانه وتعالى، ليسلبه الكرامة التي فضله الله تبارك وتعالى بها عليه، وليحرم من رحمة الله عز وجل ورضوانه، ومن الجنة التي حرم منها، وليكون شريكه في نار جهنم في الآخرة.

بينما يجاهد الإنسان من أجل البقاء على طاعة الله ذي الجلال والإكرام والتمرد على إبليس وجنوده، ليفوز بالحياة الطيبة الآمنة المطمئنة في الدنيا، وبرحمة الله تبارك وتعالى ورضوانه والجنة في الآخرة.

والخلاصة: أن الصراع مرير وقاسي جدا بين إبليس (عليه اللعنة) وبني آدم، فإبليس يريد أن يضل آدم وحواء عليهما السلام وذريتهما وينحرف بهم عن طريق الله

تبارك وتعالى، وآدم عليه السلام ومن بعده الرسل جميعا يريدون أن يفتحوا حياة الإنسان كلها على الله تبارك وتعالى ليكون الدين كله لله سبحانه.

فمصلحة إبليس لا يمكن أن تلتقي مع مصلحة الإنسان، حيث أن مصلحة الإنسان تتمثل في طاعته لله تبارك وتعالى ودخوله الجنة، ومصلحة إبليس تتمثل في أن يعصي الإنسان ربه سبحانه وتعالى وأن يكون شريكه ليعذب معه في نار جهنم.

ونتوصل مما سبق إلى النتيجة المهمة التالية: أن كل ما يحصل عليه الإنسان من مكاسب ظاهرية: مادية أو معنوية عن طريق طاعة الشيطان، فهي في حقيقتها خسارة جوهرية له، حتى لو ملك الدنيا بأسرها، وأتته طائعة خاشعة بين قدميه.

الصراع (٢): بين بني آدم عليه السلام وبعضهم البعض في أمر المعاش والسلطة، حيث يبغي بعضهم على البعض الآخر ظلما وعدوانا، والسبب الحقيقي وراء هذه المعركة هو إبليس (عليه اللعنة) أيضا.

نتائج مهمّة

ونتوصل مما سبق إلى النتائج المهمة التالية:

- أن العداوة من إبليس لبني آدم هي كفر ومعصية، لأنها تقوم على أساس الاستكبار على الله جل جلاله ومخالفة أمره ونهيه.

- وأن العداوة من آدم وذريته لإبليس هي إيمان وطاعة ، لأنها بأمر الله تبارك وتعالى، وهي في سبيل إقرار الحق والعدل والعمل بالخير والفضيلة، ومواجهة الباطل والظلم والشر والرذيلة.

- وأن العداوة بين بني آدم هي ظلم وعدوان يقف وراءها إبليس (عليه

اللعنة) وانها ببين مبطل ومحق، وباغي ومبغي عليه، وظالم ومظلوم، والواجب في دين الله سبحانه وتعالى وحكم العقل والفطرة الإنسانية: نصرة المحق على المبطل، ونصرة المبغي عليه على الباغي، ونصرة المظلوم على الظالم، وأن ترك النصرة تعنى الشراكة في الظلم والعدوان.

البحث (٣): عداوة إبليس لآدم عليه السلام وذريّته

قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾[١].

لقد تقدم معني العداوة، وبيان خصائص الشخصية العدوانية، وقد آل الشيطان على نفسه أن يقعد إلى الإنسان في كل مرصد من أجل إغوائه وصرفه عن حسن العاقبة وعن تحصيل السعادة في الدنيا والآخرة، استكبارا منه على الله عز وجل، وانتقاما لنفسه من آدم عليه السلام وذريته الذين جعلهم الله سبحانه وتعالى خلفاؤه في الأرض.

وقد تضمنت الآية الشريفة المباركة ثلاث حقائق أساسية.

الحقيقة (١): التأكيد على عداوة إبليس.

قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾[٢].

حيث يعتبر الشيطان في نفسه - بحسب التحليل العقلي وإخبار الرب الجليل - وبحسب تصريح إبليس نفسه وسلوكه ومواقفه، عدوا لدودا لآدم وحواء عليهما السلام ولذريتهما، فهو رمز الشر والمعصية والغواية، وكانت تجربته الأولى مع أبينا آدم وأمنا حواء عليهما السلام حيث أقسم لهما كذبا من أجل إخراجهما من الجنة، في سبيل الانتقام منهما عن طريق إضلال ذريتهما في الأرض.

---

(١) فاطر: ٦.

(٢) فاطر: ٦.

الحقيقة (٢): وجوب عداوة الإنسان لإبليس.

قول الله تعالى: ﴿ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾[١].

فإذا ثبتت عداوة إبليس الأكيدة لآدم وذريته بالعقل والتجربة، فإن المطلوب عقلا وشرعا من آدم عليه السلام وذريته هو أن يتخذوه عدوا لهم بحق وحقيقة: في سرهم وعلانيتهم، وفي كافة أعمالهم وأحوالهم الظاهرة والباطنة.

سؤال (١): من المعلوم أن بني آدم لا يرون إبليس ولا يتعاملون معه تعاملا حسيا، فما هي قيمة التحذير من عداوته؟

قول الله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾[٢].

الجواب (١): لقد أخبرنا الله تبارك وتعالى بأن إبليس (عليه اللعنة) له تأثير على أفكارنا ومشاعرنا ومواقفنا، وهذا يتطلب منا التدقيق في أفكارنا ومشاعرنا ومواقفنا لكي تكون خالصة لله تبارك وتعالى وليست من وحي الشيطان والوقوع تحت تأثيره.

سؤال (٢): كيف يميز الإنسان بين وسوسة الشيطان وإلهام الملائكة؟

الجواب (٢): قال الرسول الأعظم الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: « للشيطان لمة وللملك لمة تقع في القلب، فأما لمة الشيطان: فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك: فإيعاد بالخير وتصديق بالحق »[٣].

الحقيقة (٣): تعليل اتخاذ إبليس عدوا.

---

(١) فاطر: ٦.

(٢) الأعراف: ٢٧.

(٣) التفسير الواضح. ج٢٢. ص٦٤.

قول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾[1].

هذه هي الحقيقة: كل من يتبع إبليس فإنه يورده المهالك ويوقعه في حبائله التي تقذفه في نار جهنم .

قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴾[2].

أساليب إبليس في إغواء بني آدم وإضلالهم

قول الله تعالى: ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾[3].

وقول الله تبارك وتعالى: ﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾[4].

---

(١) فاطر:٦.

(٢) النساء:١١٩.

(٣) الإسراء: ٦٢ – ٦٤.

(٤) النساء: ١١٨ – ١٢٠.

بيان المفردات

لأحتنكن ذريته: الاحتناك: الاقتطاع من الأصل، يقال: احتنك الجراد الأرض إذا أكل كل ما عليها. والاحتناك: الإلجام، يقال: حنك الدابة بحبلها إذا جعل في حنكها الأسفل حبلا يقودها به، والذرية: الولد والنسل، والجمع: ذريات وذراري.. والمراد: لأستولين عليهم استيلاء قويا وأحتويهم وأملك زمامهم وأجعلهم في قبضة يدي وأقودهم إلى حيث شئت، فأبعدهم عن طاعتك التي أردت لهم أن يديروا بها الأرض من خلال وحيك، وأنزلهم إلى مستوى البهيمة والشياطين في المعصية والتمرد.

جزاء موفورا: الجزء: البعض، وجزأ الشيء: قسمه أجزاء، ووفر: كثر واتسع، والموفور: الذي لم ينقص منه شيء.. والمراد: جزاء كاملا لا نقصان فيه.

واستفزز من استطعت منهم بصوتك: فز: فزع، وأفزه: أفزعه وأزعجه، واستفزه: أثاره، واستفزه الخوف: استخفه، واستفزه من الأرض: أزعجه ليخرجه منها، واستطاع الشيء: أطاقه وقدر عليه، وصات: صاح ودعا وأحدث صوتا، والصوت: كل ما يسمع، والجمع: أصوات.. والمراد: استخف واستنهض واستثير بالمال والسلطة والجنس والشهوة المثيرة والغناء المبتذل ونحوه، وبكل دعوة إلى الشر والمعصية من استطعت منهم.

وأجلب عليهم بخيلك ورجلك: جلب: جمع وصاح واستحث، والخيل: الفرس (الواحد والجماعة) والجمع: خيول، وتطلق على الفرسان، ففي الحديث: « يا خيل الله اركبي » والرجل: القدم، والجمع: أرجل، والراجل: من يمشي على رجليه وغير الراكب، والجمع: رجل ورجال، ويطلق على الجنود المشاة.. والمراد: صح عليهم وقدهم بكيدك وأعوانك من راكب وماشي إلى معاصي الله عز وجل.

وشاركهم في الأموال والأولاد: الشريك: صاحب النصيب والحصة، والجمع: شركاء، وشاركه: جعله شريكا، وأشرك بالله: جعل له شريكا، والمشرك: من جعل

لله عز وجل شريكا، والجمع: مشركون، والشركة: اختلاط النصيبين فصاعدا بحيث لا يتميز الواحد عن الآخر، والمشترك: ما كان لأكثر من واحد فيه نصيب، والمال: كل ما يملكه الفرد أو الجماعة أو الدولة من ثروة أو متاع أو عقار أو نقود أو غيره، والجمع: أموال، والولد: كل ما يولد، والجمع: أولاد.. والمراد: الأموال التي تكتسب من الحرام كالربا وتنفق فيه وبأولاد الحرام، مثل: أولاد الزنى.

لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا: أخذ الشيء: أمسكه وتناوله وأخرجه وحصل عليه، واتخذ: صير وجعل وصنع، والعبد: الرقيق والمتعبد، والجمع: عبيد وعباد، والعبادة: الانقياد والخضوع والذل، والعابد: من يقيم على العبادة، والجمع: عبدة وعُباد، وعباد الله: المتعبدين له الخاضعين لإرادته المنقادين لأمره ونهيه، والنصيب: الحصة من كل شيء، وفرض: أوجب وكتب وقدر، والفريضة: ما أوجبه الله سبحانه وتعالى على العباد من العبادات والشرائع والسنن، والمفروض: المحدود والمعين والواجب الأداء.. والمراد: لأجعلن من عبادك حصة أقتصطعها لي، أي أدعوهم إلى طاعتي ومعصيتك فيستجيبون لي، فكل من أطاع إبليس (عليه اللعنة) فهو من نصيبه.

ولأضلنهم ولأمنيهم: سبق بيان معنى الضلال، وتمني الشيء: قدره وأراده وأحب أن يصير إليه، ومنى الله: قدره، والأمنية: البغية، والجمع: أماني، والمتمنيات: ما يتمنى من كل شيء.. والمراد: لأدفعنهم أو لأصرفنهم بالوسوسة عن العقائد الصحيحة والطرق المستقيمة في التفكير والعمل إلى الضلال، فأصرفهم عن الحق إلى الباطل، وعن الصلاح إلى الفساد، وعن الخير إلى الشر، وعن العدل إلى الظلم، وعن الفضيلة إلى الرذيلة، ونحوه، ولألقي في قلوبهم الأماني الكاذبة، مثل: طول العمر أو الشفاعة، أو أنكار البعث والحساب والجزاء ونحوه.

فليبتكن آذان الأنعام: بتك: شق وقطع، وبته: قطعه، وسيف باتك: قاطع، والأذن: حاسة السمع، والجمع: آذان، والنعم: المال من الحيوانات الراعية، مثل: البقر

والغنم والابل، والجمع: أنعام.. والمراد: فليقطن أو فليشقن آذان الأنعام لتحريم ما أحل الله أو تمييزا لها لتقديمها للآلهة من دون الله عز وجل.

فليغيرن خلق الله: غير الشيء: بدل به غيره وجعله على غير ما كان، وسبق بيان معنى الخلق.. والمراد: تغيير فطرة الله عز وجل ودينه، مثل: تحريم ما أحل الله عز وجل، وفقؤ عين الحامي (فحل البعير الذي خرج من صلبه عشرة أبطن) أو إخصاء العبد، وكان في الجاهلية يقال عن الحامي: حمى ظهره، فلا يركب ولا يمنع من ماء أو مرعى، وقد ابطل الإسلام الحنيف هذه التخرصات والعادات الجاهلية وغيرها.

ومن يتخذ الشيطان وليا... فقد خسر خسرانا مبينا: الوالي: المحب والناصر والحليف والشريك والتابع والمطيع، والجمع: موال، وولي المرأة: من يلي عقد نكاحها، وولي اليتيم: من يلي أمره ويقوم بكفالته وكفايته، والخسر والخسران: النقصان والفقد والضياع والضلال والهلاك وضد الربح.. والمراد: من يتولى الشيطان ويطيعه فقد خسر خسارة بينة واضحة، لأنه استبدل الجنة بالنار.

يعدهم ويمنيهم: وعده: عاهده أن يجري له أو ينيله الخير، والوعيد: التهديد بالشر، والوعد: زمان أو مكان الوعد أو الوعد نفسه، وواعده: عاهده على أن يوافيه في مكان أو زمان معين، والميعاد: وقت الوعد، واليوم الموعود: يوم القيامة ويوم ظهور المهدي القائم (عجل الله تعالى فرجه الشريف) وسبق بيان معنى الأمنية.. والمراد: يعدهم بالمواعيد الكاذبة التي تثير الأحلام الذهبية وتؤدي إلى القبول بتزيينه وإغوائه والانحراف عن الصراط المستقيم في الحياة، مثل: الاتكال على الشفاعة، والوعد بالمغفرة والرحمة بعد المعصية، والافلات من العقوبة والقصاص، والوعد بالغنى من الكسب الحرام، والوعد بالقوة والسلطة وتحقيق الغلبة من خلال العنف والإرهاب وغيرهما من الأساليب القذرة، ويمنيهم بالأباطيل الفارغة، مثل: طول العمر، ونيل الآمال في الدنيا، وأن لا بعث ولا حساب ولا جزاء ونحوها.

وما يعدهم الشيطان إلا غرورا: الغُرور: الخداع والإغراء بالباطل والتجرء عليه

والباطل نفسه، والغرور (بالفتح): كل ما يخدع من مال وجاه وشهوة ومنصب وسلطان وغيره.. والمراد: أن كل ما يعدهم الشيطان به هو مجرد خداع وباطل لا حقيقة له ولا واقع، ولكنه يزينه لهم ويصوره لهم في صورة الحق والواقع ويوهمهم النفع فيما فيه الضرر والهلاك لهم.

علاقة الإنسان مع إبليس

لقد صاحب إبليس (عليه اللعنة) مسيرة الإنسان التاريخية من أول ظهورها ، وسوف يبقى مرافقا له إلى الوقت المعلوم (فيه أقوال قد بينتها فيما سبق) ويتمتع هذا المخلوق العجيب بسطوة على الإنسان:

- فهو يستطيع أن يصل إلى قلب الإنسان، ومعرفة ما يدور في خلده وسره، وما يدور في خياله وفكره.

- ويتصرف فيه من جهة العواطف النفسانية: الخوف والرجاء، والشهوة والغضب.

- وله القدرة على التأثير في فكره وإرادته، فيزين له الأمور القبيحة، مثل: الظلم والقتل والزنا والكذب والسرقة وشرب الخمر وغيرها من الكبائر والآثام ويصورها وكأنها أمور جميلة أو حسنة، وذلك من خلال العواطف والميول النفسية والطبيعية لديه (تحريك عواطفه وغرائزه الجامحة) وإلقاء الأوهام الكاذبة والأفكار والمفاهيم الباطلة من غير أن يشعر، بحيث يتوهم بأن الأفكار والأوهام التي يوسوس بها الشيطان في نفسه هي أفكار ومفاهيم وقضايا أوجدها هو من نفسه، ولم يلقيها أحد إليه، فيضعف بذلك ما يخطر بباله من المحاذير والعواقب السيئة.

- ويستطيع إبليس (عليه اللعنة) التأثير على أشخاص كثيرين متباعدين في وقت واحد.

- وله جنود وأعوان من الجن والإنس وذرية مختلفة الأنواع والأجناس، يعينونه فيما يأمر به ويساعدونه على ما يريد.

والخلاصة: أن لإبليس قدرة التأثير على قلب الإنسان وعقله وبدنه وسلوكه ومواقفه وفي كافة شؤونه على المستوى: الفردي والاجتماعي.

صور قرآنية لإغواءات إبليس

لقد سبق البحث في أساليب إبليس (عليه اللعنة) في إغواء الإنسان وإضلاله، وسأضيف هنا بعض التفاصيل التي أشارت إليها الآيات الشريفة المباركة - مع مراعات الاختصار - لمزيد من الفائدة في هذا الموضوع المهم، جريا وراء الاهتمام القرآني به، حيث ذكر في سبع مرات تقريبا في القرآن الكريم بصور مختلفة.

الصورة (١): قول الله تعالى: ﴿ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ ﴾[١].

أي أن إبليس (عليه اللعنة) سوف يعمل على إيجاد دعوات باطلة، مثل: الالحاد والعلمانية من خلال برامج إعلامية ومؤسسات ثقافية وتعليمية وتربوية، ويستخفهم من خلال الإغراء بالجنس والمال والجاه والسلطة وغيرها من العوامل المؤدية إلى الفساد والإثارة والانحلال الخلقي، وكأنه مقاتل مغوار هجم على قوم فصوت بهم صوتا أزعجهم وأقلقهم فخرجوا من أماكنهم ومراكزهم الحصينة، وأستدرجهم إلى حيث يتمكن منهم في العراء أو المكان المكشوف الذي لا حماية فيه من حصون وقلاع وغيرها ليفرض سيطرته التامة عليهم ويجعلهم تابعين له من غير حول ولا قوة لهم.

---

(١) الإسراء: ٦٤.

الصورة (٢): قول الله تعالى: ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾[1].

أي أن إبليس (عليه اللعنة) سوف يلجأ إلى تحريك أفراد وجماعات ودول وحكومات منحرفة، مثل: الجواسيس والخائنين الذين لا ضمير لهم يردعهم عن المنكر، والحكومات الدكتاتورية المستبدة التي تصادر حقوق الناس وحرياتهم الطبيعية والمكتسبة، وقوى الاستكبار العالمي، واستخدام الأساليب العدوانية لتحقيق أهدافه، من خلال:

- التشجيع على السلب والنهب والقتل وهتك الحرمات والأعراض والنواميس.

- خلق الفتن الطائفية والعرقية والمذهبية وإثارة الحروب بين الدول من أجل بسط النفوذ على الشعوب المستضعفة واستعبادها ونهب ثرواتها ومقدراتها والسيطرة على أسواقها وقمع حركات النضال الوطني والتحرر المطالبة بالاستقلال والحقوق الطبيعية في الحياة.

- استخدام العلم والتكنولوجيا وكافة الأسلحة العسكرية والأساليب السياسية والأمنية القذرة بهدف الفتاكة والقتل والتخريب والسلب ونشر الفساد في الأرض وتحقيق الأهداف العدواينة الخبيثة.

والخلاصة: كل من يسعى في ظلم أو معصية، وفي إعاقة تقدم الشعوب وسلب حريتها واستقلالها، فهو من جند إبليس وأعوانه وشريكه في المنطلق والطريق والمصير.

الصورة (٣): قول الله تعالى: ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾[2].

---

(١) الإسراء: ٦٤.

(٢) الإسراء: ٦٤.

أي من خلال تشجيع الأفراد وحثهم على الكسب الحرام، مثل: الغصب والسرقة، وتشجيع القائمين على السلطة وحثهم على الاستئثار بالثروة دون أبناء الشعب، وإيجاد مدارس اقتصادية غير واقعية:

- تسمح بالكسب الحرام، مثل: القمار والربا والكسب من الحرف الذميمة والأفعال القبيحة كالزنا، والانفاق غير الرشيد للثروة عن طريق الاسراف والتبذير والانفاق الآثم وفي غير محله كما هو الحال في الرأسمالية.

- أو تضييق فرص الكسب ومصادر حرية التملك لصالح السلطة كما هو الحال في الشتراكية.

وإيجاد مدارس اجتماعية وسياسية وتربوية وأنظمة قيمية تؤدي إلى الانحلال الخلقي وتفكيك الأسرة وعدم احترام الحقوق والواجبات الشرعية في الزواج والطلاق، وإيجاد أنظمة سياسية دكتاتورية مستبدة تنتهك الحريات والحقوق الطبيعية للإنسان، وتبرر استخدام الأساليب القذرة في الصراعات السياسية، وإضعاف الرقابة الاجتماعية، وتعطيل فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإضعاف التضامن الاجتماعي بين الأفراد والجماعات في المجتمع، والتربية على غير النهج الشرعي القويم.

الصورة (٤): قول الله تعالى: ﴿ وَعِدْهُمْۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾[١].

وقول الله تعالى: ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ ﴾[٢].

أي يقودهم إلى الضياع ويغرقهم في التصورات الوهمية، والأحلام الخيالية، والأماني الكاذبة المعسولة، بعيدا عن نداء الحقيقة الإلهية الواقعية المشرقة، وبعيدا عن طاعة الله ذي الجلال والإكرام، ووعده الحق بالجنة والنعيم،

---

(١) الإسراء:٦٤.

(٢) النساء:١١٩.

ووعيده الصادق بالنار والعذاب، مما يؤدي إلى إخراج الإنسان من طريق الأمن والسعادة، إلى طريق الخوف والشقاء.

وذلك من خلال: إيجاد مدارس فكرية تنكر الخالق والبعث والنشور والحساب والجزاء في يوم القيامة، بل تنكر أصل وجود الحقائق، وتؤكد على أصالة الحياة الدنيا وزخرفها وزينتها، وتجعل منها كل شيء في وجود الإنسان، مثل: الماركسية والوجودية واللاأدرية وغيرها.

وهي مدارس لا واقعية لها في الفكر، ولا تعتمد على الحقائق والمنطق الرصين، وإنما تعتمد على الوهم والخيال والمنطق الضعيف الذي يقوم على المغالطة والتدليس، فتنكر أصل وجود الحقائق في الوجود، أو تلبس الباطل لباس الحق، والخطأ لباس الصواب، والانحراف لباس الاستقامة، أو غيره، وهو منطق لا يقبله إلا جاهل أو مغرض.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾[١].

ويشتمل لفظ (صوتك) في قوله تعالى: ﴿ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ ﴾[٢]على إيحاء بليغ جدا.

يقول العلامة السيد الطباطبائي: « وكأن الاستفزاز بالصوت كناية عن استخفافهم بالوسوسة الباطلة من غير حقيقة، وتمثيل بما يساق الغنم وغيره بالنعيق والزجر وهو صوت لا معنى له »[٣].

---

(١) النور:٣٩.

(٢) الإسراء:٦٤.

(٣) الميزان. ج١٥. ص١٤٦.

قال الله تعالى: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾[1].

الصورة (٥): قول الله تعالى: ﴿ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾[2].

أي الأمر بالسوء والأعمال الضارة والتقليعات المختلقة، مثل: البحيرة والسائبة وعبدة الشيطان والهيبز وغيرها.

قال الله تعالى: ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[3].

الصورة (٦): قول الله تعالى: ﴿ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾[4].

وذلك من خلال:

- الدعوات الباطلة التي تخالف الفطرة الإنسانية التي فطر الله تعالى الناس عليها وهي عقيدة التوحيد.

- تغيير فطرة الله عز وجل في الأشياء، مثل: تحويل العنب والكروم إلى الخمر، وخصاء العبيد حتى يدخلوا على النساء من دون حرج، وممارسة اللواط والسحاق ونحوه.

- تغيير الخلق من خلال الاستنساخ وغيره من الوسائل العلمية الحديث، حين تستخدم بصورة خاطئة.

---

(١) المطففين: ١٠ – ١٤.

(٢) النساء:١١٩.

(٣) المائدة: ١٠٣.

(٤) النساء:١١٩.

- استخدام الصناعة والتكنولوجيا، مثل: الأسلحة والطاقة الذرية وغيرها في فناء البشرية وتدميرها بدلا من تسخيرها في خدمة الإنسانية وبناء الحضارة الراقية وتطويرها.

وكل ذلك بسبب غياب القيم الإنسانية الواقعية الرفيعة المستمدة من الإيمان بالله ومحبته وتقواه.

نتائج مهمة

ومما سبق نتوصل إلى النتائج المهمة التالية:

النتيجة (١): أن أمر الله عز وجل حق في نفسه، وأنه مطابق للواقع الخارجي وموافق للحكمة، والواجب الحق: هو امتثال أمره، وطاعته في أمره ونهيه، وعدم معصيته في صغيرة أو كبيرة.

النتيجة (٢): ضرورة التدقيق في المعتقدات والأفكار والمفاهيم، فإن المعتقدات والأفكار والمفاهيم المنحرفة تقود بطبيعة الحال إلى المعصية، حيث أن المعتقدات والأفكار والمفاهيم هي المحرك للإرادة التي تصدر عنها الأفعال.

النتيجة (٣): أن الأساس الذي تقوم عليه الطاعة لله عز وجل هي الحالة المولوية التي تربط بين العبد وربه (إنما يطاع الله سبحانه وتعالى لأنه الرب الذي بيده الأمر والنهي) وهو يختلف عن الأساس الذي تقوم عليه الطاعة بين بني الإنسان وبعضهم البعض، حيث تقوم على التوافق بينهم والمصلحة الظاهرية التي يدركها الإنسان بعقله وتشخيصه للأمور والمواقف، ويجب التمييز بين الأساسين في العلاقة مع الله ومع الناس وعدم الخلط بينهما، فإن الخلط بينهما يؤدي قطعا إلى المعصية والظلم والفساد. وهذا يشمل العلاقة بين الحاكم والمحكوم والقيادة

والاتباع، مع اختلاف جوهري في الحالة الإسلامية ينبغي التنبه اليه لكي لا تقع مفسدة ولا معصية.

- أن الشرعية في القيادة والحكومة الإسلامية مستمدة من الله عز وجل، بينما تكون القوة فيهما مستمدة من طاعة الناس ودعمهم ومساندتهم، وهذا يدل على الحاجة إلى رضا الناس لإقامة الحكومة الإسلامية وممارسة القيادة الإسلامية لدورها القيادي، وأن رضا الناس يرتبط عادة: بالاستقامة والكفاءة النفسية والإدارية والعملية.

- أن القيادة الإسلامية (في الحكومة وخارجها) مكلفة من الله سبحانه وتعالى بالرجوع إلى الناس ومشاورتهم في الإدارة وفيما يعود إليهم من الأمر.

قول الله تعالى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾[1] أي الأمر الذي يعود إليهم ويتعلق بمصالحهم وقضاياهم الحيوية في الحياة.

وقول الله تعالى: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾[2].

فلا يجوز للقيادة أن تستبد في اتخاذ القرارات التي تتعلق بالإدارة والأمور التي تتصل بمصالح الناس وقضاياهم الحيوية في الحياة بحجة الشرعية المستمدة من الله سبحانه وتعالى.

أما ما يعود إلى الله عز وجل من الأمور، مثل الأحكام الشرعية، فليس للناس الخيرة فيها، ويجب عليهم التسليم لما تبلغ به القيادة الشرعية فيها، لانها لا تخضع للشورى من قريب أو بعيد.

---

(١) الشورى:٣٨.

(٢) آل عمران:١٥٩.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾[1].

---

(١) الأحزاب: ٣٦.

المبحث (٤): عداوة بني آدم لبعضهم البعض

الحياة الدنيا حياة أضداد وتزاحم وتنافس وهي حياة محدودة: الزمان والمكان والمنفعة، والإنسان حيوان مركب من قوة العقل وقوة الغريزة، وكل قوة تجره إلى طريق مغاير للطريق الآخر، والإنسان يمتلك حرية الاختيار بين هذين الطريقين:

- فهناك من يتبع طريق العقل ويمثله منهج الله ذي الجلال والإكرام.
- وهناك من يتبع طريق الغريزة ويمثله منهج الشيطان.

مما يؤدي إلى ظهور الصراع بينهما.

والخلاصة: أن معركة الحياة لدى الإنسان في الأرض تتمثل في الصراع بين منهجين:

- منهج الله.
- ومنهج إبليس.

وهي معركة جدية وواقعية، وليست معركة وهمية أو من صنع الخيال، ولكل منهج قيادات وجماهير.

- أما قادة منهج الله / منهج العقل: فالأنبياء والأوصياء والفقهاء العدول الذين يتمتعون بالكفاءة والقدرة على تحقيق أهداف رسالة السماء في الأرض، وقد اطلق الله تبارك وتعالى عليهم اسم حزب الله.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾[1].

- وأما قادة منهج الشيطان / منهج الغريزة: فالطواغيت، والجبابرة في الأرض، والحكام المستبدين، ومصاصي الدماء من أصحاب رؤوس الأموال الطائلة التي يجمعونها بغير وجه حق على حساب دماء الفقراء والمحرومين وعرقهم، ووعاظ السلاطين، وأصحاب الأقلام المأجورة من كتاب وصحفيين، وقوى الاستكبار العالمي وغيرهم، وقد أطلق الله تبارك وتعالى عليهم أسم حزب الشيطان.

قال الله تعالى: ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾[2].

ويحاول حزب الشيطان دائما: تعطيل عقل الإنسان بغية خداعه وإضلاله وفرض السيطرة عليه، فبدون تعطيل عقل الإنسان (أي: إذا كان عقل الإنسان يعمل بحرية وبكامل طاقته) لا يمكن لهم السيطرة على الإنسان وخداعه وتحقيق أهدافهم الشيطانية الخبيثة معه.

ويترتب على ذلك مجموعة من الالتزامات يجب أن يلتزمها أهل الله وحزبه بهدف الحصول على الرحمة الإلهية والمدد والتوفيق الإلهي والفوز بالسعادة في الدنيا والاخرة، وهي:

- الاستقامة على منهج الله تبارك وتعالى في الفكر والممارسة.

- العودة إلى الله سبحانه وتعالى في حال ارتكاب الخطيئة أو المعصية بالتوبة والاستغفار.

---

(١) المائدة:٥٦.

(٢) المجادلة: ١٩.

- إعمال العقل وعدم الاقدام على أي عمل قبل الدراسة والتفكير وتعيين الحق والباطل والخطأ والصواب فيه.

حيث يترتب على تعطيل عقل الإنسان النتائج الخطيرة التالية:

- الابتعاد عن الله تبارك وتعالى وسقوط حاجز التقوى.
- سقوط الإنسان عن مكانته الإنسانية السامية وانكشاف سوءته للآخرين.
- الخروج من جنة الأمن والطمأنينة والوقوع في دوامة الحياة المادية المضنية.

أساليب التعاطي مع الأعداء

على ضوء مفهوم العداوة وحقيقتها يجب التعاطي مع الأعداء بحذر وأحتياط شديدين وبسوء الظن أيضا، وإلا تورط الإنسان بعواقب سيئة ومشاكل حقيقية.

قال الرسول الأعظم الأكرم ﷺ: « احترسوا من الناس بسوء الظن »[١].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: « إذا استولى الصلاح على الزمان وأهله ثم أساء رجل الظن برجل لم تظهر منه خزية فقد ظلم، وإذا استولى الفساد على الزمان وأهله فأحسن رجل الظن برجل فقد غرر »[٢].

وقال الإمام الكاظم عليه السلام: « إذا كان الجور أغلب من الحق لم يحل لأحد

---

(١) البحار. ج٧٧. ص١٥٨.

(٢) البحار. ج٧٥. ص١٩٧.

أن يظن بأحد خيرا حتى يعرف ذلك منه »[1].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: « إذا كان الزمان زمان جور وأهله أهل غدر فالطمأنية إلى كل أحد عجز »[2].

فلا يصح التعامل مع الأعداء بطيبة وسذاجة في جميع الأمور والأحوال.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: « الحذر كل الحذر من عدوك بعد صلحه فإن العدو ربما قارب ليتغفل فخذ بالحزم واتهم في ذلك حسن الظن »[3].

يقول العلامة مكارم الشيرازي: « ومن الموارد الأخرى التي يجوز فيها سوء الظن بل قد يكون واجبا أيضا هو في الحالات التي يكون الإنسان في مقابل العدو، ويمكن أن يطلب العد الصلح وينادي بالمحبة والصداقة ويعلن عن رغبته في التعاون وامثال ذلك، فمثل هذه الموارد لا ينبغي التعامل معه بسذاجة وتصديق كلما يقوله من موقع حسن الظن واسدال الستار عن الماضي نهائيا والتقدم إلى العدو بابتسامة عريضة والشد على يده ومعانقته، بل ينبغي أن يضع في زاوية الاحتمال أن يكون هذا السلوك من العدو من موقع المكر والحيلة والخدعة لإستغفال الطرف المقابل »[4].

ويقول العلامة السيد فضل الله: « إن علينا أن نضع أمامنا حقيقة العداوة مع الأعداء، فلا نستسلم لحالات الاسترخاء الطيب في نفوسنا للعلاقات الطارئة التي تعيش في جو حميم، لأن العدو الذي يعيش الإحساس بالفواصل الفكرية والروحية والعملية التي تفصله عنا، لابد له من التخطيط الفكري والعملي الذي يشل معه قدرتنا عن التحرك، ويوحي لنا بالانحراف من حيث لا نريد أولا نشعر،

---

(١) البحار. ج٧٨. ص٣٢١.

(٢) تحف العقول. ٢٦٢ .

(٣) النهج. الرسالة: ٥٣ .

(٤) الأخلاق. ج٣. ص٣٠٧.

فنستسلم للسذاجة الطيبة، وللكلمات المعسولة، وللأجواء الحميمة التي يتنامى فيها الشعور بحسن الظن »[1].

وأن هذا الإسلوب من التعاطي الحذر مع الأعداء قد يكون مطلوبا من أجل المحافظة على سلامة الخط وصفاء العقيدة ومن أجل المحافظة على الوجود والهوية والمشاعر من الذوبان والتبخر، لاسيما في ظروف الاغراء والتهديد.

يقول العلامة السيد فضل الله: « ثم نلتفت إلى ما حولنا من الأشياء التي تثيرنا نحو التحرك، وإلى من حولنا من الناس الذين نختلف معهم في جوانب العقيدة والحياة عندما نلتقي بهم في بعض مراحل الطريق، أو نتفق معهم في بعض خطط العمل، لندرس كل علاقة فكرية أو عملية بروح الحذر الذكي الذي لا يتجمد ليشل في الإنسان جانب الحركة في جو الشك، بل يتحرك ليبحث عن كل السلبيات الكامنة في خلفيات الأشياء والنفوس، فقد تكون هناك بعض الأمور السيئة الكامنة خلف واجهات الإغراء»[2].

والخلاصة: أن الله جل جلاله يريد من الإنسان أن يتعلم من تجارب الحياة وأن يعيش الوعي العميق في كل حركة من حركاته، وفي كل خطوة من خطواته في الحياة، لاسيما في ظروف الصراع مع الأعداء، ليحافظ على مبادئه وقيمة وكرامته وحريته وحقوقه الطبيعية في الحياة واستقامته وسلامة خطه وصفاء عقيدته، ليسير إلى غايته على أساس الطاعة الواعية المستقيمة، والرؤية الواضحة، والإرادة الحرة، لينتهي إلى ساحة قدس الله تبارك وتعالى والفناء فيه والقيام به والفوز بجنته ورضوانه.

---

(١) من وحي القرآن.ج١ .ص٢٧٤ .

(٢) من وحي القرآن. ج١ .ص٢٧٤ .

البحث (٥): الحياة الاجتماعيّة للإنسان

الحياة الاجتماعية للإنسان حاجة فطرية، وقد ظهرت استجابة لعوامل فطرية: طبيعية ونفسية، ولها محددات خارجية، أهمها:

- تفاعل الإنسان مع بني جنسه.
- وتفاعل الإنسان مع الطبيعة.

أهداف الحياة الاجتماعية: وللحياة الاجاماعية أهداف أساسية عديدة، منها:

- حفظ النوع والبقاء والاستمرار في الحياة.
- تحقيق الوضع والنتائج الأفضل للإنسان.
- تحقيق الأنس وتنمية العواطف الإنسانية النبيلة.
- تحقيق غاية الوجود.

وأن كل تصرفات الإنسان مع البيئة الطبيعية ومكوناتها: المادية والنباتية والحيوانية، ومع النفس: على الصعيد الفردي والمجتمعي، تصب في تحقيق الأهداف المذكورة، وهي تصرفات ذات اتجاهين:

- **فعل**، مثل: تسخير الطبيعة، وإنشاء العقود والنظم والمؤسسات، ومنها: إقامة الدولة.
- **ورد فعل**، مثل: الدفاع عن الحقوق الطبيعية والمكتسبة المشروعة:

الفردية والمجتمعية، وفي كافة نواحي الحياة: السياسية والاجتماعية والاقتصادية ونحوها، وبكافة الأساليب والوسائل المشروعة اللازمة، وهو حق فطري تقتضية غريزة البقاء والتنافس المشروع، والسعي الجدي نحو تحقيق الأفضل وتحقيق الغايات والأهداف: الخاصة والعامة في حياة.

ولأن الإنسان يمتلك نعمة العقل والتفكير، فهو يخطط ويضع البرامج المتنوعة من أجل تحقيق ذلك كله.

وتمتاز الحياة الاجتماعية: بتعارض المصالح والإرادات: الفردية والمجتمعية والتنافس بينها، وهذا يتطلب المصالحة والاتفاق لضبط العلاقات والمصالح وتنظيم المعيشة المشتركة وفق قواعد قانونية محددة، وبدون ذلك تعم الفوضى ولا يمكن أن يتحقق الأمن والاستقرار والصلاح والتماسك والتقدم في حياة الإنسان، ويكون المجتمع عرضة إلى الانحلال والزوال.

نتيجة مهمة

مما سبق نتوصل إلى النتيجة المهمة التالية: أن حياة الإنسان بين وضعين:

– وضع إنساني سليم يقوم على العدل والاستقرار وخلق التوازن من خلال حفظ كافة الحقوق الطبيعية والمكتسبة المشروعة للأفراد والجماعات، مما يدفع عجلة الحياة والتطور للأمام.

– وضع منحرف يقوم على الظلم والاخلال بالأمن وبالتوازن من خلال الاعتداء على الحقوق الطبيعية والمكتسبة المشروعة للأفراد والجماعات، مما يعيق تقدم الحياة وتطورها، ويؤدي إلى التخلف والانهيار.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً

﴿مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[1].

وبالنظر إلى الرؤية الإسلامية:

- أن غاية الرسل وإنزال الكتب السماوية هو نشر الوعي: الديني والفكري والسياسي والحقوقي ونحوهم، وتحقيق العدل والاستقرار والتقدم والازدهار والرخاء في حياة الإنسان.. وعليه: يجب رفض الجهل والظلم والتخلف ومقاومتها بكل وسيلة مشروعة، ولا يجوز الركون إلى الجهل والظلم والتخلف.

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[2].

وقال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[3].

- أن صاحب الحق الوحيد في التشريع للإنسان في جميع الشؤون الخاصة والعامة هو الله وحده لا شريك له.

- وأن التشريع الإلهي يتطابق مع عقل الإنسان وفطرته، وهو وحده الكفيل بتحقيق العدل والاستقرار والتوازن في حياة الإنسان، وتحقيق السعادة للإنسان في الدنيا والآخرة، وهذا ما يحكم به العقل وتقره النصوص.

---

(١) القصص: ٤.

(٢) الحديد: ٢٥.

(٣) الأعراف: ١٥٧.

علاقة الفرد بالمجتمع

ونشير فيها إلى تأثير المجتمع في الأفراد، ثم تأثير الأفراد في المجتمع.

أولًا: تأثير المجتمع في الأفراد

يتكون المجتمع من عدد من الأفراد، ولولا وجود الأفراد لم يوجد المجتمع، إلا أن وجود المجتمع سابق على وجود الأفراد في الدور والوظيفة، وقد بدأ وجود الإنسان وتاريخه في مجتمع الأسرة: آدم وحواء عليهما السلام وكل فرد وجد أو يوجد بعدهما، يولد في المجتمع، وهو في حالة ضعف تام، ولا يملك إلا الاستعدادات الفطرية، ويتولى المجتمع مسؤولية تربيته وتثقيفه وتهذيبه وتنميته، جسميا وروحيا واجتماعيا وعقليا، فيأخذ من المجتمع:

- لغته وعاداته وتقاليده وذوقه في المأكل والمشرب والملبس والمسكن.
- يغرس فيه المجتمع المشاعر النبيلة لبني جنسه، مثل: العطف والشفقة والرحمة.
- يتعلم منه النظام الاجتماعي والتشريعات القانونية التي تنظم حياته وتبين حقوقه وواجباته وتحفظ كرامته.
- يتلقى منه تراثه الحضاري المتراكم على مر الدهور والأزمان.

والخلاصة: أن شخصية الأفراد تتبلور وتنمو وتتكامل وتكون صالحة للعيش ويتحدد دورها من خلال المجتمع.

ثانيا: تأثير الأفراد في المجتمع

والفرد في المجتمع لا يأخذ فقط وإنما يعطي أيضا، فهو في الحياة

الاجتماعية يؤدي عملا معينا محددا، ويعتمد على غيره في أعمال أخرى، وبهذا تتكامل الأدوار، وتتحقق الأهداف المنشودة، حتى الطفل في الأسرة: فإنه مثلما يأخذ من والديه، فإنه يعطيهم البهجة والسرور.

والخلاصة: أن المجتمع والفرد لا ينفصلان، وإنما يتكاملان، ولكل منهما أصالته ودوره في خدمة اللآخر وبنائه وتكميله.

يقول عمر عودة الخطيب: « إن الحقيقة في هذه المسألة واضحة في الفطرة التي خلق الله الإنسان عليها، فهو - بحكم هذه الفطرة - ذو طبيعة مزدوجة: فردية وجماعية معا، وليس بين النزعتين تناقض في كيان الإنسان... فهما كذلك في كل إنسان، وبذلك تمتد الفردية كنزعة متأصلة في جميع أفراد الجنس البشري على السواء، لا يشذ عنها حتى أولئك الذين يحاولون هدمها، واسقاط اعتبارها أو تجاهل وجودها.. وتمتد الجماعة كذلك كنزعة متأصلة في جميع أفراد الجنس البشري على السواء، لا يستحق من يشذ عنها أن يوصف بأنه إنسان سوي.. وبين النزعتين ترابط وثيق، وإحكام رائع، وتفاعل مثمر، تحيا كل منهما بالأخرى وتقوى بها، وتتحركان معا في تناسق وتوازن، في مدار ينتج الخير، ويحقق النفع، ويدفع حركة العمران.. وما يبدو أحيانا من تعارض بينهما وشقاق، لا يعود - كما يزعم المنحرفون - إلى أن أحداهما أصيلة في الإنسان، والأخرى طارئة دخيلة، فتغذي الأصيلة وتكافح الطارئة... فليس الأمر كذلك، فكلتاهما أصيل في الفطرة... ولكنهما - كأي طاقة أخرى من طاقات الإنسان - قد يعتري إحداهما الشطط فيجانبها الاعتدال... ويضطرب التوازن فيقع الشقاق، ومن هنا تجيء مهمة النظام.. في تحقيق روح التوازن والاعتدال ومعالجة التجاوز والاسراف »[1].

وقد عمل الإسلام الحنيف على التوفيق بين النزعتين وجعلهما متساندتين متعاضدتين في بناء كيان الإنسان وتكامله: الفردي والمجتمعي.

---

(١) المسألة الاجتماعية بين الاسلام والنظم البشرية.ص١٨٥.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ﴾[1].

وقال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾[2].

نتيجة مهمة

ونتوصل مما سبق إلى النتيجة المهمة التالية: أن الفرد رغم تأثره البالغ بالمجتمع، فإنه لا يفقد حريته واستقلاله في المجتمع تماما، وإنما يستطيع بعد تكامل شخصيته، من إظهار شخصيته، وأن يقرر مصيره بنفسه، ويترك تأثيره في المجتمع، وقد ينجح في تغيير وجه المجتمع وقلب نظامه رأسا على عقب، كما فعلت بعض القيادات التاريخية الكبيرة.

النجاح والفشل في الحياة الاجتماعية

وتكون الحياة الاجتماعية ناجحة بمقدار ما يتوفر لها من الصدق والإخلاص والعدل والتعاون في المعاملة وتبادل الخدمات، فإن فريق اللعب قد يخسر الجولة بسبب أنانية بعض اللاعبين وانفرادهم باللعب وعدم تعاونهم مع الأعضاء الآخرين في الفريق.

---

(١) الصف: ٤.

(٢) الحشر: ٩.

العوامل التي تؤدي إلى تماسك المجتمع أو تفككه

توجد في كل مجتمع روابط بين أفراده وجماعاته، ويمكن أن تتصف هذه الروابط:

- بالقوة والمتانة فيكون المجتمع متماسك البنيان.
- أو الوهن والضعف فيكون المجتمع متفكك البنيان.

وهناك عوامل أساسية تؤثر في هذه الروابط سلبا أو إيجابا، مثل: البيئة الجغرافية التي تشمل السهول والجبال والأنهار والصحراء والبحار والمحيطات والمناخ السائد ومصادر الثروة (النبات والحيوان والمعادن) ومصادر الطاقة والثقافة والاقتصاد.

فالصحراء والجبال وضعف مصادر الثروة والطاقة والصناعة تساعد على التباعد وتعيق التواصل، والسهول وتوفر مصادر الثروة والطاقة والزراعة والتجارة تساعد على التقارب والتعاون وتسهل عملية التواصل. وسوف اتناول في هذا المكان من البحث:

- العوامل الايجابية التي تؤدي إلى قوة المجتمع وتماسكه.
- والعوامل السلبية التي تؤدي إلى ضعف المجتمع وتفككه.

العوامل التي تؤدي إلى قوة المجتمع وتماسكه

وهي كثيرة، منها:

- **وحدة اللغة:** فاللغة هي وسيلة الاتصال بين الأفراد، ووحدة اللغة من العوامل الأساسية التي تساعد على التقارب وتزيد في قوة المجتمع وتماسكه.

- **القيم الخلقية النبيلة:** حيث تتصل هذه القيم بكافة الأنشطة في المجتمع، ولها قوة لا يستهان بها في توجيه السلوك، والتمسك بها يؤدي إلى منع النزاعات والتنافس غير الشريف، مما يساعد على التقارب ويزيد في قوة المجتمع وتماسكه.

- **التاريخ المشترك:** يمر كل مجتمع بظروف معينة ويواجه أحداثا متتالية، وقد يتعرض إلى كوارث أو اعتداءات داخلية أو خارجية، وهذه الأحداث والكوارث، تمثل سجل: نجاحاته وفشله، وانتصاراته وهزائمه، وتكون نسيج ذاكرته، مما يجعل له هويته التي تميزه عن غيره من المجتمعات، مما يترك تأثيره القوي على أفراد المجتمع، حيث تتوحد مشاعرهم، وتتحدد أهدافهم ووسائل عملهم، مما يؤدي إلى التقارب بين أبنائه ويزيد في قوته وتماسكه.

- **مواجهة الكوارث:** أما الكوارث والاعتداءات الداخلية أو الخارجية، فهي لا تفت في عضد الجماعة أو المجتمع إذا صحت العقيدة وسلمت التوجهات، وإنما تبعث على الصلابة والقوة والشموخ والشجاعة والاقدام، وتنمي إرادة التحدي والمواجهة، وتمنح الخبرة والتجربة في الحياة، وتساعد على توحيد الجهود ورص الصفوف، وتعبئة القوى المادية والمعنوية، مما يؤدي أيضا إلى التقارب ويزيد في قوة الجماعة أو المجتمع وتماسكهما.

- **التساند الاجتماعي:** ويراد منه تبادل الأدوار والمنافع في المجتمع على الصعيدين: الفردي والمجتمعي، فكلما تعززت الخدمات المتبادلة، كلما تقارب الأفراد والجماعات، ويساعد ذلك على التقارب وتماسك المجتمع.

- **القيادة القوية المستنيرة:** تلعب القيادة دورا جوهريا في تقارب المجتمع وقوته وتماسكه وكذلك الجماعة، حيث تنجح القيادة القوية المستنيرة في بلورة المشاريع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي تعبر عن إرادة الأفراد والجماعات وتصب في خدمة مصالحهم الحيوية، وتنجح في تقريب وجهات نظرهم وإدارة خلافاتهم بأسلوب حضاري عادل، وتنجح في تنظيم جهودهم وإدارتها

وتوجيهها بشكل مهني وأخلاقي ممتاز، مما يكون له الأثر الايجابي في حمايتهم وتحقيق أهدافهم المنشودة، فتكسب القيادة بذلك ثقتهم، وتحصل حالة غامرة من الاستقرار والطمأنينة، وهذا بدون شك يؤدي إلى التقارب ويزيد في قوة المجتمع أو الجماعة وتماسكهما.

العوامل التي تؤدي إلى ضعف المجتمع وتفككه

إن غياب أي من العوامل المؤثرة في تماسك المجتمع أو الجماعة التي سبق ذكرها، يترك تأثيرا سلبيا يقلق وضع المجتمع أو المجموعة ويعيق مسيرة تقدمهما.

وبالإضافة إلى ذلك هناك عوامل يؤدي وجودها إلى ضعف المجتمع أو الجماعة وتصدع بنيانهما وتفككهما، منها:

- **الكفر بالله تعالى:** حيث أنه يعني معاندة الفطرة، وتبني مثل عليا مادية منحرفة، ويؤدي إلى ارتكاب المعاصي والذنوب التي تفتك بالمجتمع، وظهور الجرائم والانحرافات السلوكية على كافة الأصعدة والمستويات، وإلى ظهور المشاكل والصراعات والتنافس غير الشريف بين الأفراد والجماعات، وكلها عوامل هدم وتخريب، مما يؤدي إلى تفكك المجتمع وانحلاله.

قال الله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾[1].

وقال الله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ

---

(١) النحل:١١٢.

ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾[1].

وقال الله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴾[2].

- **الطغيان والخروج على القانون العادل:** لكل مجتمع قانون معين ينظم علاقات الأفراد والجماعات ونشاطاتها، ويجب فيه: أن يكون عادلا، ومعبرا عن إرادة المواطنين وقيمهم، ويحفظ حقوقهم وحرياتهم ويخدم مصالحهم الحيوية، وبدون ذلك لا حرمة له ولا احترام، والخروج على القانون العادل يؤدي إلى الفوضى والظلم ويهدد إستقرار المجتمع ووحدته وتماسكه.

قال الله تعالى: ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴾[3].

وقال الله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾[4].

- **التعارض بين الأنشطة وبين المثل العليا والأهداف المشتركة للمجتمع:** للمجتمع مثل عليا يؤمن بها وتترك تأثيراتها البالغة على سلوكه، وله أهداف مشتركة منشودة يعمل على الوصول إليها وتحقيقها، فإذا شذت جماعاته ومؤسساته عنها، وانهمكت في الشهوات وانغمست في الملذات المحرمة، فإن من شأن ذلك أن يضعف همتها وعزمها ويضعف فاعليتها، ويجعل دورها وانتاجها في

---

(١) العنكبوت: ٤١.

(٢) الإسراء:٥٨.

(٣) الأنفال: ٥٤.

(٤) الإسراء: ١٦.

اتجاه مخالف إلى اتجاه المجتمع وغير منسجم معه، مما يقلق وضع المجتمع، ويؤدي إلى إضعافه وتفككه.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ۝ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَـٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ۝ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[1].

- **التعدي على الحقوق والحريات وضعف الرقابة الاجتماعية:** للأفراد والجماعات في المجتمع حقوق وعليهم واجبات، والاخلال بها يؤدي إلى إقلاق وضع المجتمع وإضعافه وتفككه.. وهذا يتطلب: محاربة الدكتاتورية والاستبداد، والمحافظة على الحقوق الطبيعية والمكتسبة المشروعة وصيانة الحريات العامة والخاصة من التعدي عليها بإلغائها أو انتقاصها، وأيضا فرض الرقابة الاجتماعية والقانونية على الأفراد والجماعات، من أجل المحافظة على سلامة المجتمع وأمنه واستقراره وتماسكه.

قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴾[2].

وقال الله تعالى: ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَـٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾[3].

---

(١) الأنعام: ٤٢ – ٤٥.

(٢) إبراهيم: ١٣ – ١٤.

(٣) الإسراء:٧٦– ٧٧.

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾(1).

- **القيادة المغرضة والضعيفة:** لقد ذكرت فيما سبق أهمية دور القيادة القوية والمستنيرة في قوة المجتمع وتماسكه ونجاحه في تحقيق أهدافه المنشودة في الحياة، وأشرت إلى أن غيابها (الفراغ القيادي) يترك أثاره السلبية على قوة المجتمع وتماسكه، وهناك ما هو أسوء من الفراغ القيادي، وهو تولي القيادة المغرضة والمنحازة والمتحكمة، فإنه يترك آثارا لا تقل خطورة عن الفراغ القيادي، إن لم تكن أسوء.

قال الله تعالى: ﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾(2).

وقال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَـٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾(3).

وأيضا تولي القيادة الضعيفة التي لا تمتلك الحزم في الأمور ولا تمتلك القدرة على اتخاذ المواقف القوية، فتضيع بسببها مصالح الجماعة أو المجتمع وتفقد وحدتها وتتوقف مسيرة تقدمها وتصاعد مجدها وتتعرض للضعف والانحلال وتتهيأ للزوال.

---

(١) آل عمران: ١١٠.

(٢) النمل: ٣٤.

(٣) الأنعام: ١٢٣.

الآثار السلبية للقيادة المغرضة والضعيفة

وهذه بعض الآثار الخطيرة التي تتركها القيادة المغرضة أو الضعيفة:

الأثر (١): إن عمل القيادة من أجل مصالحها الخاصة على حساب المصلحة العامة للمجتمع أو الجماعة، يؤدي إلى إضعاف شعور القيادة بالمسؤولية العامة، وإلى ظهور الحسد والنفاق والصراع والتنافس غير الشريف بين الأفراد والجماعات، مما يؤدي إلى ضعف الولاء وتلاشي الشعور بالمسؤولية نحو الجماعة أو المجتمع.

الأثر (٢): أن التمييز بين المواطنين أو انحياز القيادة إلى فريق من الاتباع فتوليه العناية والاهتمام وتهمل غيره من الاتباع، يعتبر سلوكا ظالما وغير مسؤول، ويولد التحاسد والتباغض والخصومة وعمل كل طرف لمصالحه الخاصة وجمع ما يستطيع لنفسه بدلا من التعاون والتآخي والمحبة والعمل لمصلحة الجماعة أو المجتمع وتحقيق أهدافهما وصعود مجدهما، مما يؤدي إلى الانقسام والتفكك ويضعف الولاء ويضع المجتمع أو الجماعة على طريق الزوال.

الأثر (٣): إن ضعف القيادة عن التوجيه وفشلها في التواصل مع الجماهير وجمع شمل كافة الصفوف، يؤدي إلى ظهور الانحرافات والانقسامات في المجتمع أو الجماعة، مما يترتب عليه ضعفهما وتفككهما.

مع التنبيه: إلى عدم وجود مجتمع متماسك تمام التماسك، ومجتمع متفكك تمام التفكك، وإنما هي حالة نسبية متفاوتة الدرجات، ويكون تقييم الحالة والحكم عليها من خلال قدرتها في المحافظة على وجودها وهويتها وتحقيق الانتصار والنجاح أو عدم قدرتها على ذلك، وفي حالة الفشل والتفكك الشديد، مالم تتغير الأوضاع وتتم السيطرة وتغيير الاتجاه، فإن الأمر قد ينتهي بالمجتمع أو الجماعة إلى التحلل والانهيار والزوال من الوجود.

التغير الاجتماعي

التغير سنة ثابتة من سنن الوجود، وحقيقة واقعية في كافة المجتمعات الإنسانية، فالمجتمعات الإنسانية كلها في تغير دائم لا ينقطع، شأنها في ذلك شأن الطبيعة والأفراد، ولا يوجد مجتمع واحد من المجتمعات الإنسانية لا يتغير، فهذه ميزة من مميزات المجتمعات الإنسانية عن مجتمعات الحيوان الثابتة التي لا تتغير، وإن تغيرت فالتغير يكون طفيفا وليس جوهريا، ويقوم على أسس بيولوجية بحتة، أما التغيرات في المجتمعات الإنسانية فتكون عميقة وجوهرية وتقوم في كثير من الأحيان على أسس فكرية وأخلاقية مقصودة، فالإنسان هو الكائن الوحيد الذي يستطيع أن يخلق لنفسه بيئة جديدة مقصودة، أي: عن إرادة واختيار.

وللتغير مظاهر عديدة في المجتمعات، منها:

- تغير عدد السكان بالزيادة أو النقصان نظرا لتغير الظروف التي تمر بها.
- دخول عناصر جديد في المجتمع من خلال الهجرة أو الغزو أو التجنيس مما يترك تأثيرا على السكان الأصليين بالسلب أو الايجاب.
- تغير أشكال الحياة الخاصة والعامة، مثل: شكل اللباس والسكن وأدوات الزينة وذوق الطعام ومواده ووسائل النقل والاتصال وغيرها.
- تغير الانظمة السياسية والاقتصادية والقضائية والتربوية وغيرها.
- تعلم اللغات ودخول ثقافات وعادات وتقاليد وأعراف اجتماعية جديدة.

تنوع التغير الاجتماعي

وتختلف معدلات سرعة التغير واتجاهه ونوعه، فقد يكون التغير في

مجتمع:

- بطيئا فلا يدرك بسهولة في المدى القريب، ويقال في هذه الحالة: أن المجتمع جامد، وهو تعبير غير دقيق قطعا، وقد يحدث التغير بسرعة كبيرة فيكون مدركا في المدى القريب، ويقال في هذه الحالة: أن المجتمع متغير.

- أو يكون إرتقائيا يهدف إلى تحقيق أغراض محددة مقصودة، استنادا إلى رؤية علمية أو سياسية أو فلسفية أو غيرها، وقد يكون نكوصا إلى الوراء وتراجعا بسبب الظلم والاستبداد والجمود أو التعصب والتحيز إلى المصالح الخاصة أو التغير السريع غير المحسوب أو غيرها، فتكون النتيجة: الانحلال والفناء، وينطبق هذا الكلام على الجماعات والمجتمعات بكافة أشكالها وعلى الدول والحضارات.

- وقد يكون سطحيا فلا يتجاوز المظاهر السطحية، مثل: إدخال أدوات الزينة والترفيه فلا يؤثر إلى قليلا وبصورة غير جوهرية، وقد يكون عميقا وشاملا يغير وجه المجتمع ويقلب أوضاعه رأسا على عقب.

- أن يكون التغير تدريجيا ويسمى تطورا وتحولا، أو يكون فجائيا أو دفعيا ويسمى طفرة وثورة وانطلاق.

خاصية التغير الاجتماعي

ويعتبر التغير من شروط قيام المجتمعات وبقائها وتقدمها، ويجب ملاحظة التالي في عملية التغير الاجتماعي:

- أن ضعف وتيرة التغيير / الجمود: قد يشكل خطرا يهدد وجود المجتمع ويؤدي إلى انحلاله وزواله، بخلاف ما يعتقده من لا بصيرة لهم ولا وعي

بقوانين الحياة الاجتماعية وسننها الثابتة.

قال الفيلسوف اليوناني هيراقليطس (٥٤٠ – ٤٧٥ ق م): « التغير قانون الوجود والاستقرار موت وعدم ».

– وأن التغير غير المحسوب: قد يشكل أيضا خطرا على المجتمع ويؤدي إلى أنحلاله وزواله.

وقد زاد في السنوات الأخيرة اهتمام علماء الاجتماع بدراسة ظاهرة التغير الاجتماعي على أسس علمية موضوعية تهتم باكتشاف خصائص الظاهرة وقوانينها والعوامل التي تتأثر بها، بهدف المساعدة في بناء المجتمعات والحضارات وتطويرها على أسس علمية واقعية صحيحة، متجاوزين في ذلك أحلام الفلاسفة والمفكرين وطموحاتهم الخيالية بإقامة مجتمعات مثالية على أسس عقلية تحليلية، حيث ثبت بالدليل القاطع أن تغير المجتمع يخضع لقوانين معينة، شأنه في ذلك شأن الظاهر الطبيعية، ولا يسير وفق إرادة فيلسوف أو طموحات مصلح. وهذا ما أكده القرآن الكريم في أكثر من موضع.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾[1].

وقال الله تعالى: ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٥٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[2].

---

(١) الرعد: ١١.

(٢) الأنفال٥٣– ٥٤.

الانحلال الاجتماعي

حيث تتفاوت درجات التغيير بين الظواهر الاجتماعية، ففي بعضها يكون سريعا، وفي البعض الآخر يكون بطيئا، مما يؤدي إلى اختلال التوازن بينها، حيث يكون بعضها متقدما، والبعض الآخر متخلفا، وينعكس ذلك على وظائف البناء الاجتماعي، فتصاب بعض العلاقات الاجتماعية بالتفكك مما يؤدي إلى انهيارها، فمثلا تغير الأوضاع الاقتصادية:

- قد يفرض على العامل السعي لكسب رزقه بوسائل وفي أماكن جديدة.
- وأن يربي أطفاله في بيئة جديدة.
- وقد تخرج المرأة للعمل وتكافح في سبيل العيش.
- وقد تضطر لتنظيم النسل وتحديد حجم الأسرة.
- وأن تكتسب المرأة قسطا أكبر من الحرية في حركتها وفي علاقاتها.
- أن يتغير الدور الذي يقوم به كل من المرأة والرجل.
- أن تتغير المكانة الاجتماعية للأشخاص: من الرجال والنساء.
- وهذا ما يسمى بـ (الانحلال الاجتماعي).

ويجب أن نلاحظ أنه:

- كلما زادت وتيرة التغيرات وظهرت تأثيراتها أكثر على أعضاء المجتمع وأضطرتهم إلى تغيير قيمهم العليا وسلوكياتهم وأدوارهم ومواقفهم المألوفة في المجتمع التي قد تربوا عليها.

- وكلما فشل الأفراد في خلق الملاءمة بين ما يعتقدونه وما يمارسونه في نهج الحياة الجديد، وظهرت الانحرافات في السلوك عما هو مألوف بهدف التكيف

مع الحياة الجديدة.

كلما ضعفت الروابط والعلاقات الاجتماعية، وضعف ارتباط الأفراد والجماعات بالمشتركات في الحياة القديمة وضعف إخلاصهم لها، وكان المجتمع عرضة للإنحلال الاجتماعي، كما نشاهده في المجتمعات الحديثة والمعاصرة.

مظاهر الانحلال الاجتماعي

وللانحلال الاجتماعي مظاهر كثيرة في الحياة الاجتماعية يقاس بمدى انتشارها، منها:

- تفكك الأسرة وضعف الروابط الاجتماعية.
- ظهور الأمراض العقلية والنفسية.
- ظهور الانحرافات السلوكية والأخلاقية.
- انتشار الجريمة وشرب الخمور والإدمان على المخدرات.
- وغيرها.

نتائج مهمّة

ونتوصل مما سبق إلى النتائج المهمة التالية:

النتيجة (١): أن الإيمان بالقيم الاجتماعية لا ينفصل عن تربية الإنسان وثقافته وخبراته وتجاربه وآماله وطموحاته في الحياة، وهذا يختلف عن القول بنسبية القيم في ذاتها، فإن القيم، مثل: الصدق والأمانة والوفاء تحتفظ بقيمتها الموضوعية في ذاتها استنادا إلى الفطرة الإنسانية التي فطر الله تبارك وتعالى

الناس عليها، ولكن إيمان الأنسان وتمسكه بالقيم يتوقف على تربيته وثقافته وتجاربه وخبراته وآماله وطموحاته الفعلية في الحياة، وبهذا تختلف القيم لدى الأفراد والحضارات تبعا لفلسفتهم وخبراتهم وتجاربهم وطموحاتهم وآمالهم في الحياة.

النتيجة (٢): تعتبر القيم العمود الفقري لنظم المجتمع والأساس الذي تقوم عليه تشريعاته وعلاقاته، وحين يخيم الغموض وتشوش الرؤية على هذه القيم، وتهتز الثقة والارتباط بها، ويحدث التنافر بينها وبين الاتجاهات الجديدة ويحدث الانحراف عنها، فإن ذلك هو الطريق إلى التفكك والانحلال الاجتماعي، لأن قوة النظام تتوقف على درجة الانسجام والتوافق بين الاتجاهات وبين القيم السائدة في المجتمع.

النتيجة (٣): أن التغير الاجتماعي شرط أساسي لتقدم المجتمع، إلا أنه يحمل معه في نفس الوقت بذور التفكك والانحلال، وقد يؤدي في نهاية المطاف إلى انهيار المجتمع المتغير، وذلك:

- إذا لم يكن التغير متوازنا بين الظواهر الاجتماعية.

- إذا مس التغير المكونات الأساسية، مثل: العقيدة والقيم العليا والأسرة بالتأثير السلبي، ولم تنجح القوى الاجتماعية في خلق التوفيق والملاءمة بين الاتجاهات الجديدة وبين المثل العليا والغايات والأهداف الاجتماعية، بحيث يؤدوا دورهم الاجتماعي في الوضع الجديد على نحو يلبي مطالبه وحاجاته، وينسجم مع الثوابت الاجتماعية، مثل: المثل العليا والغايات والاهداف ويحفظ المجتمع من التفكك.

النتيجة (٤): أن المجتمعات التي تتغير بسرعة تكون أكثر عرضة للإنحلال من المجتمعات التي تتغير ببطء.

النتيجة (٥): أن التفكك والانحلال الاجتماعي لا يكون دائما ظاهرة سلبية وغير مرغوبة، فقد يكون في بعض الأحيان ظاهرة إيجابية ومرغوبة، وذلك حين يكون مبشرا بمستقبل أفضل.

التخلف الاجتماعي

من الواضح جدا أن التغير المادي أسهل وأسرع من التغير غير المادي، وأن الأدوات المادية يمكن استيرادها من الخارج، فيحصل في بعض المجتمعات تقدم في الجوانب المادية، مثل: السكن والملبس ووسائل الاتصال والمواصلات وأدوات الزينة والترفيه وغيرها، وتكون كلها مستوردة من الخارج وليست مبتكرة، وهنا تواجهنا مشكلة: كونها غير ملائمة للبيئة المزروعة فيها مثل ملاءمتها للبيئة التي انتجتها، فإذا لم يصاحب ذلك تقدم حقيقي يوازيه في التفكير والقيم والنظم السياسية والأمنية والقضائية والقانونية والاجتماعية والاقتصادية والاجتماعية والتعليمية والتربوية وغيرها، فإن هذه المجتمعات سوف تعاني من اختلال في التوازن، وتعتبر في التقييم العلمي: مجتمعات متخلفة وليست متقدمة أو متطورة مهما كبرت درجة الترفيه واستخدام التكنولوجيا وغيرها فيها، ولكي تصبح مجتمعات متقدمة أو متطورة، يجب إيجاد التوازن فيها بين كافة الظواهر: المادية والمعنوية.

وهذا ما ينسجم مع الرؤية القرآنية في التغيير، حيث أنها تؤكد:

- أن الإنسان هو العامل الرئيسي في عملية التغيير.
- وأن الإنسان يلعب هذا الدور من خلال محتواه الداخلي بالدرجة الأولى.
- وتؤكد على ضرورة إعادة بناء مؤسسات المجتمع بالشكل الذي ينسجم

من المحتوى الداخلي للإنسان.

نتائج مهمّة

ونتوصل مما سبق إلى النتائج المهمة التالية:

النتيجة (١): أن الرؤية الصحيحة والمبدأ الصالح في الحياة، الذي يحدد المثل العليا للمجتمع، ويحدد أهدافه وغاياته، ويرسم الصورة التشريعية الكاملة لسلوكه ومواقفه وللعلاقة بين الأهداف وبين الوسائل المستخدمة لبلوغها، هو الشرط الأساسي لنهضة المجتمع وتطوره وتقدمه.

النتيجة (٢): أن درجة النجاح في عملية التغيير تتوقف على مدى قدرتها على تعبئة إمكانيات المجتمع وتفجير طاقاته الحيوية الصالحة من أجل النهوض الشامل، وانسجامها مع الرؤية وأجوائها الروحية والأخلاقية، وهما (أعني التعبئة والانسجام) أمران متصلان وليس منفصلان.

العوامل التي تؤدي إلى التغير الاجتماعي

يشمل التغيير جميع جوانب الحياة: الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها، وهو يحدث نتيجة تضافر عوامل عديدة متداخلة ومتشابكة، بخلاف رأي بعض علماء الاجتماع الذين ذهبوا إلى القول بتأثير العامل الواحد، وإن اختلفوا في تحديد هذا العامل. وهذه أهم أنواع العوامل المؤدية إلى التغيير الاجتماعي:

النوع (١) العوامل الطبيعية: وهي أقسام:

- ما ينتج عن الطبيعة نفسها، مثل: الجبال والهضاب والسهول والوديان

والانهار والأمطار والجفاف والحرارة والبرودة والزلازل والبراكين والفيضانات والأعاصير والموقع الجغرافي ومصادر الثروة الطبيعية وغيرها، وهذا يترك آثاره على الحياة الاجتماعية بحكم نتائجه الطبيعية المباشرة، مثل: الكثافة السكانية وتمركزها أو خلخلتها والهجرة منها وإليها وظهور المدن والحضارات أو زوالها. وبحكم ما يحدثه الإنسان لمواجهتها وتحديها أو التكيف معها والاستفادة منها، مما يؤدي إلى استحداث أوضاع وعلاقات جديد، ووسائل عمل جديدة، وأنماط جديدة في التفكير والعمل والانتاج والاستهلاك وغيرها.

- ما يحدثه الإنسان في الطبيعة ويترك تأثيراته على أوضاع الإنسان، مثل: بناء السدود، وشق الجداول والطرقات، وتجفيف الأنهار والبحيرات وقطع الغابات، وغيرها من الوسائل التي يتدخل بها الإنسان في تغيير الطبيعة وتؤثر على أوضاعه المجتمعية.

النوع (٢) العوامل الصناعية: لقد ترك التقدم العلمي والصناعي آثاره المباشرة والعميقة على الأوضاع الاجتماعية، فقد أثر على الصحة العامة في المجتمع، وقلل من نسبة الوفيات وزاد من نسبة الأعمار، وأثر في أنظمة الحكم ومناهج التعليم ووسائل الانتاج وضخم حجم المناطق السكنية، وخلق وسائل جديدة للاتصال والمواصلات، وكل عامل من هذه العوامل وغيرها له تأثيره المباشر على العلاقات والأوضاع الاجتماعية وأنماط التفكير، فظهرت علاقات جديدة مهنية وغيرها، وظهرت أنماط جديدة من التفكير أثرت في عقائد الناس الدينية وعلاقاتهم وعاداتهم وتقاليدهم وسلوكهم ومواقفهم في الحياة، منها على سبيل المثال: العلاقة بين الرجل والمرأة ودور المرأة في المجتمع.

النوع (٣) العوامل العلمية والثقافية، وهي أقسام، منها:

- حركات الإصلاح الديني والسياسي: فمن الواضح جدا تأثير حركة الرسول الأعظم الأكرم ﷺ وثورة حفيده الإمام الحسين عليه السلام والإصلاح الديني

في أوربا في عصر النهضة، والثورة الفرنسية والثورة البلشفية والثورة الإسلامية في إيران وغيرها، وما يصاحب ذلك من ظهور مبادىء وقيم وقوانين جديدة، مثل: الديمقراطية والشراكة السياسية والضمان الاجتماعي وحقوق الإنسان والزامية التعليم وغيرها.

- التقدم العلمي والتكنولوجيا، مثل: اكتشاف الكتابة والمعادن والآلة البخارية والآلة الكاتبة والساعة والكهرباء والإذاعة والتلفزيون وتفجير الذرة وغزو الفضاء والاكتشافات الطبية والهندسة الوراثية وظهور الحاسب الآلي وغيرها، فإنها جميعا قد تركت تأثيراتها العميقة في أوضاع الإنسان وأنماط تفكيره.

- ظهور القيادات القوية المستنيرة: مما يؤثر في توجهات الناس ويغير إنماط تفكيرهم وأوضاعهم، وربما يزلزل قناعاتهم وعاداتهم وتقاليدهم الراسخة، وهذا واضح من خلال دراسة تأثير الثورات.

- التواصل الحضاري: لقد ترك التواصل بين الحضارات المختلفة وتبادل الأفكار والخبرات والعلوم بين الأمم والشعوب آثاره البليغة في المجتمعات والحضارات المختلفة في القديم والحديث، وقد جعلت سهولة الاتصال والتواصل في العصر الحديث هذا التأثير في غاية الوضوح والإدراك والتسليم.

المجتمع الإسلامي و المنهج الإلهي

لكل مجتمع أصول ينبثق عنها، ومبادىء يقوم عليها، وأهداف مشتركة يرمي إليها، ونظم تعالج أوضاعه المادية والمعنوية، وتشريعات قانونية تنظم العلاقات بين أفراده، وبينه وبين غيره من المجتمعات، وتتحدد من خلال ذلك: الحقوق والواجبات، وضوابط المسؤولية والجزاء.

وهذه الأمور هي التي تشكل الروح المشتركة الواحدة السارية في المجتمع،

وتتحدد خصائصه وهويته وصورته بين المجتمعات.

والمجتمع الإسلامي ينبثق من المنهج الإلهي، ومنه يستمد خصائصه، وبه يتميز بين المجتمعات. فهو ليس مجرد تعبير عن ضرورة الاجتماع الإنساني، أو مجرد استجابة للظروف الطبيعية والاحداث التاريخية، وإنما هو تعبير عن التزام رسالي وتجسيد حي للعقيدة والقيم والتشريعات المنبثقة عنها، ولا يكون المجتمع إسلاميا في الحقيقة إذا اختار منهجا غير المنهج الإلهي القائم على عقيدة التوحيد الخالص.

ولهذا كان لزاما على المسلمين المحافظة على هويتهم والتمايز عن المجتمعات غير الإسلامية وعدم السماح بالذوبان في المجتمعات والحضارات الأخرى.

قال الله تعالى: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾[1].

وقال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[2].

وهذا لا يعني الانغلاق، وإنما الانفتاح المدروس والهادف، وهذا ما تقتضيه وسطية الأمة وشهادتها على الأمم الأخرى بحسب ما اختاره الله تبارك وتعالى لها.

قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ

---

(١) آل عمران: ٢٨.

(٢) المائدة: ٥١.

ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا ﴾[1].

ولهذا فالأمة الإسلامية مطالبة:

- بأن تحافظ على هويتها واستقلالها، وأن لا تذوب في أي مشروع حضاري آخر.

- أن تعمل على بلورة المشروع الحضاري الإسلامي في صيغة علمية عصرية تليق بمقامه الرباني العالي، وتستطيع أن تخاطب به العالم المعاصر.

- حمله إلى العالم والتبشير به بين الأمم والشعوب والدعوة إليه.

- أن تأخذ جميع ما سبق بعين الاعتبار في علاقاتها ومواقفها الدولية.

خصائص المجتمع الإسلامي

ويتميز المجتمع الإسلامي بمجموعة خصائص أساسية، منها:

- اعتماده التام والكلي على المنهج الإلهي في الرؤية الفكرية والتشريع المتمثل في التنزل على ألسن الأنبياء والأوصياء عليهم السلام والاجتهاد العلمي، وعلى الواقعية والكفاءة (المهنية والنفسية) في التدبير والإدارة.

- إقرار الحرية في التفكير والاختيار: وهذا جوهر الإنسانية وأساس التمدن والتحضر والاستقرار والاستقامة والتقدم والرقي في الحياة.

قال الله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[2].

---

(١) البقرة: ١٤٣.

(٢) البقرة: ٢٥٦.

- إقرار التسامح والحوار والتشاور: وهذا يؤدي إلى العدل والمحبة والاستقرار والتلاحم ويفتح باب التطوير والتقدم في المجتمع.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾[1].

وقال الله تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾[2].

وقال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[3].

- إقرار التراحم والتواد في الشدة والرخاء: مما يؤدي إلى التلاحم والقوة والثبات والنجاح في مواجهة المحن والكوارث.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[4].

وقال الرسول الأعظم الأكرم ﷺ: « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى »[5].

---

(١) فصلت: ٣٤ - ٣٥.

(٢) الممتحنة: ٨.

(٣) الشورى: ٣٨.

(٤) الحشر: ٩.

(٥) رواه البخاري ومسلم.

- إقرار الكرامة والوحدة الإنسانية: مما يؤدي إلى اعتزاز الإنسان بمكانته ودوره في الحياة، وهذا بدوره يؤدي إلى رفعة المجتمع وانتشار المحبة والعدل والمساواة في المعاملة بين كافة أبنائه، ويفتح له آفاق التعاون في الداخل والخارج مع كافة الشرائح والتوجهات والقوى والدول والحضارات، مما ينعكس عليه تقدما ورقيا وحضارة.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾[1].

وقال الرسول الأعظم الأكرم ﷺ في حجة الوداع: « يا أيها الناس!! إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على اسود، ولا لأسود على أحمر، إلا بالتقوى ».

- إقرار النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: مما يحصن المجتمع أمام الانحرافات الفكرية والأخلاقية والسلوكية، ويحفظ سلامة التوجه نحو تحقيق الأهداف المنشودة، ويمنع الميوعة والكسل والتراخي عن ذلك.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾[2].

وقال الله تعالى: ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾[3].

---

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) آل عمران: ١١٠.

(٣) التوبة: ٧١.

- إقرار حرمة القانون وإقامة العدل: فلا أحد فوق القانون، والعدل سيد الموقف، والظلم والتعدي على الحقوق محرم ومحارب بقوة القانون والشريعة، وهذا يؤدي إلى تحقيق الأمن والاستقرار، ويمهد الطريق للتقدم والسعادة والنجاح في الحياة.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾[1].

وقال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾[2].

وقال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[3].

وقال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾[4].

- الالزام باقتران العلم بالتطبق والقول بالعمل: وهذا يؤدي إلى انتشار الهداية والبصيرة والاستقامة والتجديد والتقدم في الحياة.

---

(١) النحل: ٩٠- ٩١.

(٢) النساء: ١٣٥.

(٣) المائدة: ٨.

(٤) هود: ١١٣.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾[1].

- إقرار التوازن والوسطية والاعتدال: وهذا يؤدي إلى الاستقرار والتقدم وتحقيق السعادة والنجاح في الحياة، ويمنع التخلف والاهتزاز في المسيرة.

قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[2].

---

(١) الصف: ٢ – ٤.

(٢) البقرة: ١٤٣.

البحث (٦): حياة الإنسان والهداية الربانية

قول الله تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[1].

وقول الله تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾[2].

لقد تعرف آدم وحواء عليهما السلام بأن الأرض:

- هي مسرح حياتهما وذريتهما حتى نهاية الأجل المكتوب لهم للحياة على وجه الأرض.
- وهي مسرح نشاطهم وحركتهم الحضارية ومسؤولياتهم الدنيوية.
- وهي مسرح صراعهم المرير مع إبليس (عليه اللعنة) وجنوده من الشياطين.
- وهي مسرح لصراع مرير بين أمة حزب الله وحزب الشيطان من بني آدم.

وقد مر آدم وحواء عليهما السلام بتجربة قاسية من خلال المخالفة لأمر الله جل

---

(١) البقرة: ٣٨- ٣٩.

(٢) البقرة: ١٢٣- ١٢٦.

جلاله بالأكل من الشجرة المحرمة، وقد فجرت تلك التجربة فيهما الروح الخاشعة لله ذي الجلال والإكرام في أجواء العبودية والطاعة المطلقة لله تبارك وتعالى، ليبدأ النوع الإنساني دوره في الحياة وتحقيق غرض الخلافة الإلهية من خلال الوعي والطهارة والشعور العميق بالمسؤولية المدعوم بالخبرة والتجربة.

حقائق أساسية بينها الله عز وجل لآدم وذريته

بعد أن أمر الله جل جلاله آدم وحواء عليهما السلام بالهبوط إلى الأرض بين لهم مجموعة حقائق أساسية تتعلق بواقع حايتهم على الأرض وبمصيرهم، أهمها:

الحقيقة (١): أن حياتهم على الأرض لن تكون هملا بحيث تخضع للأمزجة دون تحديد للمسؤوليات ودون حسيب أو رقيب على الأعمال والتصرفات، ولكنها:

- سوف تخضع لنظام تشريعي وقيمي دقيق يحدد الحقوق والواجبات.
- وسوف يكون حساب في الدنيا وعقاب على المخالفة.
- وسيكون حساب في الآخرة وثواب على الطاعة وعقاب على المعصية.

الحقيقة (٢): أن النظام التشريعي والقيمي الذي سوف يخضعون إليه في الحياة هو نظام منزل من عند الله تبارك وتعالى بواسطة الرسل عليهم السلام وأنه:

- سوف يحدد خط السير المستقيم للإنسان في الحياة.
- وسوف يحدد بكل وضوح وشفافية وبدون لبس أو غموض ما يصلحهم وما يفسدهم وما يؤدي إلى سعادتهم في الدنيا والآخرة.
- وسوف يشمل جميع شؤون الحياة الخاصة والعامة.
- وأن اتباعه واجب ولا رخصة في المخالفة لا في صغيرة ولا كبيرة.

مع التأكيد على أن الإيمان بالله عز وجل وبالرسل وباليوم الآخر قائم على إفاضة العقل ونصب الأدلة الأفاقية والأنفسية والتمكين من النظر والاستدلال.

يقول العارف الجنابذي: « فالهدى حقيقة جوهرية من شؤون النفس الإنسانية ولسان الرسول الظاهري أو الباطني معد للنفس، والمفيض في الحقيقة هو الله، والمفاض حقيقة من الحقائق، والمفاض عليه هو النفس الإنسانية، وعلى هذا فالاتيان بأداة الشك في محله لأن تلك الحقيقة لا تحصل لكل فرد من الأفراد، وكثيرا ما تحصل لشخص ثم تسلب عنه »[1].

الحقيقة (٣): أن علاقة الإنسان بالنظام الإلهي المنزل سوف تحدد واقع الإنسان في الحياة الدنيا ومصيره بعد الموت بعد قيام الحجة عليه من الله ذي الجلال والإكرام.

فمن يؤمن بالله جل جلاله وبكتبه ورسله، ويتبع شداه ويسلك سبيل الخير ويعمل صالحا، فله الأمن والطمئنية الروحية والسعادة في الحياة الدنيا والآخرة، فلا يضل سبيل الهداية والرشاد، ولا يضل سعيه ولا يشقي في الحياة الدنيا والآخرة أبدا:

- فهو في سعادة حقيقية غامرة في الحياة الدنيا، لأنه إن أعطي شكر ربه الذي أعطاه وأدى حق النعمة عليه، وإن حرم صبر واحتسب إلى الله تبارك وتعالى، وهو في حالة توكل وثقة تامة بالله عز وجل، ورضى وقناعة وراحة واطمئنان روحي في جميع الظروف والأحوال.

يقول العلامة السيد الطباطبائي: « ولو أنه عرف مقام ربه ذاكرا غير ناس أيقن أن له حياة عند ربه لا يخالطها موت وملكا لا يعتريه زوال وعزة لا يشوبها ذلة وفرحا وسرورا ورفعة وكرامة لا تقدر بقدر ولا تنتهي إلى أمد وأن الدنيا دار مجاز

---

(١) بيان السعادة. ج١ ص٨٣.

وما حياتها في الآخر إلا متاع فلو عرف ذلك قنعت نفسه بما قدر له من الدنيا ووسعه ما أوتيه من المعيشة من غير ضيق وضنك »[1].

- وهو في سعادة أبدية غامرة في الآخرة فرح بالنجاة من النار والفوز بالفردوس الأعلى والنعيم الخالد في الجنة.

وأما من يجحد بحقائق الإيمان وبالآيات الجلية الواضحة التي لا مجال لعاقل منصف إلى انكارها، ويكذب الرسل وبما أظهره الله جل جلاله على أيديهم من المعجزات، ويسلك سبيل الغواية ويتبع منهج الشيطان، فإن له التعب والألم وعذاب النفس وضيق المعيشة في الحياة الدنيا - ولو كان غارقا في نعيم الدنيا وفردوسها - لأن مجامع همته ومطامح نظره كلها مقصورة على أعراض الدنيا وزينتها وزخارفها، وهو منهمك متهالك على ازديادها وخائف من انتقاصها، حيث لا يملك القدرة على حفظها بنفسه، ويمكن أن تفارقه أو يفارقها في أي وقت وبدون أية مقدمات:

- فهو إن أعطي لم يقنع ولم يرض وطلب ما هو أزيد وأوسع عن طريق الحلال والحرام من غير توقف عند حد.

- ويعيش حالة الخوف والقلق من نزول النوازل وعروض العوارض عليه، مثل: المرض والموت والحسد وكيد الأعداء وخيبة السعي في الطلب.

- وإن منع أو سلبت منه النعمة تدمر واضطربت نفسه وأصابه الهم والغم والحزن والأسى وربما أقدم على الطيش والانتحار.

فعيشته في الحالتين (النعمة والحرمان) تعيسة، ونفسه قلقة ومضطربة:

- لأنه محاصر ومختنق بحاجاته الدنيوية وتمنياته وأحلامه غير الواقعية

---

(١) الميزان. ج١٦. ص٢٢٥.

التي لا تبرحه.

- ليست له قناعة تملأ عينيه مهما أعطي من خير الدنيا وسلطانها، ويتطلع لما هو أكثر دائما، ويسعى إليه بكل وسيلة بالحلال والحرام، مما يورطه أكثر في الجرائم والذنوب والآثام وتعب النفس والضمير.

- لا اهتمام له بالمعنويات والقيم الروحية والأخلاقية، فلا شيء يحصنه أمام طغيان الشهوات، ولا شيء يهدأ من روعه ويعطيه الطمأنية والسكينة الروحية، فهو يعيش - بحق - أنموذج الجحيم والطريق إليها في نفسه.

وأما في الاخرة: فسيحشر أعمى ويتردى في نار جهنم، وله فيها العذاب الأليم المقيم.

والخلاصة: كل من توجه إلى الدنيا ونسي الله ذي الجلال والإكرام والآخرة، فقد سد على نفسه باب الراحة وفتح عليها باب الضيق والتعب والعناء والشقاء في الدنيا والآخرة، لأن الشقاء والتعب في الحياة وضنك العيش هو نتيجة طبيعية لانعدام الغنى الروحي عند الإنسان، والعكس صحيح: أي أن الغنى الروحي يؤدي إلى الشعور بالسعادة والراحة في الحياة مهما كانت ضيقة حرجة في الخارج.

يقول العلامة السيد الطباطبائي: « وإطلاق الضلال والشقاء يقضي بنفي الضلا والشقاء عنه في الدنيا والآخرة جميعا وهو كذلك فإن الهدى الإلهي هو الدين الفطري الذي دعا إلي بلسان أنبيائه، ودين الفطرة هو مجموع الاعتقادات والأعمال التي تدعو إليها فطرة الإنسان وخلقته بحسب ما جهز به من الجهازات، ومن المعلوم ان سعاد كل شيء هو ما تستدعيه خلقته بما لها من التجهيز لا سعادة له وراءه »[1].

---

(١) الميزان. ج٦١. ص٢٢٤.

والسؤال: القران الكريم يذكر بان الله تبارك وتعالى قد جعل حياة العصاة والطغاة في ضيق وحرج، والحال اننا نجد: انهم كلما ازدادوا عصيانا وطغيانا ازدادوا جاها وسلطانا ومالا؟

والجواب: أن المراد بالضنك والضيق هو الحيرة والشك والتخبط وقلق النفس واضطرابها وعدم استقرارها، بسبب الطمع والحرص الشديد والبحث عن المزيد من المنافع والمكاسب والمغانم: المادية والمعنوية، والحسرة على كل ما فات، والخوف من تغير الحال وذهاب ما في اليد. فهو يعيش القلق باستمرار رغم ما في يده من الجاه والسلطة والمال، بل يكون ما في يده سببا لخوفه واضطرابه وقلقه بسبب خوفه من ذهابه عنه.

وعلة ذلك كله: هو تعويل العبد على الأسباب الظاهرة التي لا يملك التحكم فيها، وانقطاع صلته بربه تبارك وتعالى، وعدم الشعور برعايته وحمايته له.

نتائج مهمّة

ونتوصل مما سبق إلى النتائج المهمة التالية:

- أن الراحة وسعة العيش للإنسان ليست إلا عن طريق القلب وسكونه بسبب عقيدة التوحيد والإيمان بالآخرة، فلا شعور بالراحة للإنسان إلا بالاشباع الروحي عن طريق الإيمان بالتوحيد والقيامة.

- كل من يكفر بالتوحيد والقيامة لا يبق له إلا التعلق بالحياة الدنيا فيتوجه إليها ويجعلها مطلوبه الوحيد الذي يسعى إليه في الحياة، ويفتح على نفسه بذلك باب العناء والتعب وضيق العيش وضيق الصدر وضيق القبر وعذاب البرزخ والخوف في يوم الفزع الأكبر، فهو يعيش حقيقة جهنم في نفسه، ويسير في طريقها حتى يردها في يوم القيامة وبئس الورد المورود.

- أن كل من يؤمن بالتوحيد والقيامة ويتمسك عمليا بمقتضاهما، يفتح لنفسه طريق الراحة والطمانية والسعادة في الدنيا والآخرة.

يقول العلامة السيد قطب: « وما يشعر القلب بطمأنينة الاستقرار إلا في رحاب الله. وما يحس راحة الثقة إلا وهو مستمسك بالعروة الوثقى التي لاانفصام لها.. إن طمأنينة الإيمان تضاعف الحياة طولا وعرضا وعمقا وسعة، والحرمان منه شقوة لا تعدلها شقوة الفقر والحرمان »[1].

ويقول العلامة السيد الطباطبائي: « لكنك إذا امعنت النظر في الحياة الدنيا على اختلاف جهاتها وتشتت أطرافها وانحائها ووحدتها واشتراكها بين المؤمن والكافر وجدتها بحسب الحقيقة والباطن مختلفة في الموردين بحسب ذوق العلم بالله تعالى والجهل به فالعارف بمقام ربه إذا نظر إلى نفسه وكذلك إلى الحياة الدنيا الجامعة لأقسام الكدورات وانواع الآلام وضروب المكاره من موت وحياة، وصحة وسقم، وسعة واقتار، وراحة وتعب، ووجدان وفقدان. على أن الجميع (أعم مما في نفس الإنسان أو في غيره) مملوكة لربه، لا استقلال لشيء منها وفيها، بل الكل ممن ليس عنده إلا الحسن والبهاء والجمال والخير على ما يليق بعزته وجلاله، ولا يترشح من لدنه إلا الجميل والخير، فإذا نظر إليها وهي هكذا لم ير مكروها يكرهه ولا مخوفا يخافه، ولا مهيبا يهابه، ولا محذورا يحذره، بل يرى كل ما يراه حسنا محبوبا إلا ما يأمره ربه أن يكرهه ويبغضه، وهو مع ذلك يكرهه لأمره، ويحب ما يحب ويلتذ ويبتهج بأمره، لا شغل له إلا بربه، كل ذلك لما يرى الجميع ملكا طلقا لربه لا نصيب ولا حظ لشيء غيره في شيء منها. فما له ولمالك الأمر وما يتصرف به في ملكه؟ من إحياء وإماتة، ونفع وضر وغيرها، فهذه هي الحياة الطيبة التي لا شقاء فيها البتة، وهي نور لا ظلمة معه، وسرور لا غم معه، ووجدان لا فقد معه، وغنى لا فقر معه، كل ذلك بالله سبحانه، وفي مقابل هذه الحياة حياة الجاهل بمقام

---

(١) الظلال. ج٤. ص٢٣٥٥.

ربه، إذ هذا المسكين بانقطاعه عن ربه لا يقع بصره على موجود من نفسه وغيره إلا رآه مستقلا بنفسه ضارا أو نافعا خيرا أو شرا فهو يتقلب في حياته بين الخوف عما يخاف فوته، والحذر عما يحذر وقوعه، والحزن لما يفوته، والحسرة لما يضيع عنه من جاه أو مال أو بنين أو أعوان وساير ما يحبه ويتكل ويعتمد عليه ويؤثره.

كلما نضج جلده بالاعتياد بمكروه والسكون إلى مرارة بدل جلدا غيره، ليذوق العذاب بفؤاد مضطرب قلق، وحشي ذائب محترق، وصدر ضيق حرج، كأنما يصعد إلى السماء، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون.

إذا عرفت هذا علمت: أن مرجع الأمرين أعني نسيان الميثاق وشقاء الحياة الدنيا واحد، وأن الشقاء الدنيوي من فروع نسيان الميثاق »[1].

حال المجتمعات المعرضة عن ذكر الله عز وجل

وحال المجتمعات المعرضة عن ذكر الله تبارك وتعالى لا يختلف عن حال الأفراد، بل هو أكثر رعبا وخطرا رغم تقدمها العلمي والتقني وما تتمتع به من رفاه مادي، فهي تعاني على وجه المثال، من:

- انطفاء نور الهداية ومرارة التجارب الخائبة في اختيار مناهج الحياة الوضعية، فكلما سكنت نفسها إلى منهج جاءها ما لم تحتسب من نتائجها الوخيمة، كما كان الحال مع الاشتراكية وترنح الرأسمالية في ظل الأزمة المالية العالمية في الوقت الحاضر.
- انطفاء نور العاطفة وتمحور العلاقات حول المصالح المادية.
- عدم ثقة الأفراد والجماعات ببعضها وارتفاع معدل الجريمة.

---

(١) الميزان. ج١. ص١٢٨ - ١٢٩.

- صرف الأموال الطائلة للدولة على السلاح خوفا من الحرب.

- المعاناة القاسية من نتائج الحروب الطاحنة والصراعات: الداخلية والخارجية على الثروة والسلطة وانتهاكات حقوق الإنسان، وحتى الدول الديمقراطية التي تزعم بأنها تحترم حقوق الإنسان، فإنها تركب أبشع الجرائم بحق الشعوب الأخرى، وليس أدل على ذلك من سلوك الشيطان الدموي الأكبر (أمريكا) وحليفها الاستراتيجي الكيان الصهيوني.

- التفكك الأسري المتمثل في ضعف الاقبال على الزواج، وفي الخيانات الزوجية، وزيادة معدل انفصال الزوجين عن بعضهما.

- الانحلال الخلقي وزيادة معدل الادمان على المخدرات والمواد الكحولية وغيرها.

شناعة الكفر

وفي قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾[1]. دلالات كثيرة مهمة، منها:

- أن الكفر يمثل حالة في غاية القبح والفظاعة، أي: شديد الشناعة.

- أن الكافرين ليسوا عددا قليلا من الناس، بل هم كثيرون، وهذا لا يغير من الحقيقة شيئا، فالعبرة ليست بالكثرة أو القلة، وإنما العبرة بموافقة الحق أو مخالفته.

- أن الهدى متنوع المصدر والدرجات.

---

(١) المائدة:١٠.

نتائج مهمة

ونتوصل مما سبق إلى النتائج المهمة التالية:

النتيجة (١): أن الإسلام العظيم يقيم وزنا عظيما للقيم الروحية والأدبية ويقدمها على القيم المادية ويجعلها الأساس في التعاطي مع الإنسان وفي تحديد طبيعة النظام الذي يحكم وضعه وعلاقاته ويحدد الموقف منه.

يقول العلامة السيد قطب: « وهي القيم التي تليق بعالم صادر عن الله، متجه إلى الله، صائر إلى الله في نهاية المطاف.. عقد الاستخلاف فيه قائم على تلقي الهدى من الله، والتقيد بمنهجه في الحياة. ومفرق الطريق فيه أن يسمع الإنسان ويطيع لما يتلقاه من الله، أو ان يسمع الإنسان ويطيع لما يمليه عليه الشيطان. وليس هناك طريق ثالث.. إما الله وإما الشيطان، إما الهدى وإما الضلال، إما الحق وإما الباطل، إما الفلاح وإما الخسران.. وهذه الحقيقة هي التي يعبر عنها القرآن كله، بوصفها الحقيقة الأولى، التي تقوم عليها سائر التصورات، وسائر الأوضاع في عالم الإنسان »[١].

النتيجة (٢): أن الإسلام العظيم يعلي من شأن العقل والإرادة الإنسانية ويعتبرهما مناط التكليف والجزاء، ويعتبرهما الأداة التي من شأنها أن ترفع الإنسان فوق الملائكة وتصل به إلى أعلى عليين، أو تهبط به إلى حظوظ الحيوانية والدرك الأسفل في الجحيم.

النتيجة (٣): أن الحياة الدنيا تعني مواجهة المسؤولية من خلال الرسالات، وأن الدار الاخرة تعني مواجهة المسؤولية من خلال نتائج العمل في الحياة الدنيا، وفي ذلك تذكير بمفترق طريقين:

---

(١) الظلال.ج١ ص٦١.

- طريق الرفعة والسعادة.
- طريق الهبوط والشقاء.

البحث (٧): الاستقرار في الأرض

قول الله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾[١].

وقول الله تعالى: ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾[٢].

مضامين الآيات الشريفة المباركة

الآيات الشريفة المباركة تدل على أمور عديدة، منها:

الأمر (١): تهيئة الأرض وأجوائها لحياة الإنسان عليها، وقدرته على توفير كل ما يحتاجه ويلزمه منها، من أجل حياته فيها وإقامة حضارة إنسانية راقية ومتميزة عليها.

الأمر (٢): أن الحياة على الأرض تختلف عن الحياة في الجنة التي أدخل إليها آدم وحواء عليهما السلام قبل الهبوط منها إلى الأرض، فالحياة على الأرض ممتزجة حقيقتها بحقيقة الأرض، التي من خواصها:

- العناء والشقاء والتعب في طلب الرزق والمعيشة.

- الموت والفناء، فليس هناك خلود واستقرار دائم في الأرض، وإنما هو استقرار مؤقت، يتهيأ الإنسان من خلال عقيدته وأعماله للسعادة أو الشقاء

---

(١) الأعراف: ٢٤.

(٢) الأعراف: ٢٥.

في الآخرة.

ويلزم من ذلك:

- أن يتكون الإنسان من الأرض.
- أن يعاد إليها بعد الموت.
- أن يخرج منها بالبعث والنشور من أجل الحساب والجزاء على عقيدته وأعماله.

قال الله تعالى: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾[1].

نتائج مهمة

ونتوصل مما سبق إلى النتائج المهمة التالية:

النتيجة (١): أن الحياة الدنيا دار مسؤولية وامتحان للإنسان.

النتيجة (٢): أن السعادة والشقاء تحصلان للإنسان في الحياة الدنيا من خلال عقيدته وأعماله:

- فالعقيدة والعمل في الحياة الدنيا أصل.
- وأن الجنة أو النار (الثواب أو العقاب) ما هما إلا تحصيل للنتيجة، أي: الجزاء الموافق للعقيد والعمل، والإحلال في الموقع الوجودي المناسب للحال أو الحقيقة الوجودية التي كسبها الإنسان لنفسه في الحياة الدنيا بعقيدته وعمله، فهما (الجنة والنار) فرع العقيدة والعمل في الدنيا.

---

(١) طه: ٥٥.

البحث (٨): علاقة الإنسان بالطبيعة

وقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾[1].

وقول الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ۝ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۝ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾[2].

وقول الله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[3].

بيان المفردات

مكناكم في الأرض: مكن له: جعل له سلطانا، وتمكن من الشيء: قدر عليه وظفر به، وذ مكانة: ذو منزلة رفيعة، وتمكن: استقر وثبت، والمكين: الثابت المستقر وذو القدرة والمكانة والمنزلة.. والمراد: جعلنا لكم فيها أمكنة تتبوأونها وتتمكنون من الإقامة

---

(١) الأعراف: ١٠.

(٢) إبراهيم: ٣٢ - ٣٤.

(٣) الجاثية: ١٣.

فيها، أو ملكناكم فيها ومكناكم من التصرف، وأعطيناكم القدرة على تطويعها واستخدامها في مصالحكم: التسلط والتسخير.

جعلنا لكم فيها معايش: سبق بيان معاني المفردات.. والمراد: جعلنا لكم أسباباً تعيشون بها وتحيون، مثل: المأكل والمشرب والملبس والمسكن وغيرها.

قليلا ما تشكرون: القليل: النادر والناقص والصغير وضد الكثير، وقلل الشيء: جعله قليلا، وقلله في عينه: أراه إياه قليلا وإن لم يكن كذلك في الواقع، والشكر: الحمد والثناء على المعروف وحسن الصنع، والشكر من الله تعالى: الإثابة للعباد على العمل الصالح بالجزاء الأوفى، والشاكر: من يصنع المعروف ويؤدي الشكر لصاحب النعمة، والجمع: شاكرون وشُكّر، والشكور: كثير الشكر واسم من أسماء الله الحسنى، ومعناه: المعطي الثواب الجزيل على العمل القليل، والجمع: شُكُر، والمشكور: من يُؤدى له الشكر والمستحق له.. والمراد: قليلا ما تشكرون نعم الله الكثيرة عليكم.

دائبين: دأب في عمله: جد فيه وداوم عليه، ودأب في السير: استمر فيه، والدأب: العادة والشأن والحال، والدائبان: الشمس والقمر والليل والنهار.. والمراد: أن الشمس والقمر جاريين في فلكهما لا يفتران من أجل منافع الإنسان ومصلحته.

لا تحصوها: أحصى الشيء: عده وضبطه وحفظه، ولا يحصي الأمر: لا يطيقه ولا يقدر على عده وضبطه، والحصاء: العدد والعقل لأنه يحفظ المعقولات ويطيق حملها، والحصي: الوافر العقل، والإحصاء: التحصيل بالعدد حيث كان الناس يعتمدون على الحصى في العد ويطلق على حصر تعداد السكان في بلد من البلدان، واحصيناه كتابا: حصرناه بالكتابة.. والمراد: لا تطيقون عد النعم لكثرتها العظيمة.

إن الإنسان لظلوم كفار: الإنسان: الكائن الحي المفكر، والجمع: أناسي، والإنسي:

المنسوب إلى الإنس وهم البشر من بني آدم عليه السلام والظلم: الكفر ووضع الشيء في غير موضعه، وظلمه: جار عليه وغصبه أو انتقصه حقه، والظالم: من يفعل الظلم، والظلوم: الكثير الظلم، وسبق بيان معنى الكفر.. والمراد: أن الإنسان كثير الظلم لنفسه بالمعصية لله تبارك وتعالى وبتعريضها للحرمان.

وكفر الإنسان بالنعمة على أشكال عديدة، منها:

- عدم شكر المنعم بها عليه.
- عدم أداء حقها المفروض عليه فيها.
- عدم وضعها في موضعها الصحيح، ومن أسوئه: أن يستعملها في معصية المنعم بها عليه.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: « أقل ما يلزمكم لله ألا تستعينوا بنعمه على معصيته »[1].

إلا أن هذا الوصف لا يدل على أن الإنسان ظالم أو مجرم بطبعه، وإلا سقط عقلا التكليف والحساب، وإنما يدل على أمرين:

- أن الإنسان يمتحن بالمغريات والضغوطات، وأن كثيرا من النفوس تضعف وتمارس المعصية ولا تقنع بالحلال رغم أن طريق الإشباع من الحلال موجود وقائم.
- أن الإنسان يمتحن بالمغريات والضغوطات، وأن كثيرا من النفوس لا تصبر إذا لم يوجد الطريق إلى الحلال لظروف استثنائية تعود للإنسان نفسه، لقول الله تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ ﴾[2] رغم إن

---

(١) قصار الحكم: ٣٣.

(٢) الروم:٤١.

إمكانية الصبر متاحة للإنسان، ولو لم تكن متاحة لسقط التكليف وقبح العقاب، لقول الله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾[1].

والخلاصة: أن الإنسان يمتحن بالمغريات والصعوبات، إلا أنه لا يلتزم بالحلال أو لا يصبر، وأن هذا حال كل إنسان لا يتحلى بالإيمان والتقوى.

وقيل: ظلوم في الشدة: يشكو ويجزع، وكفار في النعمة: يجمع ويمنع.

العلاقة الجدلية بين الإنسان والطبيعة

تتميز علاقة الإنسان بالطبيعة من بين كل الكائنات الحية، بأنها علاقة جدلية مرنة، وكأنه في حالة حوار دائم معها، فهو يأخذ منها ويعطيها، ويساومها ويتفنن في التحايل عليها لبلوغ أهدافه وتحقيق طموحاته وآماله وتنمية حياته فيها. فهو لا يقبل بالأمر الواقع الذي تقدمه له الطبيعة، ولم يستسلم لها يوما في تاريخه الطويل وفي جميع مراحل حياته، وإنما يعمل دائما على تغيير مجرى الظواهر الطبيعية والتحكم فيها وإخضاعها لسيطرته، ليكون هو الذي يرسم صورة حياته ويقرر مستقبله ومصيره وليس الطبيعة. ولهذا تقدمت العلوم وظهرت التكنولوجيا المتقدمة، وهذه من الأسرار التي تقف وراء نشأة الحضارات الإنسانية المختلفة على الأرض، فقد:

- أسس الإنسان في البداية التجمعات البشرية الصغير التي تتكون من بضع عشرات أو بضع مئات من الأفراد، ثم تطورت فتكونت المدن الضخم التي تضع ملايين البشر.

- وتمكن الإنسان من اختراع الأدوات لتطويع الطبيعة والبيئة، وكانت

---

(١) البقرة:٢٨٦.

أدواته في البداية بدائية بسيطة، ثم تطورت رويدا رويدا حتى أصبحت دقيقة ومحكمة وبعيدة المدى حتى غزى الفضاء وجال في أرجاء الكواكب.

- وكانت مشاريع الإنسان في البداية صغيرة ومباشرة، مثل: الحصاد والصيد، ثم أصبحت واسعة وكبيرة وعميقة ومعقدة، فكون الشركات العابرة للقارات، وأنشأ التجارة الدولية، والصناعات الثقيلة والالكترونية، وهكذا.

والخلاصة: أن الإنسان يسعى ليصبغ الطبيعة بصبغة إنسانية، ويخلق عالم إنساني متميز وحضارة إنسانية راقية تكتسب فيه الأشياء قيمة إنسانية: مادية واجتماعية وفكرية وروحية وغيرها.

وقد حظيت علاقة الإنسان بالطبيعة باهتمام كبير في الفكر الإنساني القديم والمعاصر واحتلت حيزا هاما وكبيرا منه، إذ قام الفلاسفة والمفكرون والعلماء ببحث المسألة من جميع الجوانب وتعميق النظر فيها، وقد تجاوز الاهتمام بها في الوقت الحاضر الحدود الوطنية والقومية، وأصبحت المسألة ذات بعد عالمي على درجة عالية من الأهمية والاهتمام.

مضامين الآيات الشريفة المباركة

والآيات الشريفة المباركة موضوع البحث، تتضمن حقائق أساسية عديدة، منها:

الحقيقة (١): أن الله تبارك وتعالى قد سخر للإنسان جميع موجودات العالم ونظمها وخصائصها، وجعلها في خدمة مصالحه ومنافعه وأغراضه: المادية والمعنوية، لا تشذ عن ذلك شمس ولا قمر، ولا ليل ولا نهار، ولا سماء ولا أرض، ولا جن ولا ملائكة، ولا غيرهم، فالجميع في خدمة الإنسان خليفة الله في أرضه

وسمائه، الذي كرمه وفضله تفضيلا، ومنفذة لإرادته ومطيعة لأمره، والشاذ منها بإرادته الشريرة، مثل إبليس، فهو في النار وبئس القرار.

الحقيقة (٢): أن الله تبارك وتعالى خلق الأرض من أجل أن يمارس الإنسان من فوقها خلافته الكونية، وهيأها له ومنحها من الخصائص وجعلها صالحة لحياته عليها ولحركته وعمله الحضاري والتنموي فيها، ووفر فيها كل مستلزمات حياته الضرورية والكمالية.

وقال الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[١].

- فقد جعلها مقرا صالحا لنشأته بخصائص تربتها ومياهها وحجمها وقوة الجاذبية والطبقة الغازية التي تحيطها ومقدار بعدها عن الشمس ودورانها حول نفسها وحول الشمس وميل محورها وسرعة دورانها، كل ذلك رتب بمقادير دقيقة مدهشة لضمان حياة الإنسان واستمرارها وتطورها.

قال الله تعالى: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[٢].

- وجعل فيها أماكن صالحة للسكن وسبلا يسلكونها، بحيث يستطيع

---

(١) الرعد:٣- ٤.

(٢) النمل: ٦٠- ٦١.

الإنسان أن يعيش فيها ويتنقل بين مناطقها براحة واطمئنان.

قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾[1].

وقال الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا ﴾[2].

- وجعل فيها ما يستعيش به الإنسان من ماء وزرع وحيوان وطاقة ومواد وجواهر وموجودات أخرى مما يستخدم في منافع الإنسان وقضاء حاجاته الضرورية والكمالية.

قال الله تعالى: ﴿ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ﴾[3].

وقال الله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾[4].

وقال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾[5].

- وجعل له القدرة على معرفة أسرارها ونواميسها وقوانينها وابتكار المخترعات التكنولوجية التي تمكنهم من التصرف فيها على نطاق واسع والتغلب على الصعوبات الطبيعية وتجاوز الحدود. ولولا هذه القدرة العقلية والروحية التي منحها الله تبارك وتعالى للإنسان، لما استطاع بقوته الجسمية الضئيلة أن يسيطر على الطبيعة ويسخرها لخدمة أغراضه المختلفة، فقهر الأمراض والبحار والقفار

---

(١) طه: ٥٣.

(٢) النحل:٨١.

(٣) الأعراف: ٢٦.

(٤) الحديد: ٢٥.

(٥) النحل: ٨١.

وطار في الهواء وغزى الكواكب والفضاء.

قول الله تعالى: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴾[1].

وكل ذلك من مظاهر:

- قدرة الله تبارك وتعالى وسلطانه على الأرض وعلى الطبيعة برمتها.
- ومن دلائل كمال نعمه وإحسانه وفضله على الإنسان.

الحقيقة (٣): أن الله جل جلاله هو الذي هيأ الأرض لنشاط الإنسان وخلافته فيها وسخرها له من أجل إشباع جميع حاجاته وبلوغ غاياته المادية والمعنوية، وجعل فيها كل ما يحتاجه ويستلزمه نظام وغاية وجوده المقدرين له في المشيئة الإلهية بحسب الحكمة الإلهية البالغة ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ ﴾[2] وجعل بينهما توافق وانسجام وتكامل تام، ليأخذ منها بحسب طاقته وقدرته واستعداده، ففيها دائما فوق ما يحتاج، وهي فوق ما يبلغ من العلم والقدرة: سعة وعمقا.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾[3].

ولم يجعل بينهما تعارض وتعاكس وصراع كما ترى الفلسفات المادية، فهو فيها كإبنها، وليس بينهما صراع أو غالب ومغلوب.

قال الله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ

---

(١) الرحمن: ٣٣.

(٢) إبراهيم: ٣٤.

(٣) الإسراء: ٨٥.

لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(١).

وقال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾(٢).

وقال الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾(٣).

وقال الله تعالى: ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَـٰهَا لَكُم مِّن شَعَـٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَـٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾(٤).

ولولا تهيئة الله تبارك وتعالى تلك، أي: لو كانت الطبيعة تعاكس الإنسان وفي صراع معه، لما تمكن الإنسان وهو المخلوق الضعيف أن يقهر الطبيعة العملاقة والقوى الكونية الساحقة ويسخرها لخدمة أغراضه.

قال الله تعالى: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ ﴾(٥).

وليس من الحكمة أن يخلق الله تبارك وتعالى الإنسان، ويجعله خليفته في

---

(١) الجاثية: ١٣.

(٢) لقمان: ٢٠.

(٣) النحل: ١٤.

(٤) الحج: ٣٦.

(٥) النازعات: ٢٧- ٣٣.

الأرض، ثم يجعل الطبيعة معاكسة له، فتسخير الطبيعة هو من مقتضيات الخلافة والكرامة الإنسانية، وهذا يدل على سلطان الله جل جلاله وحكمته ورحمته بعباده.

والخلاصة: أن الطبيعة والإنسان من مصدر واحد ولهما نفس الاتجاه، وأن الطبيعة بأسرها تضع نفسها بإذن ربها تبارك وتعالى تحت تصرف الإنسان ليعيد خلقها من جديد بصبغة إنسانية خاصة ولحساب مصلحته.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾[(١)].

ويقول العلامة السيد الطباطبائي: « أن أجزاء العالم المشهود تجري على نظام واحد يحكم فيها ويربط بعضها ببعض ويربط الجميع بالإنسان فينتفع في حياته من علويها وسفليها ولا يزال المجتمع الإنساني يتوسع في الانتفاع بها والاستفادة من توسيطها والتوسل بشتاتها في الحصول على مزايا الحياة فالكل مسخر له »[(٢)].

ويقول العلامة السيد قطب: « وفي ظل هذا التصور يعيش الإنسان في كون مأنوس صديق، وفي رعاية قوة حكيمة مدبرة.. يعيش مطمئن القلب، مستروح النفس، ثابت الخطو، ينهض بالخلافة عن الله في الأرض في اطمئنان الواثق بأنه معان على الخلافة، ويتعامل مع الكون بروح المودة والصداقة، ويشكر الله كلما اهتدى إلى سر من أسرار الوجود، وكلما تعرف إلى قانون من قوانينه التي تعينه في خلافته، وتيسر له قدرا جديدا من الرقي والراحة والمتاع. إن هذا التصور لا يكفه عن الحركة لاستطلاع أسرار الوجود والتعرف إلى نواميسه.. على العكس، هو يشجعه ويملأ قلبه ثقة وطمأنينة.. إنه يتحرك في مواجهة كون صديق لا يبخل عليه

---

(١) الإسراء: ٧٠.

(٢) الميزان.ج١٨.ص١٦١- ١٦٢.

بأسراره، ولا يمنع عنه مدده وعونه.. وليس في مواجهة كون عدو يتربص به ويعاكس اتجاهاته ويسحق أحلامه وآماله »[1].

إلا أن نظرية التمكين الإسلامية هذه: لا تعني أن الطبيعة تأتي للإنسان طائعة بدون عمل وكدح، فهذا خلاف الإرادة الربانية التي حكمت بأن يتربى الإنسان ويتكامل في مسعاه من خلال الكدح والعمل والابتلاء.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ﴾[2].

الحقيقة (٤): أن الإنسان مطالب بالنظر في نفسه وفي الآيات الكونية وأن يتعرف عليها ليدرك حقيقة نفسه، والقدرة الإلهية العظيمة غير المتناهية التي تتجلى في الأشياء، ويدرك مقدار ما أنعم الله تبارك وتعالى به عليه، مما يدفعه للإيمان الواعي العميق، ويتقدم صادقا مخلصا بالشكر والطاعة لله تبارك وتعالى، ويشعر بالمسؤولية العظمى أمام جلاله وكرمه، وهذا يدل على أن العقل والمعرفة الصائبة، هما ما يقود الإنسان إلى الإيمان والطاعة الصادقة المخلصة، في مقابل الجهل الذي يؤدي إلى الضلال والمعصية.

قال الله تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ ۝ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾[3].

ويقول العلامة السيد قطب: « والفكر لا يكون صحيحا وعميقا وشاملا، إلا حين يتجاوز القوى والطاقات التي يكتشف سرها، إلى مصدر هذه القوى والطاقات، وإلى النواميس التي تحكمها، وإلى الصلة بين هذه النواميس وفطرة

---

(١) الظلال.ج٣.ص١٢٦٣.

(٢) الانشقاق: ٦.

(٣) فاطر:٢٧– ٢٨.

الإنسان، هذه الصلة التي تيسر للإنسان الاتصال بها وإدراكها، ولولاها ما اتصل ولا ادرك، ولا عرف ولا تمكن، ولا سخر ولا انتفع بشيء من هذه القوى والطاقات »[١].

ومن مظاهر الشكر لله تبارك وتعالى:

- أداء حقوق النعمة وصرفها فيما خلقت له.

- سلوك طريق الطاعة لله ذي الجلال والإكرام وتقواه في السر والعلن، والحذر من اتباع الشيطان، لكي لا تفسد الحياة، ولكي لا يسلك الإنسان طريق الشقاء بدلا من طريق السعادة التي خلق من أجلها.

وقال الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾[٢].

يقول العلامة السيد فضل الله: « ولن يتحقق ذلك إلا بالوعي الدائم لارتباط الوجود الإنساني في عناصره وخصائصه بالله، والابتعاد عن الانغلاق الفكري والروحي داخل الذات، الذي يوحي إليه بالامكانيات الذاتية التي يستمدها من وجوده بعيدا عن الله »[٣].

ويصدق ذلك قول الله تعالى: ﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[٤].

---

(١) الظلال. ج٥ . ص٣٢٢٧.

(٢) الأنعام: ١٤١ – ١٤٢.

(٣) من وحي القران.ج١٠ .ص٣٢.

(٤) الزمر: ٤٩ .

وقول الله تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾(1).

علاقة سجود الملائكة لآدم بتسخير الطبيعة

من المهام التي أسندها الله تبارك وتعالى للملائكة هي مهمة التدبير في الكون.

قال الله تعالى: ﴿ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴾(2).

وقال الله تعالى: ﴿ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾(3).

ويطلق العرش على الملك، وعرش الله يشير إلى كيفية تدبيره للعالم، وحمل الملائكة للعرش يشير إلى مسؤوليتهم في التدبير.

وحينما أمر الله تبارك وتعالى الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام.

قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾(4).

فهذا يدل على مطاوعة الملائكة للإنسان فيما يقوم بها من أدوار نوعية في

---

(1) القصص:78.

(2) النازعات: 5.

(3) الحاقة:17.

(4) البقرة: 34.

الحياة على الأرض وتحقيق أغراض الخلافة الإلهية للإنسان، ومنها: تطويع الطبيعة لخدمة أغراضه وتنمية حياته. فسجود الملائكة يعني فيما يعني مطاوعتها للإنسان في تطويع الطبيعة، مما يكرس فكرة مطاوعة الطبيعة للإنسان وليس معاندته ومعاكسته والصراع معه.

الصراع مع الإلهة

الجدير بالذكر أن فكرة الصراع مع الطبيعة قد انعكست فتحولت إلى فكرة الصراع مع الإلهة، وكانت البداية في الفلسفة اليونانية، التي رأت أن الآلهة في صراع مع الإنسان: حيث أن الإنسان يسعى للحصول على الحرية والقدرة والسيطرة على الطبيعة والاستقلال عن الآلهة، والآلهة تخشى من وعي الإنسان واقتداره وحريته واستقلاله وسيادته على الطبيعة، وترى في ذلك معصية يستحق عليها العقاب وأشد العقوبات، وذلك لأن الفلسفة الاغريقية ترى: بأن الآلهة ما هي في الحقيقة إلا مظاهر القوى الطبيعة، فهناك إله البحار، وإله الأنهار، وإله الجبال، وإله المرض، وإله المجاعة.. الخ، مما يجعل صراع الإنسان مع الطبيعة هو في الحقيقة صراع مع الآلهة، وأن الإنسان يسعى للتخلص بوعيه وقوته من سيادة الآلهة التي هي قوى الطبيعة، ليأخذ بنفسه زمام أموره، ويفرض سيطرته على الطبيعة، ويكون سيد نفسه، لينتهي كل شيء في الوجود إليه.. وقد جاء في الأساطير اليونانية: أن بروميثوس وهو أحد الآلهة، قد خان سائر آلهة السماء بخدمته للإنسان، ففي ذات ليلة عندما كان جميع الآلهة نائمين، اختطف النار الإلهية وأهداها إلى الإنسان، وعندما أطلعت الآلهة على هذا السر قيدو بروميثوس بالسلاسل، لأنهم يخشون أن تكون للإنسان نار سماوية، ويريدون أن يبقى الإنسان في الأرض في الظلام والذل والضعف دائما، ولا يسمو إلى مقام

قرب الملكوت[1].

وقد ورثت الفلسفات الغربية الحديثة هذا التراث وعبرت عنه في صيغ الفلسفات المادية الالحادية بكافة أشكالها، دفاعا عن أصالة الإنسان وحريته ولذته واقتداره، ودعت إلى استقلاله عن الإله، لكي يصنع نفسه بنفسه، ويفرض سيطرته على العالم.

وقد خلطت الفلسفات الغربية الحديثة بين رؤية الأغريق للآلهة، ورؤية المسيحية ورؤية الإسلام الحنيف لها، رغم ما بينها من تباينات شاسعة، واختلافات جوهرية في الرؤية الفكرية.

فالكاثوليكية المسيحية: تصور الإنسان بـ (المذنب الوضيع المطرود من رحمة الله عز وجل) والوجه الإنساني الوحيد، هو وجه الروحانيين فقط، بوصفهم الحاملين للروح القدس، وطريق الإنسان إلى الخلاص والسعادة يمر عبر انكار الأصالة الإنسانية، والاعراض عن الدنيا، والاتباع الأعمى للروحانيين، وبهذا:

- قتلت الكاثوليكية المسيحية في العصور الوسطى العقل الحر والنمو الفطري للإنسان وجعلت الدين عامل منع لتفتح الإنسان الفكري والروحي والإرادي، وعامل إعاقة ومحاصرة للتقدم العلمي والاجتماعي.

- وأوجدت التضاد بين الإنسان والإله، مما دفع دعاة التجديد إلى الدعوة إلى أصالة الإنسان والعلم والحرية والرفاه وبناء جنة الإنسان في الأرض، في مقابل الإله والدين وسلطة البابا (ممثل إله السماء الذي يأخذ في يده سلطة الدين والسياسة والاقتصاد ويجعل العقل والعلم أسيرا سلطته) وفي مقابل الزهد وجنة الإله في الآخرة.

وما جاءت به الكاثوليكية المسيحية في العصور الوسطى هي ترجمة للثقافة

---

(١) الإسلام ومدارس الغرب. شريعتي. ص١٢٠.

اليونانية ومخالف لما جاء به المسيح عيسى بن مريم عليه السلام من عند الله عز وجل قبل أكثر من ألفي عام.

أما الإله في الإسلام الحنيف، فهو: واحد أحد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد (سورة التوحيد) والإنسان موجود نوعي شريف ذو أصالة في عالم الوجود وله جوهر أسمى من الطبيعة، يملك العقل والحرية والإختيار، يبصر ذاته، يحللها ويقيمها، ويفهم واقعية العالم، ويتعدى نظره حدود مكانه وزمانه وحدود عالم الطبيعة، وله خصال، مثل: الغيرة والشجاعة وحب النوع والتضحية في سبيل العقيدة والمصالح العامة للناس، ويبدع ما يريده ويحتاجه من العلوم والصناعات والأنظمة، ويسعى لتغيير التاريخ والطبيعة نحو الحقيقة وما يجب أن يكون بإرادته الحرة الواعية، فقد أعطاه الله جل جلاله أصالته وإرادته الحرة، ليصنع نفسه بنفسه، ويغير التاريخ والطبيعة ويفرض عليهما ذاته وإرادته، ويقرر بنفسه مسيرة تكامله في الحياة، فهو في حالة صيرورة تكاملية مستمرة، يصنعها بعشقه وبما يكتسبه باختياره من أفكار وملكات وما يقوم به من أعمال ويتخذه من مواقف في الحياة. وبينه وبين الله سبحانه وتعالى علاقة حب وتجاذب وتناغم ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾[1]:

- فالإنسان يحمل روح الله سبحانه وتعالى، قول الله تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾[2].

- ويحمل أمانته، قول الله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[3].

---

(١) المائدة: ٥٤.

(٢) الحجر:٢٩.

(٣) الأحزاب:٧٢.

- وهو خليفته في الأرض وحامل سره، قول الله تعالى: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾(1).

- وأن الله جل جلاله هو خالق الطبيعة ومدبرها وخالق الإنسان ومدبره، وقد سخر الطبيعة بالكامل من أجل رفاهية الإنسان وراحته، قول الله تعالى: ﴿ خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾(2) وقد أمره بالعدل والاحسان والفضيلة، وأمر الملائكة بالسجود للإنسان ومساعدته في أمر تسخير الطبيعة لمصلحته وهدايته لينال كماله النوعي وتحقيق غاية وجوده.

- وأن الله سبحانه وتعالى هو ناصر الإنسان ومساعده في معركة الحياة من أجل انتصار الحق والخير والصلاح في حياته، قول الله تعالى: ﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾(3) ومن أجل إقامة حضارة إنسانية متميزة وراقية على وجه الأرض.

- وأن الإنسان يكبح رغباته وشهواته الحسية ويتحرر من الأنانية والدعة والذلة ويتطلع إلى معالي الأمور، ويضحي بحياته المادية بإرادته من أجل صفائه الروحي وكماله المعنوي الذي يرى فيهما جوهر وجوده وسعادته الحقيقية، ومن أجل الدين والوطن والشرف والعزة والكرامة وخدمة الحياة وترقيتها وإفاضة الخير والبر على الناس، ويعرج بعشقه لله ذي الجلال والإكرام وبطاعته وعبادته من الترابية والحيوانية إلى النور الإلهي والملكوت الأعلى، ليكون قريبا من الله سبحانه وتعالى في عليائه وسلطانه، قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾(4) لتكون العبادة الاختيارية الواعية التي هي مظهر

---

(1) البقرة:٣٠.

(2) البقرة:٢٩.

(3) محمد:٧.

(4) القمر ٥٤– ٥٥.

جميع القيم السامية سرا لعظمة الإنسان وقدسيته وأصالته الإنسانية وسلطانه في عالم الوجود، والطريق إلى تسامي الإنسان وكماله ونجاته وفلاحه، والانتقال من الكينونة الطبيعية الترابية إلى الكينونة الإنسانية الربانية (العبودية جوهرة كنهها الربوبية) وصناعة ما يسمى بـ (الإنسان الإلهي المقدس الطاهر) من خلال العلم الواقعي والعمل الصالح.

والخلاصة: لا عداوة بين الإله الخالق سبحانه وتعالى وبين الإنسان، ولا أجنبية للإنسان عن نفسه في مقابل الله سبحانه وتعالى، ولا فاصل غير قابل للاجتياز يفصل بينهما، وقد جاء في الحديث القدسي « ياابن آدم! أنا حي لا أموت، أطعني فيما أمرتك حتى أجعلك حيا لا تموت، يا ابن آدم! أنا أقول للشيء كن فيكون، أطعني فيما أمرتك أجعلك تقول للشيء كن فيكون »[١].

نتائج مهمّة

ونتوصل مما سبق إلى النتائج المهمة التالية:

النتيجة (١): أن الإنسان سيد هذا الكون، ومن أجله خلق الله تبارك وتعالى كل شيء فيه، فهو أعز وأغلى من كل شيء مادي، ومن كل قيمة مادية، فلا يجوز أن يستعبد أو يستذل من أجل توفير قيمة مادية له في هذه الحياة، ولا يجوز أن تهدر كرامته وتضرب مقومات إنسانيته من أجل تحقيق مكاسب مادية على الصعيد السياسي، مثل: الوصول إلى السلطة أو البقاء فيها، أو على الصعيد الاقتصادي، مثل: زيادة الانتاج والثروة، فالمادة خلقت من أجل الإنسان ولم يخلق الإنسان من أجلها.

---

(١) مستدرك الوسائل. ج٢. ص٢٩٨.

النتيجة (٢): أن الإنسان هو الفاعل الأول في عملية التغيير، وليست الجغرافيا أو وسائل الانتاج أو غيرها، فالإنسان له عقل وإرادة، ويؤمن بدين وقيم لهما التأثير الكبير على سلوكه ومواقفه، ولا يسير ذليلا مقهورا وراء العوامل الجغرافية والبولوجية والاقتصادية وغيرها، دون أن نلغي تأثيرها بالطبع.

النتيجة (٣): أن النظرة للإنسان تؤثر في طبيعة النظام الذي يحكم وضع الإنسان وعلاقاته والموقف منه، ولهذا فالأنظمة الدكتاتورية تسحق الإنسان من أجل الثروة والسلطة، لأنها لا تقيم وزنا لإنسانية الإنسان والقيم الروحية والأخلاقية في الحياة، وعلى هذا الأساس قتل القائد الثاني للثورة البلشفية جوزيف ستالين (١٨ / ديسمبر / ١٨٧٨م - ٥ / مارس / ١٩٥٣م وقد وصل إلى السلطة في عام: ١٩٢٩م) ملايين البشر من أجل تحويل المجتمع من الفلاحة إلى الصناعة، وقتل آلاف المعارضين من أجل ترسيخ سلطته وتنفيذ توجهاته في السلطة.

النتيجة (٤): لا يجوز تدمير الطبيعة ولا سوء استخدامها. إذ لا يحق لأي فرد أو جماعة أو دولة أن يستغل الموارد الطبيعية بشكل يفسد البيئة ويخل بنظام الطبيعة وتوازنها ويعرض سلامتها وسلامة الناس ومصالحهم للخطر، إذ أن:

- الطبيعة تمثل امتدادا للوجود الإنساني، وسلامة الإنسان مرتبطة بسلامة الطبيعة ولا تنفصل سلامة الإنسان عن سلامة الطبيعة.

- والطبيعة ساحة خلافة الإنسان ومعراجه إلى ساحة القدس والطهاراة، والعلاقة معها تعكس صورة الإنسان الروحية والقيمية، وليست مجرد مستعمرة مادية يفعل فيها ما يشاء، وتدميرها يعني الفشل ليس من الناحية المادية فحسب، وإنما من الناحية المعنوية أيضا.

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: « إن الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار عافية لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزود منها، ودار موعظة لمن اتعظ

بها. مسجد أحباء الله، ومصلى ملائكة الله، ومهبط وحي الله، ومتجر اولياء الله، اكتسبوا بها الرحمة، وربحوا فيها الجنة »[1].

- تؤكد الرؤية القرآنية: أن كل شيء في الكون خلق بشكل موزون، وعلى البشرية أن تدرك هذا التوازن الدقيق في الطبيعة وتحافظ عليه ولا تسمح بالإخلال به، وذلك من أجل حماية مصلحة الإنسان وتحقيق راحته وسعادته في الحياة، وتعتبر الرؤية القرآنية: كل من يخل بنظام الطبيعة مفسدا، ويجب أن يعاقب ويمنع من الإفساد في الأرض.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ۝ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ۝ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾[2].

وقال الله تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾[3].

ومما يؤسف له في العالم المعاصر: أن توحش الإنسان الغربي ضد الطبيعة، بفلسفته المادية في الحياة وتخلفه القيمي، قد بلغ حدا يهدد وجود الإنسان على الكوكب، ولم تنفع صرخات المخلصين من انصار البيئة وغيرهم في وقف الاعتداءات المتوحشة التي يقودها أصحاب رؤوس الأموال الجشعين على الطبيعة المسالمة، فقد:

- بلغت إبادات الغابات التي تمثل الرئة الخضراء إلى الأرض أكثر من

---

(١) النهج. قصار الحكم.

(٢) الحجر: ١٩ - ٢١.

(٣) البقرة: ٦٠.

(١٧: مليون هكتار) سنويا.

- ويتعرض أكثر من (٢٠: نوعا) من النباتات والحيوانات للإنقراض في كل يوم، وهناك تناقص شديد للموارد الطبيعية ونفاذ تدريجي لها.

- وبلغت معدلات التلوث أرقاما قياسية مرعبة، حيث يزداد تلوث الهواء بالغازات السامة وأكسيد الكربون، حتى أصبحت طبقة الأوزون التي تحمي الأرض مهددة تهديدا جديا مقلقا للإنسانية، ويزداد كل يوم تلوث الماء في المحيطات والبحار والأنهار، حتى أصبح أكثر من (٥٠٪) من الأنهار في العالم ملوثة، وتزداد في كل يوم نسبة المخلفات بصورة جنونية مرعبة.

وهذه الممارسات الوحشية ضد الطبيعة تعتبر ممارسات شاذة ومنحرفة عن المنهج الإنساني الأصيل وعن المنهج الرباني العظيم، والأساس فيها الطمع والأنانية وعدم الشعور بالمسؤولية وضعف القيم الأخلاقية والإنسانية العليا، وهي على منهج إبليس الرجيم (عليه اللعنة) وفي خطاه:

- بما فيها من الانحراف عن الفطرة وعن الطاعة لله ذي الجلال والإكرام.

- وبما فيها من العداء الصريح للإنسانية والسعي للإضرار بها من جميع النواحي.

فهي ترمي لتحقيق أهداف إبليس (عليه اللعنة) في مسيرة الإنسان من النواحي: المادية والمعنوية والحضارية، ومثلما هي ضارة بالإنسان ومنحرفة عن المنهج الصحيح، فهي في النار وبئس القرار.

وقد أثبتت التجارب التاريخية والمعاصرة: أن زيادة إمكانيات الإنسان المادية وزيادة قدراته في السيطرة على الطبيعة وإخضاعها، ينعكس في ظل غياب القيم المعنوية والروحية الراقية، إلى حالة من التوحش والظلم الاجتماعي ومزيد من

استغال الإنسان إلى أخيه الإنسان، مثل: الاستبداد والاستئثار والظلم والاستعمار.

قال الله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴾[1].

بينما بشر القرآن الكريم: بأن الله ذي الجلال والإكرام سوف يبارك للإنسان في رزقه وعمره ويمنحه المزيد من الراحة والرفاه والتقدم المادي والمعنوي، إذا استقام على الطريقة الصحيحة والمنهج الرباني في الحياة، وأقام علاقته مع أخيه الإنسان على أساس العدل والرحمة والإحسان.

قال الله تعالى: ﴿ وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ﴾[2].

وقال الله تعالى: ﴿ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ مِّنۡهُمۡ أُمَّةٞ مُّقۡتَصِدَةٞۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ سَآءَ مَا يَعۡمَلُونَ ﴾[3].

وقال الله تعالى: ﴿ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾[4].

والخلاصة: أن الإنسان بإمكانه من خلال الطاعة لله ذي الجلال والإكرام، أن يوفر لنفسه بيئة صحية وسليمة وآمنة مقرونة بالسلام والوئام والتقدم والرفاه.

النتيجة (٥): يجب أن يوجه العلم وتوجه انجازاته إلى:

- تحقيق مصالح الإنسان الحيوية والارتقاء بالإنسانية وتحقيق المزيد من الراحة والرفاه للإنسان وتحقيق السلام العالمي، من خلال مواجهة الفقر والمرض

---

(١) العلق: ٦ – ٧.

(٢) الجن: ١٦.

(٣) المائدة:٦٦.

(٤) الأعراف: ٩٦.

وتحقيق المزيد من التواصل بين بني الإنسان وقهر تحديات الطبيعة في علاقتها الجدلية مع الإنسان.

- تحقيق كمال الإنسان الروحي والمعنوي، وتحقيق غاية وجوده.

ومن الجنون تجريد العلم وإنجازاته عن القيم وتجاهل مصالح الإنسان وغاية وجوده في الحياة في التعاطي مع العلم وانجازاته بكل أشكالها المدنية والعسكرية.

والخلاصة: أن الحروب العدوانية والاستعمار والاستغلال والجشع، كلها صفحات سوداء ومظاهر خزي وعار في تاريخ الإنسانية يجب أن تتوقف، ويجب أن يعود الإنسان إلى عقله وضميره وقيمه وأحضان الطاعة لله ذي الجلال والإكرام.

البحث (٢): عقوبة الاستئصال

قول الله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾[1].

مضامين الآية الشريفة المباركة

الآية الشريفة المباركة تثير تساؤل استنكار وتوبيخ، وتقول: أغفل المشركون والعصاة والمفسدون في الأرض من قوى الاستكبار العالمي والطواغيت والحكام المستبدين وأصحاب رؤوس الأموال التي جمعوها من الحل والحرام، فلم يتبين لهم خبر من أهلكهم الله جل جلاله قبلهم، مع أنهم يمشون في مساكنهم التي أصبحت خاوية على عروشها بما ظلموا، والحال أن ذلك الإهلاك والآثار التي خلفوها وراءهم مما يوجب الهداية إلى الحق واليقين والاعتبار؟!

وتجيب الآية الشريفة: إن في ذلك الإهلاك والآثار المتبقية آيات واضحة الهداية إلى الحق ظاهرة الدلالة عليه، ولكن لمن يمتلك الاستعداد العقلي والنفسي والروحي للإيمان من أصحاب القلوب الطاهرة والعقول النيرة:

- المنفتحة على الحقائق وليس لديها مواقف مسبقة معادية للحق والعدل.
- والتي تقف على عبر التاريخ والحياة لتأخذ منها الدروس والعظات.

---

(١) طه:١٢٨ - ١٢٩.

- والناهية عن قبائح الأفعال والأقوال وفي مقدمتها الكفر بآيات الله سبحانه وتعالى والتعامي عنها ومباشرة فنون المعاصي والذنوب.

أما من استحوذ عليهم الشيطان الرجيم فأنساهم ذكر الله تبارك وتعالى وذكر أنفسهم الفقيرة إليه جل جلاله، فلا تنفع معهم الآيات والنذر بأي حال من الأحوال!!

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾[١].

وقال الله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾[٢].

وفي الآية الشريفة المباركة تحذير شديد اللهجة لهؤلاء المفسدين في الأرض، فهي تقرر أمور عديدة، منها:

الأمر (١): أن الله تبارك وتعالى قد بين للناس وبعث الأنبياء والرسل عليهم السلام وأنزل الكتب وأوجد طرق الهداية وأقام الحجة التامة والبالغة على الناس، لئلا يكون لهم على الله تبارك وتعالى حجة.

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[٣].

وقال الله تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ

---

(١) الحجر: ١٠ - ١٥.

(٢) الإسراء: ٥٩.

(٣) الأنعام: ١٤٩.

ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[1].

الأمر (٢): أن الله جل جلاله قد أهلك أقواما بسبب كفرهم وانحرافهم عن منهج الله تبارك وتعالى والاستكبار على الرسل عليهم السلام والاستهانة بهم وتماديهم في التمرد والطغيان ولإصرارهم على ارتكاب عظائم الموبقات، مثل: قوم نوح وعاد وثمود وفرعون وقوم لوط وأصحاب الأيكة، وأن هذا المصير الأسود يمكن أن يتكرر ضد المشركين والعصاة المتمردين على الحق والعدل والمفسدين في الأرض، بل سيتكرر حتما في آخر الزمان ضد كل المجتمعات الظالمة والمفسدة في الأرض التي تأبى الاصلاح والاستقامة وتسعى في الأرض بالظلم والفساد والسلب والنهب وتكديس الثروات على حساب الضعفاء والبؤساء مع إقامة الحجة البالغة عليها من الله عز وجل، فإن الله جل جلاله سوف يمحوها حتما ويطهر الأرض من تدنيسهم لها بالظلم والمعاصي والذنوب، ولن يبقى إلا المؤمنون الصالحون ليعيشوا بأمان وسلام إلى يوم القيامة، وذلك:

- إظهارا للقدرة الإلهية والحكمة البالغة له في الخلق.

- وجريا على السنن الكونية الحاكمة في الخلق، والتي ترمي نتائجها النهائية إلى تحقيق إرادة الله جبار السماوات والأرض في الخلق استنادا لما يختاره الناس لأنفسهم من عقائد وأفعال.

ولن يحيل بين المجتمعات الظالمة والمفسدة في الأرض وبين ذلك المصير الأسود ما تمتلكه من تكنولوجيا متقدمة وقوة عسكرية واقتصادية وعمرانية وغيرها، فإن الله جل جلاله أقوى من جبروتهم وأعظم.

قال الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ

---

(١) النساء: ١٦٥.

﴿ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾(١).

وقال الله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾(٢).

وقال الرسول الأعظم الأكرم ﷺ: « لو لم يبقى من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث رجلا من أهل بيتي يواطيء اسمه اسمي، واسم أبيه أسم أبي، يملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا »(٣).

وهذا يدل على: ضرورة سعي المؤمنين للإصلاح وإقامة الحق والعدل ورفض الباطل والظلم والفساد ومقاومتها بكل وسيلة مشروعة في كل زمان ومكان لكي ينجوا بأنفسهم وبمجتمعاتهم من العذاب في الدنيا والاخرة.

الاستئصال سنة إلهية ثابتة

وقد أكد القرآن الكريم بأن الاستئصال للمجتمعات الظالمة المفسدة في الأرض سنة إلاهية كونية ثابتة بسبب ظلمهم وما يرتكبونه من ذنوب ومعاصي ومفاسد فظيعة في الحياة، تؤدي إلى هذه النتيجة الحتمية بقضاء من الله جل جلاله.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾(٤).

---

(١) الأعراف: ١٠٠.

(٢) الإسراء: ٥٨.

(٣) سنن أبي داود.ج٢ .ص٤٢٢.

(٤) . الإسراء: ١٦.

وقال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(١).

وأن الله جل جلاله كتب بحكمته ورحمته تأجيل هذه العقوبة في العالم بعد بعثة الرسول الأعظم الأكرم ﷺ وأنها سوف تحل بالمجتمعات الظالمة التي تأبى الإصلاح في وقتها المعين عند الله سبحانه وتعالى.

قال الله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا ﴾(٢).

وقال الله تعالى: ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ۝ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَـٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴾(٣).

علة تأخير العقوبة

وقد تأخرت عقوبة الاستئصال للظالمين والمفسدين في الأرض بعد رسالة الرسول الأعظم الأكرم ﷺ بقضاء من الله جل جلاله، وذلك:

- كرامة للرسول الأعظم الأكرم ﷺ وللمؤمنين.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾(٤).

---

(١) التغابن: ٥.

(٢) محمد: ١٠.

(٣) الزخرف: ٤١ – ٤٢.

(٤) الأنفال: ٣٣.

وقال الله تعالى: ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[1].

- أن الرسالة المحمدية وهي خاتمة الرسالات جاءت بعد أن قطعت البشرية مشوارا طويلا في النضج والتكامل العقلي مما أسس لاعتماد خطاب العقل بدلا من الخطاب بالمعاجز الحسية في الدعوة إلى الله تبارك وتعالى.

قال الله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾[2].

- ولكي لا يتحول الإيمان - في مرحلة خطاب العقل - إلى حالة من الجبر فيفقد التكليف دوره في إيجاد التكامل الروحي والمعنوي المطلوب للإنسان.

- ولكي تبقى فرصة التوبة مفتوحة للعاصين رحمة من الله تبارك وتعالى بعباده، إذ أن العذاب ليس هو المقصود من الخلق، وإنما المقصود هو الرحمة والرضوان، وما العذاب إلا نتيجة لسوء اختيار الإنسان، ونتيجة لإصراره على

---

(١) الفتح: ٢٥.

(٢) المدثر: ٣٨ - ٥٦.

معاندة الحق والعدل رغم ظهور الدليل القاطع عليهما، فهو من ظلم الإنسان لنفسه.

قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَـٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[1].

وقال الله تعالى: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[2].

وقال الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[3].

فلولا ذلك: لحلت عليهم عقوبة الاستئصال سريعا لا محالة، وأنها سوف تحل عليهم في وقتها المعين عند الله جل جلاله، وذلك بعد إتمام الحجة، وانغلاق باب التوبة، واليأس من إصلاحهم.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾[4].

والخلاصة: أن القرآن الكريم يدعونا إلى قراءة التاريخ وفهم أحداثه، والتفكر في أوضاع الشعوب والأمم السابقة التي كفرت بالله ورسله وأظهرت الفساد في الأرض ولم تتعظ، فأذاقها الله عز وجل عاقبة جريمتها بالاستئصال من

---

(١) التوبة: ٧٠.

(٢) العنكبوت: ٤٠.

(٣) الروم: ٩.

(٤) طه: ١٢٩.

الحياة ولها في الآخرة عذاب عظيم.

فعلى كافة الناس لاسيما قادة الأمم والشعوب: أن يدركوا هذا الحقيقة، وأن يأخذوا التحذير الرباني في الكتاب المجيد بعين الجد، وأن يكونوا عند المسؤولية ويسلكوا طريق العقل والدين، ولا يغتروا بالحياة الدنيا وتزيين الشيطان لهم، لكي ينجوا بأنفسهم وبمجتمعاتهم من العذاب في الدنيا والاخرة.

يقول العلامة السيد قطب: « وحين تجول العين والقلب في مصارع القرون. وحين تطالع العين آثارهم ومساكنهم عن كثب، وحين يتملى الخيال الدور وقد خلت من أهلها الأول، ويتصور شخوصهم الذاهبة، وأشباحهم الهاربة، وحركاتهم وسكناتهم، وخواطرهم وأحلامهم، وهمومهم وآمالهم.. حين يتأمل هذا الحشد من الأشباح والصور والانفعالات والمشاعر.. ثم يفتح عينه فلا يرى من ذلك كله شيئا إلا الفراغ والخواء.. عندئذ يستيقظ للهوة التي تفغر فاها لتبتلع الحاضر كما ابتلعت الغابر. وعندئذ يدرك يد القدرة التي أخذت القرون الأولى وهي قادرة على أن تأخذ ما يليها. وعندئذ يعي معنى الإنذار، والعبرة أمامه معروضة للأنظار »[1].

نتائج مهمّة

ونتوصل مما سبق إلى النتائج المهمة التالية:

النتيجة (١): أن ظهور الفساد في الأرض وما يستتبعه من الظلم والجهل والفقر والمرض هو بسبب سوء اختيار الناس، لأنهم خالفوا تعاليم الله تبارك وتعالى، فأماتوا الحق وأحيوا الباطل.

قال الله تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم

---

(١) الظلال. ج٤. ص٢٣٥٦.

بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾[1].

وقال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾[2].

النتيجة (٢): أن سنة التغيير بالسلب والايجاب لا تتعلق بأوضاع الأفراد وإنما تتعلق بأوضاع المجتمعات والشعوب والأمم.

قال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴾[3].

النتيجة (٣): يجب على المؤمنين النهوض بمسؤولية التغيير والإصلاح، وإلا فإن العقوبة سوف تلحق بهم.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ۝ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴾[4].

وقال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ۝ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾[5].

النتيجة (٤): أن المقصود من الإيمان ليس مجرد الاعتقاد، وإنما الاعتقاد

---

(١) الروم: ٤١.

(٢) الشورى: ٣٠.

(٣) الرعد: ١٢.

(٤) الأعراف: ١٦٤ - ١٦٥.

(٥) الأنفال: ٢٤ - ٢٥.

مع التحلي بالأخلاق الحميدة والعمل بالأحكام الشرعية.

ويترتب على ذلك:

- مقاومة الظلم والتخلف والفساد ومحاربة المستكبرين والمستبدين والمحتكرين.

- إقامة العدل وعمل الخير والإحسان إلى الناس.

- السعي لإصلاح الأوضاع والقضاء على الفقر والجوع والأمراض وغيرها من المفاسد والأمور الضارة بالحياة والمدنية.

فقد كشف القرآن الكريم عن:

- الصلة الوثيقة بين مخالفة الله تبارك وتعالى وظهور الفساد وآلام الإنسانية بشتى أنواعها.

قال الله تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[1].

وقال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴾[2].

- والصلة الوثيقة بين طاعة لله تبارك وتعالى والعمل بتعاليمه والسعة في الرزق وظهور الخير الشامل في الدنيا والاخرة.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟

---

(١) الروم: ٤١ .

(٢) الشورى: ٣٠.

مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾[1].

وقال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾[2].

---

(١) المائدة:٦٦.

(٢) الأعراف: ٩٦.

الفصل الثاني

تاريخ النوع الإنساني وتجهيزه

البحث (١): الإنسان نوع مستقلّ

نتائج البحوث السابقة

توصلنا في البحوث السابقة حول خلق الإنسان إلى نتائج محددة، أهمها:

النتيجة (١): أن خلق الإنسان حادث.

النتيجة (٢): أن خلق آدم وحواء عليهما السلام من تراب.

النتيجة (٣): أن خلق نسلهما من نطفة بواسطة التزاوج بين الذكر والأنثى.

النتيجة (٤): أن خلق عيسى عليه السلام يمثل نموذجا خاصا في الخلق، إذ خلقه الله عز وجل من أم بدون أب.

والخلاصة: أن النوع الإنساني الموجود في الوقت الحاضر، هو بحسب الرؤية القرآنية نوع مستقل لا يتصل خلقه بنوع آخر أنحدر منه.

فالآيات القرآنية ظاهرة ظهورا قريبا من الصراحة، في:

- أن البشر الموجودين اليوم ينتهون بالتناسل إلى آدم وحواء عليهما السلام.

- أن آدم وحواء عليهما السلام غير متكونين من أب وأم.

- أن آدم وحواء عليهما السلام خلقا من صلصال كالفخار ومن حمأ مسنون.

نظرية النشوء والارتقاء

إن ما سبق يسقط فرضية ظهور الإنسان من تحول الأنواع في نظرية النشوء والارتقاء للعالم الانجليزي تشارلس روبرت داروين (١٢ / فبراير / ١٨٠٩ - ١٩ / أبريل / ١٨٨٢) وغيره من علماء الطبيعة القائلين بالتطور الطبيعي والتكامل النوعي (ترانسفور ميسم) وتتلخص في النقاط التالية:

النقطة (١): أن الكائنات الحية أصابتها على مر السنين تغيرات وتحولات بطيئة، بسبب عوامل البيئة وتنازع البقاء والانتخاب الطبيعي وبقاء الأصلح، فلم تكن في بداية وجودها على ماهي عليه الآن.

النقطة (٢): لقد تطورت تلك الكائنات ومرت بأطوار متوالية متسلسلة ضمن حركة نزوع تكاملي تدريجي نحو الأفضل.

النقطة (٣): أنها ترجع في أصل وجودها إلى موجودات ذات خلية واحدة بسيطة، ظهرت نتيجة لظروف خاصة من تعرق- ات طين المحيطات، وكانت لصغرها لا ترى بالعين المجردة، أي:

- أن جميع أنواع الكائنات الحية نشأت عن بعضها البعض.

- وأنها مرت بأطوار التكامل التدريجي وتحولت من نوع إلى لآخر، حيث تنشأ حياة كل مخلوق من حياة مخلوق أبسط منه.

- وأنها منحدرة جميعا عن أصل واحد، هي الخلية الواحدة التي ظهرت

في مياه المحيطات، ومنها نشات الأحياء المائية، ومن الأحياء المائية نشأت الأحياء البرمائية، ومن الأحياء البرمائية نشأت الأحياء البرية (النباتات والحيوانات والطيور) ومن الحيوانات البرية نشأ الإنسان الذي يمثل أكمل مرحلة وأتم حلقة لهذا التكامل التدريجي لظهور أنواع الحياة على وجه الأرض.

- أن كل ذلك جرى وفق قانون تنازع البقاء والانتخاب الطبيعي وبقاء الأصلح.

والخلاصة: المخلوقات ليست أصيلة في الخلق والتكوين، بل اشتق بعضها من بعض، وأن الإنسان لم يوجد نتيجة خلق مباشر، وإنما هو المظهر الأعلى لتطور الكائنات البدائية الحية ونزوعها نحو الأفضل لحقب سحيقة من الزمن عبر القوانين الطبيعية.

وقد اعتمد أصحاب هذه النظرية على الحفريات التي كشفت:

- وجود أنواع من الحيوانات بعضها أرقى من بعض.
- وأن زمن الأرقى متأخر عن زمن الأدنى.
- وأن بينها وبين الإنسان شبها في كثير من المزايا.

بالإضافة إلى نتائج التشريح المقارن الذي أثبت تشابها كبيرا في الهياكل العظمية للحيونات المختلفة، وما أثبته علم الأجنة من تشابه الحالة الجنينية لجميع الحيوانات قبل أن تتكامل في أرحام أمهاتها، مما يثبت أنها جميعا جاءت من أصل واحد.

والخلاصة: أن الكائنات الحية قد تحولت من صور بسيطة إلى صور أكمل وأكثر تعقيدا حتى وصلت النوبة للإنسان الذي يمثل الحلقة الأكمل في سلسلة التطورات.

أصل الإنسان وفق نظرية النشوء والارتقاء

وترى النظرية بأن الإنسان تحول من القردة إلى القردة العليا التي تشبه الإنسان، ثم وصل إلى صورته الحالية الكاملة التي تمثل أكمل مرحلة وأتم حلقة لهذا التكامل، مع اعتراف أصحاب النظرية بوجود حلقة مفقودة بين القردة العليا والإنسان، وذلك بالنظر إلى تفرد الإنسان من الناحية: العقلية والروحية عن القردة العليا بدرجات نوعية. فالإنسان لا يختلف كثيرا في بنية جسمه عن القردة العليا، ولكنه يختلف اختلافا نوعيا هائلا في طراز السلوك. ويكمن سر ذلك:

- في الدماغ الإنساني: حيث أن الدماغ الإنساني قادر على تسلم الإثارات الحسية من الحواس الخمس، ثم يقوم بتحليلها وخزنها في الذاكرة وإعادة تركيبها، لتتحول بعد ذلك إلى قائمة طويلة من أنماط السلوك.

- التركيب الفسيولجي والبيولجي للإنسان: حيث ترتبط أنماط السلوك التي تصدر بها تعليمات الدماغ ارتباطا وثيقا بالتركيب الفسيولوجي والبيولوجي للإنسان، فلو افترضنا تركيب دماغ إنساني في رأس كلب أو حصان، وأصدر ذلك الدماغ تعليماته إلى أعضاء ذلك الحيوان، فإنه لن يستطيع تنفيذ تلك التعليمات التي يصدرها الدماغ الإنساني، بسبب عدم ملاءمة تركيبه الفسيولجي والبيولجي لذلك.

وقد نشر البروفسور جوهانس هوردلر بيانا بتاريخ: (١٠ / ٣ / ١٩٥٦) أعلن فيه اكتشاف قطعة فحم فيها فك إنسان يرجع إلى عشرة ملايين سنة، وتعتبر أقدم قطعة عن الإنسان في العالم، وموجودة اليوم بمتحف بال بسويسرا. وقد صرح بأنه لا يوجد دليل واحد من ألف يدل على أن الإنسان من سلالة القرود[١].

---

(١) الإسلام وبناء المجتمع. العسال. ص٢٧.

يقول العلامة السيد قطب: « وحفريات دارون وما بعدها لا تستطيع أن تثبت - في يقين مقطوع به - أن هذا النوع تطور تطورا عضويا من النوع الذي قبله من الناحية الزمنية - وفق شهادة الطبقة الصخرية التي يوجد بها - ولكنها فقط تثبت أن هناك نوعا أرقى من النوع الذي قبله زمنيا.. وهذا يمكن تعليله كما قلنا.. بأن الظروف السائدة في الأرض كانت تسمح بوجود هذا النوع، فلما تغيرت صارت صالحة لنشأة نوع آخر فنشأ ومساعدة على انقراض النوع الذي كان عائشا من قبل في الظروف الأخرى فانقرض.

وعندئذ تكون نشأة النوع الإنساني مستقلة في الزمن الذي علم الله أن ظروف الأرض تسمح بالحياة والنمو والترقي لهذا النوع »[1].

ويقول العلامة الشيخ جواد مغنية: « ونحن لا ننكر هذه الكشوف، ولكنها لا تثبت نظرية دارون، لأنها لا تحتم أن يكون الأرقى متطورا من الأدنى في يقين لا يقبل الشك، بل لا يجوز ذلك، ويجوز أن يكون كل من الأرقى والأدنى نوعا مستقلا بذاته عن الآخر أوجدته ظروف ملائمة له، ثم انقرض حين تغيرت ظروفه، كما انقرض غيره من أنواع الحيوان والنبات.. وإذا جاز الأمران: فالأخذ بأحدهما دون الآخر تحكم »[2].

أما الشيخ علي حب الله فيقول: « لابد حين دراسة التطور من التفرقة بين التطور كظاهرة طبيعية وبين الوسيلة التي يسلكها هذا التطور في الواقع، لأن كثيرا ما يقع الخلط والاضطراب في العقول بين هذين الموضوعين، فعلماء الأحياء في هذا العصر أو فقل جلهم متفقون على أن التطور من الحقائق العلمية الثابتة التي لا يعتريها شك أو ريب، أما الوسيلة التي يتم فيها التطور، فما زالت موضع

---

(١) الظلال. ج٣. ص١٢٦٥.

(٢) الكاشف.ج٣. ٢٠٦.

بحث ودراسة »[1].

التوظيف السياسي والاجتماعي لنظرية أصل النواع

وقد تسببت نظرية التطور في خلق أزمة كبيرة للكنيسة والكثير من المدارس الدينية في الشرق والغرب، وأدت إلى ارتفاع وتيرة الجريمة والمآسي الأخلاقية، وذهب البعض إلى القول: بأن البر والاحسان وإعانة الفقراء ومساعدة ذوي الحاجات الخاصة تعرقل حركة التطور والوظيفة التطهيرية للإنتخاب الطبيعي، وتؤدي إلى ظهور حالات شاذة، مثل: الشيخوخة والعاهات الجسدية والنفسية، وبالتالي إزدياد الموروثات الضارة المؤدية إلى تدهور النوع والحضارة.

كما ساهمت النظرية في تعاظم الحس القومي والعنصري والمعاداة للسامية، وتم تأسيس جمعيات واحزاب ذات توجهات قومية وعنصرية، وأسست النظرية للكثير من الخلافات والحروب بين الأمم، وتم توظيفها لتبرير الاستعمار الغربي لشعوب العالم المستضعفة.

وهذا كله من تزيين الشيطان، وإلا فإن القول بأصل واحد للأنواع ينبغي أن يكون من الناحية الواقعية والمنطقية مدعاة لترسيخ الإيمان بالله سبحانه وتعالى وللتواضع والمساواة بين البشر الذين يعودون جميعا لأصل واحد، ونبذ الاستعمار والدكتاتورية والاستبداد والتميز والتطهير العرقي وغيرها من التوجهات الشيطانية الخبيثة التي جرت على الإنسانية الويلات والحروب والدمار .

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ

---

(١) الإسلام وتطور الأحياء.ص١٧٩.

لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾[1].

وقال الرسول الأعظم الأكرم ﷺ: « أيها الناس إن ربكم واحد وأباكم واحد ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى »[2].

ملاحظات مهمة حول النظرية

الملاحظة (١): إن التطور الطبيعي الذي يجعل تشكل الكائنات الحية وتركيبها ينتقل باستمرار نحو الأفضل، وإن كان مرتبطا بتكوين المادة نفسها، فإنه يدل على وجود القوة العاقلة الأعظم في الوجود، التي أعطت كل شيء خلقه، وبث القوة والهندسة في صميم المادة والكائنات الحية، بحيث تدفعها نحو الانضباط والنظام والتنسيق وتوزيع الأدوار، وجعلتها تنزع وتتحرك نحو الأفضل وتحقق غاية وجودها، فهي حالة تدل على الحكمة والتخطيط والتوجيه والتدبير المحكم والتقدير الموزون، وهذه من خواص العقل وحده وليست من خواص المادة، مما جعل العلماء يقفون خاشعين أمام جمال إبداع الطبيعة وجلال تكوينها، حتى دارون نفسه وقف مسلما بعجزه أمام تفسير سر الحياة الذي يقف وراء تكوين الخلية وتحركها نحو الانقسام، فلم يدعي بأن التطور يفسر خلق الحياة، ولم يقل بأن التطور ينفي وجود الخالق، وقال في نهاية كتابه (أصل الأنواع): « إن الأنواع ترجع في أصولها إلى بضعة أنواع تفرعت عن جرثومة الحياة التي أنشأها الخلاق ».

وقال في رسالته إلى مستر فورديس صاحب كتاب (ملامح من الشكوكية)

---

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) رواه الإمام احمد.

في سنة ١٨٧٩: « إنني متردد ولكني في أقصى خطرات هذا التردد لم أكن قط ملحدا بالمعنى الذي يفهم فيه الإلحاد على أنه إنكار لوجود الله »[١].

ويرى بعض العلماء: بأن دراسة التكاثر تمثل أروع دراسات علم الأحياء وأكثرها إظهارا لقدرة الله تبارك وتعالى وهدايته لخلقه، ذلك الخالق الأعظم الذي أوجد تلك الروائع التي يجهد العلماء من أجل الكشف عنها في الخلق.

يقول أحد المفكرين: « إن الحياة ليست مجرد منظومة جامدة مثل البيت أو المصنع: وإنما هي منظومة فيها قدرة على تكرار نفسها والتفوق على نفسها.. وفيها فطرة إرشادية تقودها من الداخل.. فطرة مبثوثة في نسيجها تجدد ما يتلف منها وتستحدث ما يضيع »[٢].

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾[٣].

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[٤].

الملاحظة (٢): أن نظرية التكامل النوعي وصفت لنا الظواهر المحسوسة لتطور الأنواع، واثبتت تشابه الأحياء في قوانين الخلق وأثر البيئات، ولا جدال لنا

---

(١) الإسلام وبناء المجتمع. العسال. ص٣٠.

(٢) نقد الفكر المادي والديني. بري. ص٦٥.

(٣) الرعد: ١٦.

(٤) طه: ٤٩ – ٥٠.

معها في هذا، فإن الخلق كله ينظمه قانون الوحدة في الخلق والتدبير الذي وضعه الخالق العظيم جل جلاله، إلا أن النظرية:

- لم تفسر لنا تفسيرا علميا واضحا ومحدد، كيف استمد ذلك الأصل الأول البسيط الحياة من اللاحياة.

- ولم تفسر لنا اختصاص بعض أجزاء المادة بظهور الحياة فيها دون الأجزاء الأخرى مع أنه لا فارق بين أجزاء المادة يستلزم ظهور الحياة في بعضها وعدم ظهوره في البعض الاخر.

والسؤال: هل للميت القدرة على أعطاء الحياة التي يفتقدها لغيره، والقاعدة العقلية البديهية تقول: أن فاقد الشيء لا يعطيه؟

والجواب: لقد أثبت عالم الأحياء الفرنسي باستير (١٨٢٢ – ١٨٩٥) من خلال التجربة وبشكل قاطع: أن الحياة لا تتولد بشكل طبيعي إلا من الحياة، وهذا ما يحكم به العقل أيضا حكما منطقيا قاطعا، وأن خروج الحي من الميت لا يكون إلا بتدخل عامل خارجي.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾[1].

وقال الله تعالى: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾[2].

---

(١) الأنعام: ٩٥.

(٢) الروم: ١٧ – ٢٠.

الملاحظة (٣): إننا ندرك بالحس والتجربة حدوث طفرات وراثية في الكائنات الحية، مثل: تغير نوع الجلد أو الشعر أو الأظافر أو لون العين أو غيرها بحيث تكون بداية لظهور نسل جديد من نفس النوع، ولم نشاهد أو نثبت بالتجربة: حدوث طفرة غيرت عضوا أصليا لحيوان من صورة إلى صورة أخرى، فضلا عن تبدل نوع من الحيوانات إلى نوع آخر.

الملاحظة (٤): إن أقل ما يمكن القطع به – بحسب الرؤية القرآنية – هو سقوط نظرية تطور الأنواع في مورد نوع الإنسان.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾[١].

ونحن نعلم أن نظرية تطور الأنواع ليست مسألة علمية قطعية، فهي لا تتجاوز كونها نظرية تنقصها الأدلة والبراهين القطعية، ولهذا يعبر عنها أنصارها بـ (فرضية التكامل النوعي) ولم يسمها أحد منهم بالقانون أوالحقيقية العلمية.

يقول الشيخ علي حب الله: « وقد تتبعت كتاب أصل الأنواع فأحصيت ما يزيد عن أربعمائة مفرد يدل على الاحتمال والتردد، مثل: من المحتمل، ويحتمل، وربما، والسجل الجيولوجي على حالة من الاضطراب والنقص، ولا يمكنني أن أجيب، زائد الاعترافات الكثيرة في رسائله ومقابلاته بقصور المذهب، وعدم كفاية أدلته »[٢].

---

(١) المؤمنون: ١٢ – ١٤.

(٢) الإسلام وتطور الأحياء. ص ١٧٩.

نظرية فيكنسيسم

وتقابل نظرية التطور نظرية أخرى (فيكنسيسم) يقول بها فريق من علماء الطبيعة ترى:

- بأن كافة أنواع الكائنات الحية: النباتية والحيوانية، منذ بدايتها وحتى الآن، تـ ا، نفس الأشكال والخواص.

- وأنه لم يتغير أي نوع من الأنواع إلى نوع آخر، ومن جملتها الإنسان، حيث كانت له صورته الخاصة به منذ بداية خلقه وحتى الآن، وكل ما يمكن أن يحدث هو الارتقاء في حدود النوع نفسه، من خلال الطفرات الوراثية (موتاسيون) التي تحدث تغيرات في اللون أو شكل الأظفار أو نوعية الجلد أو الشعر، وما شابه ذلك، فيؤدي إلى ظهور نسل جديد من نفس النوع، ولا يمكن أن يحدث تغير مهم في الأعضاء الأصلية للنوع، بحيث ينت- ج عن الطفرات الوراثي- ة تبدل نوع إلى نوع آخر.

والخلاصة: أن الواقع العلمي المتعلق بتطور إنواع الكائنات الحية لا يستدعي منا - والحمد لله رب العالمين - أي شكل من أشكال التكلف في تفسير الآيات القرآنية وتأويلها بخلاف ظواهرها.. فالقاعدة العقلية تقول: متى طرأ الاحتمال المضاد بطل الاستدلال، وهي قاعدة يقبلها التجريبيون الذين حصروا مصدر المعرفة في التجربة الحسية فقط.

قال الله تبارك وتعالى. ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1].

---

(١) النور: ٤٥.

يقول العلامة السيد الطباطبائي: « أنه لا دليل معهم يقنع الإنسان ويرضي النفس باتصال النسل بين هذه الأعقاب الخالية والأمم الماضية من غير انقطاع »[1].

الرؤية القرآنية في أصل الإنسان

لقد أشار القرآن الكريم في العديد من الآيات الشريفة المباركة، إلى:

- خلق الإنسان من تراب.

قول الله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾[2].

وقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[3].

وقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾[4].

وقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾[5].

وقد تم البحث في هذه الآيات فيما سبق من البحث.

---

(١) الميزان: ج٤ ص١٤٠.

(٢) الروم: ٢٠.

(٣) آل عمران: ٥٩.

(٤) الحجر: ٢٦.

(٥) الحجر: ٢٨.

- انتهاء أصل الإنسان إلى آدم وحواء عليهما السلام وتكاثر ذريتهما بواسطة التزاوج، وهي تدل على الخلق المستقل للإنسان.

قول الله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ ﴾[1].

وقول الله تعالى: ﴿ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾[2].

وقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗ ﴾[3].

وقول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَا ﴾[4].

والخلاصة: أن الرؤية القرآنية في نشأت الجنس البشري، تقول: بأن نشأت الجنس البشري نشأة مستقلة عن أي جنس أو نوع آخر، وأن الخصائص الإنسانية أعطيت له منذ خلقه الأول، فهو الآن كما كان في أول الخلقة، وأن التطور إنما هو في نمو هذه الخصائص وتدريبها واكتسابها الخبرة العالية، وليس التطور العضوي عن نوع أو جنس آخر. وهذا بخلاف رؤية بعض العلماء والمفكرين الإسلاميين الذين رأوا عدم التعارض بين النصوص الدينية: القرآن والسنة وبين نظرية التطور[5].

---

(١) الأعراف:٢٧.

(٢) الإسراء: ٦٢.

(٣) النساء: ١.

(٤) الأعراف:١٨٩.

(٥) راجع كتاب: الإسلام وتطور الأحياء. للشيخ علي حب الله.

المبحث (٢): عمر النوع الإنساني

اختلفت التقديرات حول الزمن الممتد منذ خلق أبينا آدم وأمنا وحواء عليهما السلام وحتى الآن، فقيل: ٥٠٠ ألف سنة، وقيل: ٤٠٠ ألف سنة - وهو أشهر التقديرات - وقيل: ٣٠٠ ألف سنة - وهو قول مؤرخ الحضارات أرنولو تويني - وقيل: ٤٠ ألف سنة، وقيل: ٧ آلاف سنة - وهو قول صاحب الميزان.

ويقدر ظهور أول نوع إنساني (القبتاريخي) بـ (٢٠ - ٣٠: مليون) سنة.

ويقدر ظهور كائنات تشبهنا بـ (٥: مليون) سنة.

ويقدر ظهور الإنسان منتصب القامة بـ (١: مليون) سنة.

وقد عثر في (عام: ١٩٢٥م) على جمجمة إنسان في قرية أيرنغردورف القريبة من مدينة فايمار في المانيا الشرقية يعود تاريخها إلى ماقبل (٧٥: ألف) سنة تقريبا.

وعثر في (عام: ١٨٦٨م) في كهف كرومينون في الجزء الجنوبي الغربي من فرنسا على بقايا إنسان قبتاريخي يتميز بقامته الفارعة المنتصبة وبجمجمته الطويلة وبعينيه الغائرتين، وأعتبره بعض العلماء: الجد الأعلى للإنسان الأوربي الحديث.

وعثر في (عام: ١٨٥٦) على بقايا هيكل عظمي في وادي النياندرتال على مقربة من مدينة دوسلدورف في المانيا الغربية يعود لإنسان قبتاريخي سكن أجزاء واسعة من اوربا والمناطق المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط، وهو يتميز بفكيه

البارزتين وعنقه القصير الضخم، وكان دماغه أكبر من دماغ الإنسان الحديث، وقد علل الباحثون ذلك بالمخاطر الضخمة التي واجهته في ذلك العصر الجليدي الموغل في القدم.

وأرى بأن آدم أبو البشر عليه السلام: خلق خلقا مستقلا عن أي جنس آخر من الحيوانات أو أية سلالة بشرية أخرى، ويتراوح تاريخ ظهوره (من ٧ إلى١٠:آلاف سنة).

أما التقديرات الأخرى التي قال بها العلماء: فتعود إلى أدوار غير دورة أبينا آدم وأمنا حواء عليهما السلام فمن الممكن عقلا والمقبول شرعا:

- أن يكون النوع الإنساني قد ظهر في الأرض وعاش ثم انقرض.
- وأن يكون الظهور والانقراض قد تكرر عدة أدوار.
- وأن النسل من آدم وحواء عليهما السلام هو آخر هذه الأدوار.

يقول الإمام الباقر عليه السلام: « لقد خلق الله عز وجل في الأرض منذ خلقها سبعة عالمين ليس هم من ولد آدم، خلقهم من أديم الأرض فأسكنهم فيها واحدا بعد واحد مع عالمه، ثم خلق آدم أبا هذا البشر، وخلق ذريته منه »[1].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: « لعلك ترى أن الله إنما خلق هذا العالم الواحد، وترى أن الله لم يخلق بشرا غيركم، بلى والله لقد خلق الله ألف ألف عالم، وألف ألف آدم أنتم في آخر تلك العوالم وأولئك الآدميين »[2].

ولم يتعرض القرآن الكريم تصريحا: إن كان ظهور هذا النوع ينحصر في هذه الدورة التي نحن فيها، أو أن له أدوارا متعددة نحن آخرها.

---

(١) الخصال. ٣٥٩. باب السبعة.

(٢) التوحيد. الصدوق. ص٢٧٧.

الفصل الثالث

اعتدال خلق الإنسان وحسن صورته

البحث (١): تسوية خلق الإنسان

قول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾[١].

بيان المفردات

فسواك: سوى الشيء: عدله وجعله سويا، واستوى الشيء: اعتدل واستقام، ومكانا سُوى: مستويا لا ارتفاع فيه ولا انخفاض، والطريق السوي: الطريق المستقيم، وبشرا سويا: كامل التكوين والبنية، وكلمة سواء: كلمة حق لا اختلاف فيها.. والمراد: جعلك كامل الأعضاء جميل الهيئة والصورة، وجعل خلقتك على أفضل تكوين جسدي ونظام يناسب غاية وجودك، وأودع فيك من القوى الظاهرة

(١) الانفطار:٧- ٨.

والباطنة ما جعلك إنسانا كاملا، بحيث يمكنك العيش والتنعم بنعم الله عز وجل: الظاهرة والباطنة.

فعدلك: عدل الشيء: أقامه وسواه، والعدل: الإنصاف والاستقامة والنظير والمثيل في القيمة والدقة في التقدير والتناسب ونحوه.. والمراد: جعلك معتدل البنية، فجعل أعضاءك متوازنة متناسبة، ووضع كل عضو في المكان الذي يناسبه وبالكيفية التي تناسبه، وجعل وظائف الأعضاء يكمل بعضها بعضا من أجل تحقيق الغايات المشتركة لكيانك الواحد الموحد، ولتسير حياتك وفق نظام دقيق متقن يحقق وظيفتك العامة وما ينفعك في الحياة.

في أي صورة ما شاء ركبك: أي: اسم استفهام، وتلحق به الهاء للتنبيه، مثل: أيها، ويستعمل للنداء، مثل: أي رب، وللتفسير، مثل: حسن أي جميل، وصور الشيء: رسمه وخططه وجعل له صورة، والصورة: الشكل، والجمع: صور، والمصور: من يقوم بالتصوير، ومن اسماء الله الحسنى، ومعناه: أعطى كل الأشياء صورها وأشكالها وجعل لها قوام كامل وهيئات مختلفة تتناسب مع أدوارها ووظائفها وغاياتها في الحياة، والتركيب: التكوين والتأليف القويم المتناسب بين الأجزاء، وسبق بيان معنى المشيئة:.. والمراد: اختار لك صورتك وأوصافك وجنسك (ذكرا أو أنثى) فكنت في أعجب صورة وأتقنها وأدقها وأجملها على الإطلاق، وهذا يدل على:

- تفاوت الخلق في الكمال والجمال والابداع.
- وأن لله تبارك وتعالى خيارات عديدة في الخلق.
- وأن الله تبارك وتعالى أوجد الكون ككل في أبدع صورة.
- وأن للإنسان الحظ الأوفر في الكمال والجمال والابداع من بين جميع المخلوقات.

مضامين الآية الشريفة المباركة

الآية الشريفة المباركة تخاطب عقل الإنسان وضميره ووجدانه، باسم أكرم ما في وجوده وهو إنسانيته الكريمة الواعية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ ﴾[١] التي تميز بها عن سائر الكائنات الحية، وأرتفع إلى أعلى مكان، وتجلى فيها إكرام الله تبارك وتعالى له، وكرمه الفائض عليه. وتثير انتباهه إلى خلقته من حيث الشكل والخصائص والوظيفة، وتدعوه إلى التفكر والتأمل في ذلك، فتقول: فكر أيها الإنسان العاقل في إحكام خلقك، وإتقان تركيبك، لتدرك عظمة الله عز وجل في خلقه.

قال الله تعالى: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾[٢].

والخطاب فيه عتاب وتوبيخ للإنسان المكذب بيوم الدين، حيث أن التكذيب بيوم الدين فيه إنكار لتشريع الدين ولربوبية الرب الجليل، والخطاب:

- يقيم الحجة البالغة لله تبارك وتعالى على الإنسان ويقطع كل حجة للإنسان.

- ويكشف عن قبح المعصية من الإنسان لله ذي الجلال والإكرام المدبر لشؤونه والمنعم عليه بأصناف النعم الظاهرة والباطنة، وهو قبح لا ترتاب الفطرة والعقل في معرفة قبحه واستحقاق العقوبة عليه.

يقول العلامة السيد قطب: « إنه لخطاب يهز كل ذرة في كيان الإنسان حين تستيقظ إنسانيته، ويبلغ من القلب شغافه وأعماقه، وربه الكريم يعاتبه هذا العتاب الجليل، ويذكره هذا الجميل، بينما هو سادر في التقصير، سيء الأدب في حق

---

(١) الانفطار: ٦.

(٢) الذاريات: ٢١.

مولاه الذي خلقه فسواه فعدله »[1].

وتشير الآية الشريفة المباركة إلى أمور عديدة، منها:

الأمر (١) حسن صورة الإنسان وجمالها: فقد خلقه الله تبارك وتعالى خلقا متناسبا في جميع أجزائه، من حيث الطول والحجم واللون والموقع:

- فلم يجعل أعضاءه مختلفة متباينة وغير متناسقة في الطول والحجم واللون، وإنما جعلها بأطوال وأحجام وألوان متناسقة ومتوازنة ومنسجمة ومتكاملة، تؤدي وظيفتها في سهولة ويسر وبصورة حسنة، تثير الدهشة والإعجاب والراحة والسرور في النفس.

- كما جعله منتصب القامة، يمشي على رجلين، بخلاف بقية الحيوانات.

قال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾[2].

وهذا من كرم الله تبارك وتعالى وحده لا شريك له على الإنسان.

الأمر (٢) النظام الدقيق في تكوين خلق الإنسان: حيث جعل الأعضاء سليمة متناسبة، معدة لتأدية وظائفها ومنافعها بدقة متناهية، وقد أشير في البحث السابق إلى ارتباط التركيب الفسيولوجي والبويولوجي بالتعليمات التي يصدرها العقل، بحيث لو افترضنا تركيب عقل الإنسان على جسم حصان أو غيره من الحيوانات، وأصدر العقل تعليماته إلى أعضاء ذلك الجسم، فإنها لا تستطيع تنفيذها، وذلك للارتباط الوثيق بين تعليمات العقل والتركيب الفسيولوجي والبويولوجي للإنسان. وأن الأعضاء يكمل بعضها وظيفة البعض الآخر ومنافعه، فجهاز التنفس يساعد في عمل الدورة الدموية، والدورة الدموية تساعد بدورها في

---

(١) الظلال. ج٦. ص٣٨٤٨.

(٢) التين: ٤.

عملية التنفس، ولأجل ابتلاع لقمة غذاء: يؤدي كل من الأسنان واللسان وعضلات الفم والغدد دوره الموكل به، ثم تتعاضد أجزاء الجهاز الهضمي لإتمام عملية الهضم، ثم يقوم الجهاز الدموي بنقل الغذاء إلى جميع خلايا الجسم التي تعد بالبلايين، ويخص كل خلية بما يناسبها من الغذاء وبمقادير منظمة ودقيقة، وهكذا دواليك على ما تقتضيه الحكمة ووظيفة الحياة. وقد أودع فيه من القوى الظاهرة والباطنة: العقلية والروحية ما شاء، لتسير حياته وفق نظام دقيق ومتقن، بحيث يتمكن من العيش والتنعم بنعم الله تبارك وتعالى في الأرض، ويؤدي دوره فيها، ويحقق وظيفته العامة في الحياة، على أحسن وجه وأكمله، ويرتقي في سلم الكمال الروحي، حتى يبلغ الزلفى لدى ربه الجليل.

الأمر (٣) اختيار جنس الإنسان (الذكر والأنثى) وصورته: بحيث يشبه الأبناء الآباء والأجداد، فتتوثق الصلة والمحبة ويعرف النسب بينهم، ويرضى كل إنسان بجنسه الذي اختاره الله عز وجل له من غير اعتراض - إلا في الحالات المرضية الشاذة التي لا يعول عليها - ويميل كل من الرجل والمرأة إلى الآخر، وتتحرك المشاعر والميول المتبادلة بينهما فتثري الحياة، وتزينها برونقها الخاص الجذاب، ويؤدي كل منهما وظيفته الخاصة به، فيتحقق بذلك التكامل في الدور والوظيفة، وتسير عجلة الحياة إلى نهايتها التي أرادها الله تبارك وتعالى إليها وقدرها.

قول الله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾[1].

والنتيجة: أن الإنسان مطالب بأن يؤدي شكر هذه النعم العظيمة بالطاعة المطلقة لله ذي الجلال والإكرام الذي وهبه تلك النعم وأغدق بها عليه، لا أن يقابلها

---

(١) الروم: ٢١.

بالجحود والمعصية وإنكار يوم الجزاء، فيخالف بذلك حكم العقل والفطرة، فهذه النعم العظيمة كلها: من كرمه وفضله وفيضه وحده لا شريك له، وأن الطريق إلى شكر هذه النعم، هو:

- الطاعة والخضوع المطلق لله سبحانه وتعالى، وعدم معصيته في أي شأن من شؤون الحياة: العامة أو الخاصة.
- أداء حق النعمة إلى الناس، مثل: تعليم العلم، وأداء فروض الزكاة والصدقة في المال، والعدل في الحكم والقضاء.
- وضع الأشياء في مواضعها الصحيحة، مثل: عدم تسخير العلم في صناعة الأسلحة الفتاكة، وعدم استخدام السلطة في الجور والظلم، وعدم الاسراف والتبذير في المال والثروة.

خيارات الله تبارك وتعالى في الخلق

يجمع العقلاء على أن قدرة الله سبحانه وتعالى مطلقة، واختلفوا في خيارات الخلق بين قولين أساسيين، وهما:

- ليس في الإمكان أبدع مما كان.
- أن ما هو موجود ما هو إلا مجرد خيار من بين خيارات غير متناهية، وذلك نظرا لإطلاق القدرة.

وأرى بأن الرأي الثاني غير متوازن، حيث أنه ركز على القدرة، والقدرة ليست العنصر الوحيد المحدد للمسألة، فهناك مثلا:

- الممكنات المستهدفة بالإيجاد.
- وهناك الصفات الإلهية الأخرى، مثل: العدل والرحمة والجود.

ولو أخذنا العناصر جميعها كحزمة واحدة، فإن النتيجة سوف تتغير.

للنظر إلى المسألة بالترتيب التالي مثلا:

- أن تسلسل وجود الممكنات متناهي ويقف عند حد وليس مطلقا، فليس هناك مطلق إلا الله وحده لا شريك له. والحديث عن تناهي الممكنات، ليس حديثا عن تسلسل علمي يمكن افتراض عدم تناهيه مثل التسلسل النظري للأعداد، فالممكنات القابلة للوجود متناهية وليست مطلقة.

- أن القدرة المطلقة تستوعب إيجاد كل ما هو ممكن الوجود.

- أن الجود المطلق يقضي بإفاضة الوجود على كل ما هو ممكن الوجود بحسب مقتضى الحكمة والمشيئة.

- أن الله جل جلاله عالم بماهية وحقيقة ولوازم وعوارض كل ما أوجد من الممكنات وكل ما يترتب على وجودها من النقائص والكمالات، وأنه أوجدها على أساس القسط، فيكون وجودها بحسب مقتضى عينها وماهيتها واستعدادها وقابليتها، ولا تكون هي في نفسها إلا كما كانت لا غير. وأن هذه الحقيقة كما تنطبق على الفرد، فإنها تنطبق على الوجود الكلي (الصورة الكلية) للأشياء.

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ﴾[1].

وقال الله تعالى: ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾[2] أي آتاكم من كل ما سألتموه بلسان استعدادكم وقابليتكم لا يظلم شيئا منها.

---

(١) الأنعام: ١٤٩.

(٢) إبراهيم: ٣٤.

وقال الله تعالى: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ ﴾[1] أي الشاكلة الذاتية.

نتائج مهمة

ونتوصل مما سبق إلى النتائج المهمة التالية:

النتيجة (١): أن الله تبارك وتعالى أخرج برحمته وجوده وسوف يخرج - من ناحية النوع والماهية وليس من ناحية الكم والعدد الذي يقبل افتراض عدم التناهي - على أساس العلم والعدل (القسط) وبحسب المشيئة في الخلق كل ما هو ممكن الوجود.

النتيجة (٢): أن صورة الوجود هي أكمل وأبدع صورة ممكنة في الواقع والتصور، ولو كانت غيرها أكمل أو أبدع منها لوجدت قطعا، حيث لا تعجز الخالق سبحانه وتعالى صورة من الصور الممكنة بحسب مقتضى العدل والحكمة والمشيئة، ولا مانع يمنعه من إيجادها على الاطلاق.

النتيجة (٣): لقد تجلت القدرة في تنوع الخلق وإيجاد الصورة الكلية المثلى والكاملة في الخلق، حيث أوجد كل ما هو ممكن الوجود - بحسب مقتضى العدل والحكمة والمشيئة والجود والكرم - ضمن نظام متكامل ودقيق في الخلق يرسم الصورة الكلية المثلى والكاملة في الخلق.

النتيجة (٤): لا يلزم عن القدرة المطلقة أن تكون الخيارات في الخلق غير نهائية، لأن الخيارات غير النهائية في وجود الماهيات والأنواع غير ممكنة، فالمسألة لا تتعلق بالقدرة المطلقة لله عز وجل، وإنما تتعلق بعدم وجود القابلية، فليس هناك في الواقع والحقيقة خيارات غير نهائية في وجود الماهيات الممكنة.

---

(١) الإسراء: ٨٤.

البحث (٣): حسن صورة الإنسان

قول الله تبارك وتعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾(١).

بيان المفردات

خلق السماوات والأرض بالحق: سبق بيان معاني المفردات.. والمراد: خلق السماوات والأرض بالحكمة البالغة لغاية كريمة، ولم يخلقهما عبثا ولا لغوا.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٢).

وصوركم فأحسن صوركم: صور الشيء جعل له صورة وشكلا، وصورة الشيء: قوامه وهيئته التي يعرف ويتميز بها عن غيره، وحسن الصورة: تناسب تجهيزاتها المادية والشعورية لبعضها البعض، وما بينها من التكامل والانسجام الوظيفي بما يحقق غاية وجود الإنسان، ويكون بالنظر إلى أمور عديدة، منها:

- المظهر الخارجي وجماله.
- والمحتوى الداخلي وما يمتلكه الإنسان من مواهب وقدرات وخصائص:

---

(١) التغابن: ٢.

(٢) الدخان: ٣٨ - ٣٩

عقلية وروحية وشعورية.

- وما تشتمل عليه الخلقة من اتقان وإحكام في الصنع.

وإليه المصير: المصير: منتهي الأمر وعاقبته.. والمراد: إليه مرجع جميع الخلق: الكون والإنسان في النشأة الآخرة.

موضوع البحث

النقطة محل الاهتمام في البحث من هذه الآية الشريفة المباركة، هو خلق الإنسان على أحسن صورة، ويعني - بحسب ما مر في بيان المفردات - أنه على أتم صورة، وأجمل هيئة، وأدق ترتيب، وأكمل نظام، وقد تم تزويده بما يلزمه لتحقيق كماله وغاية وجوده، من:

- الأعضاء والأجهزة الجسمية المتنوعة المتكاملة.
- العقل والتفكير.
- الوجدان والمشاعر.
- البيان والقدرة على التعبير.
- وحرية الإرادة والاختيار.
- وغيرها من القدرات والمواهب الظاهرة والباطنة.

مما جعل الإنسان الأنموذج الأكمل للمخلوقات على وجه الأرض، فهو أكمل وأجمل مخلوق على وجه الأرض، بل هو الجامع لكل مراتب الوجود بما أعطاه الله تبارك وتعالى من الصفات والقدرات والمواهب والخصائص الجسمية والعقلية والروحية، وبما يستطيع أن يتصرف ويقوم به من أعمال وأنشطة (جسمية

وعقلية ونفسية وروحية) ويسجله من مواقف في الحياة العامة والخاصة، ليرتقي من التراب إلى أعلى المراتب الروحية الممكنة في الوجود (قاب قوسين أو أدنى) حيث القرب القريب من الحق ذي الجلال والإكرام، ليكون خليفته في الأرض بحق وحقيقة.

يقول العلامة السيد قطب: « ونظرة فاحصة إلى الهندسة العامة لتركيب الإنسان، أو إلى أي جهاز من أجهزته، تثبت تلك الحقيقة وتجسمها ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾[1]. وهي هندسة يجتمع فيها الجمال إلى الكمال، ويتفاوت الجمال بين شكل وشكل، ولكن التصميم في ذاته جميل وكامل الصنعة، ووافٍ بكل الوظائف التي يتفوق بها الإنسان على سائر الأحياء »[2].

وهذا يدل على أن خلق الإنسان: قائم على أساس الحق والحكمة البالغة والإرادة الواعية، فهو خلق لغاية عظيمة، وله خط سير لا يجوز أن يتعداه، وكل جزء في كيانه المادي والشعوري يؤدي وظيفته ويتكامل مع غيره وظيفيا في سبيل تحقيق الغاية المشتركة لكيانه الواحد الموحد، وأن ذلك شيء أصيل ثابت فيه لا يمكن أن يتغير أو يتبدل، فهو لم يخلق عبثا ولا جزافا، ولا مجال فيه لشيء من الباطل، وإنما خلق لغاية كريمة عظيمة، لأن الحكمة لا تلتقي أبدا مع العبثية والباطل ولا تقبلهما.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾[3].

وبما أن الإنسان خلق لغاية:

---

(١) التغابن:٣.

(٢) الظلال. ج٦. ص٣٥٨٥.

(٣) ص: ٢٧.

- فمن الواجب أن يكون له سير وتكامل.
- وأنه يبعث بعد الموت ليحاسب ويواجه نتائج عمله في الحياة الدنيا.
- ثم يعيش الحياة الأخرى عيشة باقية خالدة بحسب ما هو عليه من الإيمان والعمل الصالح أو الكفر والعمل الطالح. وهذا هو المظهر الحي للغاية التي من أجلها خلق الإنسان وتميز بها عن جميع الخلائق في الوجود، وهو القرب من النور والرحمة والكمال والسعادة بالطاعة (الجزاء الذي يسعد به المؤمن المطيع) أو السقوط في بحر الظلامات الدامس ودرك الحيوانية والشيطانية والشقاء والعذاب العظيم (الجزاء الذي يشقى به الكافر والعاصي) كنتيجة وجودية للحقيقة أو الماهية التي أوجدها الإنسان بنفسه لنفسه، فكان بها قريبا قربا وجوديا من النور والرحمة والكمال والسعادة (أي قريبا من الله ذي الجلال والإكرام) أو بعيدا بعدا وجوديا عن النور والرحمة والكمال والسعادة (أي بعيدا عن الله ذي الجلال والإكرام) فكلما قرب الإنسان من الله ذي الجلال والإكرام قرب وجوديا من النور والرحمة والسعادة والكمال، وكلما بعد عنه سبحانه وتعالى كلما بعد وجوديا عن النور والرحمة والكمال والسعادة، وسقط في بحر الظلمات ودرك الحيوانية والشيطانية والشقاء والعذاب الأليم، بمقدار بعده عن الله ذي الجلال والإكرام، وهذه نتيجة وجودية واقعية، وليست اعتبارية تقررها الإرادة الإلهية فحسب. ولو كانت النتائج تتوقف على مجرد الإرادة الإلهية بالثواب والعقاب، لكانت النتائج غير النتائج، وهذا ما ينبغي تامله جيدا، واعتذر عن الدخول في التفصيل، لأنه يخرجنا عن المنهج المرسوم للبحث.

قال الله تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾[1].

---

(١) المؤمنون:١١٥.

نتائج مهمة

ونتوصل مما سبق إلى النتائج المهمة التالية:

النتيجة (١): حسن التصوير له دلالات عديدة، فهو يدل:

- على الإبداع الإلهي العظيم في خلق الإنسان.
- وعلى كرامة الإنسان عند الله تبارك وتعالى وعنايته البالغة به.
- وعلى فضل الله ذي الجلال والإكرام على الإنسان، وهو الفضل الذي يجب على الإنسان أن يؤدي شكره من خلال الطاعة المطلقة لله عز وجل، ليكون أهلا للكرامة الإنسانية، وبدون الشكر يقع الإنسان (قطعا) في دائرة التفريط في الكرامة الإنسانية.

النتيجة (٢): يجب على الإنسان أن يتفكر في حال نفسه، من أين؟ وإلى أين؟ وأن يتصرف بمسؤولية كبيرة في الحياة، وأن يعمل على إصلاح سره وعلانيته، ولا يغفل عن نفسه وما يمكن أن يؤل إليه أمره ومصيره.

النتيجة (٣): أن الإنسان الذي هو عصارة الوجود، ينسجم من ناحية الخلقة والفطرة والقدرات والمواهب والخصائص مع سير العالم وغاية وجوده ولا ينفك عنه بأي حال من الأحوال.

النتيجة (٤): أن مآل الإنسان لا بد أن ينتهي إلى خالقه، فمنه مبدأه وإليه معاده ومنتهاه، ليحاسبه على موقفه من رسالات ربه، ويتحمل نتائج توجهاته وأعماله في الحياة الدنيا.

يقول العلامة السيد الطباطبائي: « ولعل اختصاص حسن صورهم بالذكر للتنبيه على أنها ملائمة للغاية التي هي الرجوع إلى الله فتكون الجملة من جملة

المقدمات المسوقة لإثبات المعاد »[1].

وهذا مما يفرض على الإنسان الجدية وتحمل المسؤولية على أساس الحق والعدل في كل ما يواجهه في الحياة من أوضاع ويتخذه من مواقف عامة أو خاصة، لتكون مواقفه وتصرفاته في الحياة كلها منسجمة مع الغاية التي خلق من أجلها وتم تجهيزه بما يلزمه من أجل النهوض بها، ولا عذر للإنسان في التخلي عن المسؤولية، لأن الله تبارك وتعالى قد جهزه بكل ما يلزمه من أجل تحمل المسؤولية وتحقيق غاية وجوده في الحياة.

النتيجة (٥): أن الخالق العظيم يعلم السر وأخفي، ويعلم خائنة العين وما تخفي الصدور، وأنه يحاسب عباده في يوم القيامة على حقيقة أعمالهم، وليس على صورهم وظواهرهم، ويجازيهم على هذا الأساس.

فإذا عرف الإنسان العاقل هذا وأخذه بمأخذ الجد كما يستحق، فلا بد أنه يساعده على السير نحو السمو والتكامل والارتقاء بالحياة على ضوء الهدي الإلهي المبين.

النتيجة (٦): أن الأشياء كلها وما تختزنه حياة الإنسان من فعل وانفعال، لا تخرج عن دائرة التقدير الإلهي، فهو المهيمن على الكون والحياة فيما قدره لهما من نظام وتدبير، وهذا يؤدي بالإنسان العاقل (قطعا) إلى الاعتماد على الله عز وجل والتوكل عليه والثقة التامة به.

---

(١) الميزان. ج١٩ . ص٢٩٥.

البحث (٣): قيمة الجمال

بمناسبة البحث في حسن صورة الإنسان اتناول باختصار شديد بحث قيمة الجمال.

الجمال في اللغة

مرادف للحسن، وهو الكائن على وجه يميل إليه الطبع وتقبله النفس، ويكون في الخلق والخُلق، والصور والمعاني .

- فالجمال في الأجسام: التمام والتناسب والترتيب والانسجام.
- والجمال في الصفات: الحكمة والعدل والعفة والشجاعة.

وفي الحديث الشريف: « إن الله جميل يحب الجمال » أي:

- أنه كامل الذات والصفات حسن الأفعال.
- وأنه يحب من الذوات أو النفوس أكملها، ومن الصفات والأفعال أحسنها.

الجمال في الاصطلاح

صفة تلحظ في الأشياء وتبعث في النفس البهجة والسرور والرضا .

التذوق الجمالي

الإحساس بالجمال أمر فطري وأصيل في الطبيعة البشرية، فالإنسان مفطورة على حب الجمال والانجذاب إلى كل ما هو جميل.

وللجمال تأثيره الكبير على الإنسان: فتأمل الجمال أعظم ما يسعد الإنسان ويمنحه الطمأنية في هذه الحياة والشعور بالبهجة والسرور.

فالجمال يأخذ بمجامع قلب الإنسان، وينقله - إذا سار معه سيرا حثيثا - من تذوق جمال الأجسام الفانية إلى تذوق جمال العقل والروح إلى تذوق الجمال الأزلي الأبدي المطلق لكي يفنى فيه، وهو أعظم سعادة يشعر بها الإنسان على الاطلاق.

ويعتبر الإحساس بالجمال: من الأمور الفارقة بين الإنسان وغيره من الحيوانات التي لا تملك مثل أحساسه الجمالي وخبرته الجمالية.

ورقي الإحساس الجمالي من علامات الرقي في الحالة الإنسانية لدى الأفراد، حتى قيل بحق: لا يمكن الوصول إلى أعلى الدرجات في القرب من الله ذي الجلال والإكرام، ما لم يتمتع الإنسان بدرجة عالية من التذوق الجمالي والخبرة الجمالية.

مظاهر الجمال

ومظاهر الجمال لا حصر لها، فكل شيء في العالم له جماله الخاص به، لأنه من صنع الله تبارك وتعالى، قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴾[١]

---

(١) السجدة: ٧.

فالعالم آية فنية بديعة تفوق في جمالها - بما لا يقاس - كل لوحة فنية لأي فنان في الدنيا كلها، لأنه تجليات صفات الخالق سبحانه وتعالى.

ومن مظاهر جمال العالم:

- السماء الصافية المزينة بالنجوم في الليل، وظاهرتي الشروق والغروب، والجبال الشاهقة، وشلالات المياه، والجمال في الكائنات الحية وفي مقدمتها الجمال الإنساني الذي تحدث عنه القرآن الكريم بصورة لافتة.

قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾[1].

- الصور والأشكال والألوان التي يتذوق الإنسان جمالها، وتظهرها الفنون الجميلة من خلال القطع الفنية الرائعة.

- الألفاظ والأصوات والألحان التي يتذوق الإنسان جمالها، وتظهرها فنون الشعر والنثر والموسيقى.

- البراهين الرصينة والأفكار الرائعة والأخلاق الفاضلة، مثل: التضحية والاستشهاد والحياء والصبر، وهي من مظاهر جمال: العقل والروح.

قيمة الإحساس بالجمال

يعتبر الاحساس بالجمال: المادي والمعنوي، من أسمى وأطهر اللذات الإنسانية، ومن أكثر العناصر حيوية وتأثيرا في حياة الإنسان:

- فالإحساس بالجمال يحدث في الروح بهجة وسرورا من غير اشتهاء،

---

(١) المؤمنون: ١٤.

مما يجعل من الإحساس بالجمال تجربة روحية خالصة.

- ولو سلب حب الجمال من قلب الإنسان، لما بقي للحياة أي سحر في عين الإنسان.

ولهذا حرص الإسلام الحنيف على تنمية الحس الجمالي لدى الإنسان من خلال الإشارة إلى مظاهر الجمال في الوجود، وتحفيز الإنسان على التذوق الجمالي لها، ونقله من تذوق جمال الأجسام إلى تذوق جمال العقل والروح، لينتهي به المطاف إلى تذوق الجمال الأزلي الأبدي المطلق والفناء فيه والبقاء به.

التذوق الجمالي ومحبة الله

ولأن الله تبارك وتعالى هو الأجمل وجماله مطلق، فهو عين الجمال، وحقيقة الجمال، وهو مصدر كل جمال، وعليه: فإن حب الإنسان السوى يكون كله لله سبحانه وتعالى، وأنه يحب من النفوس والأشياء بمقدار تعلقها بالله ذي الجلال والأكرام، وبمقدار ما يتجلي فيها من جماله.

قال الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾[1].

وقال الرسول الأعظم الأكرم ﷺ: « لا يؤمن أحدكم حتى يحب المرء لا يحبه إلا لله »[2].

وقال ﷺ: « أحبوا الله لما يغدوكم به من نعمه، وأحبوني لحب الله عز

---

(١) البقرة: ١٦٥.

(٢) الكنز. ج١. ص٤١. الحديث: ٩٤.

وجل، وأحبوا أهل بيتي لحبي »[1].

وقال ﷺ: « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وأهلي أحب إليه من أهله، وعترتي أحب إليه من عترته، وذريتي أحب إليه من ذريته »[2].

وقال ﷺ: « لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من نفسه، ويكون عترتي أحب إليه من عترته، ويكون أهلي أحب إليه من أهله، ويكون ذاتي أحب إليه من ذاته »[3].

الجمال في الفلسفة

والجمال أحد القيم الثلاث الأساسية في بحث القيم في الفلسفة، وهي:

- الحق ويقابله الباطل وهو موضوع علم المنطق ومناهج البحث.
- الخير ويقابله الشر وهو موضوع علم الأخلاق.
- الجمال ويقابله القبح وهو موضوع علم الفن والجمال.

علم الجمال

والعلم الذي يبحث في شروط الجمال ومقاييسه ونظرياته، يسمى: علم الجمال، وهو على قسمسن:

---

(١) البحار. ج٧٠. ص١٤.

(٢) الكنز. ج١. ص٤١. الحديث: ٩٣.

(٣) البحار. ج٢٧. ص١٣.

القسم النظري: ويبحث في الصفات المشتركة بين الأشياء الجميلة التي تولد الشعور بالجمال في النفس، ويحدد الشروط التي يتميز بها الشيء الجميل.

القسم العملي: ويبحث في مختلف صور الفن ويمارس النقد في نماذجه الفنية، ويسمى: النقد الفني.

الفرق بين الجمال والجلال

الجمال تناسب واعتدال يبعث في النفس البهجة والسرور والرضا، أما الجلال فهو تجاوز حد الاعتدال في الكمال والجمال والعظمة، مما يبعث في النفس الخشية والرهبة والذهول:

- فجمال الله تبارك وتعالى: صفاته المشتملة على العلم والرحمة واللطف والجود والكرم وامثال ذلك.

- أما جلال الله سبحانه وتعالى: فهو ما يتعلق بالربوبية والقدرة والعظمة والكبرياء والمجد.

والحقيقة التامة: أن الله تبارك وتعالى: جميل في جلاله، وجليل في جماله.

طبيعة الجمال الذاتية والموضوعية

ثار جدال واسع بين الفلاسفة حول طبيعة الجمال، أهمه النزاع بين مدرستين:

- المدرسة الموضوعية: وترى أن للجمال وجودا موضوعيا يتمثل في خصائص عينية موضوعية مستقلة عن العقل الذي يدركها، ولهذا يتفق في تذوقه

جميع الناس في كل زمان ومكان.

- المدرسة الذاتية: وترى أن الجمال معنى عقلي لا يوجد إلا في قلب الإنسان الذي يتذوقه، وليس صفة عينية تقوم في الشيء الجميل بصورة مستقلة عن العقل الذي يدركه، ولهذا يختلف تصور الجمال باختلاف الأفراد.

والحق: أن الجمال ليس ذاتيا محضا ولا موضوعيا خالصا، ولكنه مزيج من الذاتية والموضوعية، فالإحساس بالجمال لا يتوقف على العقل الذي يتذوقه وحده، ولا على الشيء الذي يحل فيه الجمال وحده، وإنما يتوقف عليهما معا:

- فهناك خصائص عينية موضوعية يتمتع بها الشيء الجميل، مثل: الانسجام والتناسق والتوازن والترتيب والنظام وغيرها.

- وهناك الإنسان الذي يتذوق الجمال، ويختلف الإنسان في تذوقه للجمال باختلاف التربية والثقافة والخبرة والتجربة الجمالية التي يتمتع بها.

قال الله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾[1].

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴾[2].

وقال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾[3].

---

(١) ق: ٦ - ٧.

(٢) الصافات: ٦.

(٣) يوسف: ٣١.

نتائج مهمة

ونتوصل مما سبق إلى النتائج المهمة التالية:

النتيجة (١): يوجد أساس مشترك بين الناس جميعا في تذوق الجمال يعود إلى الفطرة الإنسانية والخصائص الموضوعية في الشيء الجميل.

النتيجة (٢): أن الفرق بين الناس في تذوقهم للجمال فرق في الدرجة وليس فرقا في النوع.

البحث (٤): خلق الإنسان في أحسن تقويم

قول الله تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾(١).

بيان المفردات

خلقنا الإنسان: سبق بيان معاني المفردات.. والمراد: أوجدنا الإنسان وأبدعناه عن تقدير وحكمة، ومن غير مثال سابق، والخالق: أسم من أسماء الله الحسنى، بمعنى الذي خلق المخلوقات كلها بذاتها ونوعها على مقتضى إرادته وحكمته على غير مثال سابق.

أحسن تقويم: سبق بيان معنى الحسن، وقوام الشيء: ما به يقوم ويثبت، والتقويم: يعني تسوية الشيء بصورة مناسبة ونظام معتدل وكيفية لائقة، يقال: قومت الشيء تقويما، إذا أزلت عوجه وجعلته على أعدل وجه وأكمل صورة.. والمراد: خلق الإنسان في أحسن صورة وأجمل هيئة، وأفضل وضع يناسبه، وأكمل تنظيم في تكوينه الجسماني والروحي والعقلي، وتزويده بالقوى الإنسانية العالية، مثل: العلم والقدرة والإرادة والاختيار وألوان الكفاءات، وبشكل متوازن لائق من جميع الجهات لغاية وجوده ومتوافق معها تمام التوافق، مما يمكنه من السمو والتكامل والارتقاء الجسمي والعقلي والروحي، والفوز بدرجات القرب من الله ذي الجلال والإكرام وبالجنة والنعيم الدائم والرضوان.

---

(١) التين: ٤.

وهذا يدل على لطف الله عز وجل بالإنسان وعنايته به.

مضامين الآية الشريفة المباركة

تتناول الآية الشريفة المباركة خلق الإنسان وتكوينه الجسدي والروحي. وقد عبرت عن التكوين الإنساني بعبارة " أحسن تقويم " وهي تفيد من الناحية الحسية: حسن الصورة وجمال الهيئة، مما يجعله في المستوى الأحسن والأفضل بين جميع المخلوقات التي لها أجسام وصور حسية. فقد خلق الإنسان في أبدع الصور والأشكال، حيث تستقيم كل أعضائه وأجزاء جسمه في تناسق بديع متقن، ويدخل في ذلك:

- تناسب الأعضاء.
- تناسب وظائف الأعضاء وتكاملها.
- استقامة القامة.
- السير على قدمين.
- السير مرفوع الرأس.
- والعمل باليدين والأكل بهما مما يوحي بالمستوى الأفضل والأرفع من الناحية الحسية والمعنوية.

والخلاصة: أن هذه الميزات وغيرها ليست ميزات حسية تتعلق بجمال الصورة وحسن الهيئة فحسب، وإنما لها بعد معنوي يتعلق بكرامة الإنسان من جهة طبيعة السلوك والتصرف الذي يوحي به السير على القدمين، ورفع الرأس، والعمل باليدين والأكل بهما، ونحوه، وإن لم يكن ذلك - قصعا - بصورة حاسمة ودائمة:

- فمن يعجز عن استخدام يديه، ورفع رأسه، والسير على قدميه لإعاقة |

أو مرض ونحوه، فإن ذلك لا يفقده كرامته قطعا.

- إلا أن الصورة تتغير كثيرا - بحسب الذوق الإنساني العام - حينما يكون ذلك السلوك (السير على أربع أو الأكل بالفم مباشرة بدون استخدام اليدين أو تنكيس الرأس إلى الصدر أثناء المشي ونحوه) من الإنسان اختياريا، كما يفعل بعض الجهال بزعم الزهد والتصوف والتواضع لله عز وجل.

أما أكبر الكرامات التي منحها الله جل جلاله للإنسان، فهي: الغرائز، والقدرات، والاستعدادات والمواهب العقلية والنفسية والروحية، واستجماع خواص الكائنات، وغيرها، مما جعله يستولي على جميع العوالم، ويتهيأ ليكون في المستوى الأرفع روحيا ومعنويا على الإطلاق، ليعيش سعيدا في الدنيا والآخرة، إن هو اختار السير على منهج الله تبارك وتعالى وطبق قوانينه وأحكامه.

فالإنسان يتصف بالحياة والعلم والإرادة والقدرة والاختيار والتكلم بأحسن بيان وأفصحه عن المراد، وهي من الصفات السبحانية التي:

- تمكن الإنسان من السيطرة على عالم الطبيعة وتدبيره وتسخيره لأغراضه المادية والمعنوية كيفما يريد وفق النظام الكوني الدقيق المطاوع للإنسان في تكييف عالم الطبيعة لأغراضه المادية والمعنوية وإقامة حضارته المتميزة على وجه الأرض.

- وتمكنه من التحليق في عالم الملكوت والعروج إلى الرفيق الأعلى، واكتساب الفضائل الروحية السامية التي تسمو به وتجعله في القمة بين جميع المخلوقات، وتهيئه للفوز بحياة سعيدة خالدة عند ربه لا شقوة فيها. فروح الإنسان من أصفى الأرواح وأعدلها وأقواها وأنسبها إلى عالم المجردات وأقربها إلى الله ذي الجلال والإكرام، واقدرها على التخلق بأخلاقه تبارك وتعالى، مما يرتد وينعكس على سلوك الإنسان ويؤثر في بناء حضارته في الأرض ويحدد طبيعتها من خلال إضفاء الصبغة الملكوتية عليها.

- وفي نفس الوقت تحطه إلى الحضيض إن هو خالف إرادة الله تبارك وتعالى وقتل في نفسه إرادة الخير واختار طريق الشر والفساد والضلال، وجعل عقله وقدراته ومواهبه تسير وراء أهواءه وشهواته، فيكون الشيطان الرجيم في إرادة الشر والفساد، أو كالحيوان المفترس تسيطر عليه غريزة الغضب ويمارس القتل وسفك الدماء بغير رحمة، أو كالخنزير تسيطر عليه الشهوة وتجره إلى الفساد في الأرض، فينحدر بذلك إلى أحط الدرجات، ويهوي إلى مكان سحيق في نار جهنم.

وهذه هي خاصية الإنسان الجوهرية التي يتميز بها بين سائر الكائنات في الوجود بأسره، إنه بين طريقين:

- طريق الهدي الذي يرفعه إلى مقام يفوق مقام الملائكة المقربين، كما تشهد بذلك حادثة المعراج، حيث توقف الأمين جبرائيل عليه السلام عند سدرة المنتهى، وتقدم الحبيب محمد بن عبد الله ﷺ حتى بلغ السبحة، وهي الحد الفاصل بين الخالق والمخلوق.

- وطريق الضلال الذي يهبط به إلى حضيض الشيطانية والحيوانية ويهوي به إلى الدرك الأسفل في جهنم، حيث أهله (أهل الدرك الأسفل في جهنم) أقبح من كل قبيح، وأسفل من كل سافل، حتى تصبح البهائم أرفع منهم وأقوم، بسبب استقامتها على فطرتها، وأدائها لوظيفتها العامة في الحياة بحسب غريزتها، وانحرافهم عن فطرتهم، واستبدالهم الايمان بالكفر، والطاعة بالمعصية، ووضعهم المواهب التي أنعم الله تبارك وتعالى بها عليهم في غير موضعها.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ

أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴾[1].

نتائج مهمة

ونتوصل مما سبق إلى النتائج المهمة التالية:

النتيجة (١): أن الدين إيمان وعمل، ومسؤولية وجزاء، وأن خلق الإنسان في أحسن تقويم يرمي إلى هذه النتيجة، وهي: ضرورة الإيمان والتقيد بمنهج الله تبارك وتعالى وقيم السماء الخالدة والعمل الصالح، ليتهيأ الإنسان إلى القرب من الله ذي الجلال والإكرام، ويفوز بالسعادة الأبدية الخالدة.

يقول العلامة السيد الطباطبائي: « ولعل اختصاص حسن صورهم بالذكر للتنبيه على أنها ملائمة للغاية التي هي الرجوع إلى الله فتكون الجملة من جملة المقدمات المسوقة لإثبات المعاد »[2].

النتيجة (٢): أن للإنسان وزنا كبيرا في نظام الوجود، ومكانة عالية وشأنا خاصا عند الله تبارك وتعالى، وأنه يحظى من الله تبارك وتعالى برعاية متميزة وعناية بالغة من جميع الجهات.

النتيجة (٣): يجب على الإنسان أن يتأمل في حقيقة نفسه وما ركب فيها من قدرات ومواهب ليعرفها أحسن المعرفة، فهذه المعرفة هي الطريق إلى كماله والأساس لتحقيق غاية وجوده « من عرف نفسه فقد عرف ربه » وإذا كان الله جل جلاله قد اعتنى بالإنسان كل هذه العناية الفائقة الكريمة، فجدير بالإنسان أن يعتني هو بنفسه، وأن يسلك بها طريق الهدى: طريق الإيمان والرفعة والكمال، فهو

---

(١) الأعراف: ١٧٩.

(٢) الميزان. ج١٩. ص٢٩٥.

الطريق المناسب لخلق الإنسان في أحسن تقويم، وأن يحذر من الانحراف وسلوك طريق الضلال: طريق الرذيلة والفجور والانحطاط والحسد والأنانية، فإنه طريق الشيطانية والحيوانية التي لا تنسجم بتاتا وأبدا مع الرفعة والكمال والجمال ومقتضي خلق الإنسان في أحسن تقويم.

النتيجة (٤): من يكون مؤمنا ويتوجه نحو الفضيلة والتقوى والعمل الصالح يحفظ كرامته وإنسانيته في الحياة الدنيا، ويكون له الأجر والثواب الحسن في الآخرة، ولهذا خلقه الله سبحانه وتعالى في أحسن تقويم. أما من يكون ضالا ويتوجه نحو الرذيلة والفجور والعمل السيء، فإنه يفقد كرامته ويخسر إنسانيته في الحياة الدنيا، ويكون له العذاب العظيم في الآخرة لسوء اختياره، ولتفريطه في المواهب الإنسانية التي أنعم الله تبارك وتعالى بها عليه وفضله بها على سائر الكائنات في الأرض.

الفصل الرابع

تجهيز الإنسان لتحقيق غاية وجوده

المبحث (١): الحواس الخمس مصدر المعرفة

قول الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[1].

بيان المفردات

والله أخرجكم من بطون أمهاتكم: سبق بيان معنى أخرج، وبطن: خفي، وباطن الشيء: داخله وخفيه، والأشياء الباطنة: ما لا تدركه الحواس الخمس، والبطن: جوف كل شيء، وبطن الأمر: عرف حقيقته وخافيه، والباطن: من أسماء الله الحسنى، ومعناه: العالم بالسرائر والخفيات والمحتجب عن أبصار الخلائق ولا تدركه العقول والأوهام، والأم: أصل الشيء والوالدة، وأم الكتاب: اللوح المحفوظ، والجمع: أمات وأمهات، والأمومة: صفة الأم.. والمراد: تولدون من بطون أمهاتكم.

---

(١) النحل: ٧٨.

لا تعلمون شيئا: العلم: المعرفة والاتقان وإدراك الشيء بحقيقته عن يقين، والمعلوم: المعروف، والعالم: العارف، والجمع: علماء، والعليم: الواسع والكثير العلم واسم من أسماء الله الحسنى، ومعناه: المحيط علما بكل شيء: ظاهره وباطنه، وأوله وآخره، وبكل ما يتعلق به علما تاما كاملا.. والمراد: تولدون جهالا ليس لديكم شيئا من المعرفة إلا الاستعداد.

وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة: سبق بيان معنى السمع والبصر، والفؤاد: القلب واللب، والجمع: أفئدة.. والمراد: زودكم الله جل جلاله بالأدوات الحسية والعقلية والوجدانية (مجموع مدارك الإنسان الواعية: الإدراك والعقل والإلهام) للحصول على العلم والمعرفة الكسبية لتنتفعوا بها في سبل الخير والصلاح.

لعلكم تشكرون: لعل: حرف مشبه بالفعل يأتي بمعنى الترجي والاستفهام، وسبق بيان معنى الشكر.. والمراد: لكي تعرفوا ما أنعم الله تبارك وتعالى به عليكم من النعم فتؤمنوا وتكونوا من الشاكرين له.

مضامين الآية الشريفة المباركة

تتضمن الآية الشريفة المباركة حقائق رئيسية عديدة، منها:

الحقيقة (١): أن الإنسان يولد من بطن أمه وليس في نفسه أي شيء من العلم والمعرفة بالحقائق والموجودات أصلا، وقد زوده الله جل جلاله بالاستعداد والأدوات الحسية والعقلية لتكوين المعرفة، وذلك بأن:

- يدرك المحسوسات الجزئية.
- ثم يدرك بتكرار الاحساس ما بينها من المشتركات والمباينات.
- ومن خلال علمه بالبديهيات تحصل له العلوم الكسبية.

والخلاصة: كل ما لديه من العلوم والمعارف فهي مكتسبة من الخارج بعد الولادة ومبدأها الحواس والاستعدادات التي منحه الله تبارك وتعالى إياها.

وفيها إشارة إلى قيمة العقل الذي يتمتع به الإنسان ويتميز به عن الحيوان، وثمرته العلم والمعرفة.

قال الإمام الباقر عليه السلام: « لما خلق الله العقل استنطقه ثم قال له: أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، ثم قال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا هو أحب إلي منك، ولا اكملتك إلا فيمن أحب، أما إني إياك آمر، وإياك أنهي، وإياك أعاقب، وإياك أثيب »[1].

وقال العلامة الطباطبائي: « ثم ذكر سبحانه الفؤاد والمراد به المبدأ الذي يعقل من الإنسان وهو نعمة خاصة بالإنسان من بين سائر الحيوان ومرحلة حصول الفؤاد مرحلة وجودية جديدة هي أرفع درجة وأعلى منزلة وأوسع مجالا من عالم الحيوان الذي هو عالم الحواس فيتسع به أولا شعاع عمل الحواس مما كان عليه في عامة الحيوان بما لا يقدر بقدر فإذا الإنسان يدرك بهما ما غاب وما حضر وما مضى وما غبر من أخبار الأشياء وآثارها وأوصافها بعلاج وغير علاج. ثم يرقى بفؤاده أي بتعقله إلى ما فوق المحسوسات والجزئيات فيتعقل الكليات فيحصل القوانين الكلية، ويغور متفكرا في العلوم النظرية والمعارف الحقيقية، وينفذ بسلطان التدبر في أقطار السماوات والأرض. ففي ذلك من عجيب التدبير الإلهي بإنشاء السمع والأبصار والأفئدة ما لا يسع الإنسان أن يستوفي شكره »[2].

الحقيقة (٢): أن الله جل جلاله قد زود الإنسان بكل الخصائص والإمكانيات والمواهب والاستعدادات التي يحتاجها في منافعه الدنيوية، وليكون

---

(١) الكافي. ج١. ص١٠.

(٢) الميزان. ج١٥. ص٥٤.

إنسانا كاملا وموجودا متميزا في عالم الوجود ويسلك طرق السعادة السرمدية.

الحقيقة (٣) أن المعرفة التي يمتلكها الإنسان تنقسم إلى قسمين:

- لمعرفة الحسية المباشرة.

- المعرفة العقلية الواسعة، وهي غير المعرفة المباشرة، وتكون للقضايا غير الحسية (البعيدة عن الحواس) ويدركها الإنسان بعملية عقلية أو فكرية، فمن خلالها يدرك الإنسان قواعد المعرفة، وكليات الحقائق، وقوانين الوجود، ويرتفع إلى الارتباط بالقضايا الكبرى في الحياة، وتقوده لأن يكون القوة التي تقود الحياة في الطريق الصحيح.

الحقيقة (٤): أن المعرفة الحسية (لاسيما المنقولة من السمع والبصر) تمثل القاعدة الأولى للمعرفة العقلية المتطورة لدى الإنسان، وتتشكل المعرفة العقلية وفق قواعد فطرية مغروسة في عقل الإنسان.

الحقيقة (٥): أن التعمق في حقيقة هذا التكوين والنظام المعرفي للإنسان، يؤدي إلى الإيمان بالتوحيد والسير في طرق العبودية لله ذي الجلال والإكرام الذي أنعم على الإنسان بهذه النعم الجسام ونقله من طور إلى طور على طريق التكامل والسعادة الأبدية الخالدة بحكمته البالغة.

وفيها أشارة إلى قيمة المعارف والعلوم الإلهية وعظمتها، فهي الوسيلة لأداء حق العبودية والشكر للمنعم.

الحقيقة (٦): من الناحية الأخلاقية: فإن وعي النعمة في طبيعتها وقيمتها يقتضي الشكر القولي والفعلي من المنعم عليه لصاحب النعمة.

قال الله تعالى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴾[١].

---

(١) الرحمن: ٦٠.

وهذه قاعدة عامة تجري في الخالق والمخلوق على حد سواء (من لا يشكر المخلوق لا يشكر الخالق) إلا أنها في الخالق تمثل حالة وجدانية راقية تهز كيان الإنسان كله ليقف بكل خضوع وسكينة أمام الخالق العظيم الكريم الذي أبدع وأعطى ودبر في طاعة شاملة لكل أمره ونهيه.

نتائج مهمة

ونتوصل مما سبق إلى النتائج المهمة التالية:

النتيجة (١): إن ما يذكر من العلوم البديهية والضرورية والفطرية لدى الإنسان، يكون وجودها لديه حين الولادة على شكل استعداد (موجودة بالقوة) وليس لها وجود فعلي حاضر في نفسه، فهو في غفلة عنها حين ولادته، وبالتدريج تحصل للحواس والعقل قوة الإدراك وتكوين المفاهيم والتصورات عن الكون والإنسان والحياة، ويشق طريقه في الحياة ويحدد مصيره فيها على ضوء ما يتكون لديه من العلم والمعرفة.

النتيجة (٢): أن الإدراكات الحسية (السمع والبصر والشم والذوق واللمس) والإدراكات العقلية (التصورات والتصديقات) زيادة نوعية في درجة الوجود على المادة لا يمكن أن تكون من إفراز المادة، فليس من شأن المادة أن تنشأ الإدراك لدى الإنسان بقسميه: الحسي والعقلي، لأن فاقد الشيء لا يعطيه، فلا بد أن يكون منشأ الإدراك قوة عليا تمتلك الحياة والعلم والقدرة بصورة مطلقة، وهي التي منحت الوجود والحياة لغيرها وجعلته متفاوتا، فكان بعضه جامدا، وبعضه حي غير مدرك، وبعضه حي مدرك.

يقول العلامة الشيخ جواد مغنية: « إذا كانت الحياة والإدراك من خصائص المادة ولوازمها وجب أن يكون لكل مادة سمع وبصر وفؤاد لأن عموم

السبب يستدعي عموم المسبب »[١].

ويقول العلامة السيد قطب: « إن مجرد معرفة طبيعة هذه الحواس والقوى وطريقة عملها، يعد كشفا معجزا في عالم البشر، فكيف بخلقها وتركيبها على النحو المتناسق مع طبيعة الكون الذي يعيش فيه الإنسان، ذلك التنسيق الملحوظ الذي لو اختلت نسبة واحدة من نسبه في طبيعة الكون أو طبيعة الإنسان لفقد الاتصال، فما استطاعت أذن أن تلتقط صوتا، ولا استطاعت عين أن تلتقط ضوءا، ولكن القدرة المدبرة نسقت بين طبيعة الإنسان وطبيعة الكون الذي يعيش فيه، فتم هذه الاتصال »[٢].

النتيجة (٤): أن نعمة تحصيل المعرفة تعتبر من أعظم النعم التي أنعم الله تبارك وتعالى بها على الإنسان، ويريد الله عز وجل للإنسان أن يتعمق في فهم قيمة هذه النعم وتأثيرها في مجرى حياته، ليعرف فضل الله تبارك وتعالى عليه، ويسعى في طريق طاعته وشكر نعمته لنيل رضاه، لأن وعي النعمة يفرض الشكر القولي والعملي للمنعم الذي وهبها للمنعم عليه تسهيلا لحياته.

النتيجة (٥): أن نعمة السمع البصر والعقل لا تقف عند حدود رؤية الأجسام وسماع الأصوات وتحليلها في سبيل القيام بحوائج الجسم فحسب، وإنما تتعدى ذلك إلى حدود تكوين العبرة وبناء شخصية الإنسان: الفردية والمجتمعية، وتكميله روحيا ومعنويا، مما يعطي لها بعدا آخر أكثر عمق وأهمية في حياته.

يقول العلامة محمد قطب: « أما العقل فمهمته الأولى أن يعاون الإنسان في الحصول على أفضل الطرق لإجابة النوازع الفطرية، والتغلب على العقبات التي

---

(١) الكاشف. ج٤. ص٥٣٦.

(٢) الظلال. ج٤.ص٢٤٧٦.

تقف في سبيل ذلك، بالتدبر والتفكر. ولكن مهمته لا تقف عند هذا الحد، فلكي يتأتى له أن يقوم بمهمته على أحسن وجه، جعلت فيه نزعة دائمة إلى المعرفة، كأنها في ذاتها هدف مقصود، وعن طريق هذه النزعة ترتقي الحياة وتتقدم، وهي تحقق أهدافها الأصيلة في الوقت ذاته، فالرقي إذن هدف أصيل من أهداف الحياة، تنزع إليه نزوعا ذاتيا، ووسائله أو جزء منها موجود في العقل البشري »[1].

النتيجة (٦): أن نعمة السمع والبصر والشم والذوق واللمس ونعمة العقل هي نعم ذات قيمة جليلة، وأنها أدوات لمنافع دنيوية وأخروية واسعة تفقد الحياة قيمتها بدونها، وينبغي للإنسان العاقل أن يتنبه لذلك ويسعى إلى تحقيقه، وعليه أن يحذر من أن يكون حبيس المنافع المادية المباشرة الضيقة، فيخسر الكثير الكثير مما هيئه الله تبارك وتعالى له من المنافع والمصالح البعيدة والواسعة والعميقة ومن الخير والسرور والسعادة في الدنيا والآخرة.

النتيجة (٧): ينبغي للإنسان العاقل أن يحسن توظيف النعم المادية والمعنوية التي وهبها الله تبارك وتعالى إليه، وذلك بأن يصرف كلا منها فيما خلق لأجله ويعود عليه بالخير والمنفعة والسعادة في الدنيا والاخرة، لا أن ينحرف به - كما يفعل الكثير من الناس - فيكون من الخاسرين.

وعلى سبيل المثال:

- أن يوظف السمع في التواصل البناء مع الآخرين ونقل التجارب والإصغاء إلى الآيات التنزيلية والحكم والمواعظ الحسنة، والابتعاد عن السماع المحرم.

قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ

---

(١) الإنسان بين المادية والإسلام. ص٧١.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1].

- أن يوظف البصر لرؤية الآيات التكوينية والبحث عن مظاهر الجمال والجلال في الخلق وتذوق الجمال، والابتعاد بالنظر عما حرم الله جل جلاله.

- أن يوظف العقل للنقد العلمي وتنظيم التجارب والخبرات والاستدلال على الحق وتكوين الرؤية الواقعية الصحيحة عن الكون والإنسان والحياة، والابتعاد عن المكر والخديعة والتضليل.

النتيجة (٨): أن الإنسان مكلف بالنظر والتفكير والتمحيص والنقد من أجل الوقوف على الأخبار واكتشاف أسرار الخلق والخلائق والتاريخ والحضارة، وتكوين الرؤية الفكرية الصحيحة الواضحة عن الكون والإنسان والحياة، وتحديد مواقفه في الحياة عن علم ومسؤولية.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[2].

ولا يصح منه ولا يقبل ولا يليق به أن يكون إمعة ينعق مع كل ناعق ويميل مع كل ريح.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: « الناس ثلاثة: فعالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق »[3].

---

(١) الزمر: ١٨.

(٢) فصلت: ٥٣.

(٣) النهج. قصار الحكم. ١٤٧.

المبحث (٢): بحث فلسفي في نظرية المعرفة

تعتبر نظرية المعرفة المدخل الطبيعي لسائر الأبحاث، إذ بدونها لا يمكن القيام بأي بحث منظم، ولا يمكن التصديق بصحة أو فساد نتائجه، لهذا أولاها الفلاسفة عناية فائقة في البحث، وأصبحت في المقام الأول بين جميع الأبحاث الفلسفية، ومجال البحث الفلسفي في المعرفة واسع جدا، والذي يهمنا منه هنا ما يتعلق بموضوع الآية الشريفة المباركة، وهو: أدوات المعرفة. وقد اختلف الفلاسفة في تعيين الأدوات التي يكتسب الإنسان بها المعارف والعلوم إلى مدارس، سوف نتعرف عليها من خلال العرض المختصر التالي.

أقسام العلم

ينقسم العلم إلى قسمين:

- **العلم الحضوري**: مثل: علم الإنسان بنفسه وأحاديثه النفسية التي لا يعلمها إنسان غيره، فليس لهذه الأشياء وجود إلا في نفسه، وهذا العلم خارج البحث الفلسفي في المعرفة.

- **العلم الحصولي**، مثل: علم الإنسان بالأشياء التي حوله (علمه بصور الأشياء) وعلمه بالمعارف التي يقرؤها أو يسمعها (علمه بالأفكار عن الأشياء).

فلهذه الأشياء وجودان:

- وجود في ذهن الإنسان العالم بها.

- ووجود في الخارج.

وهذا العلم هو موضوع الاهتمام في البحث الفلسفي في المعرفة.

أقسام العلم الحصولي

وينقسم العلم الحصولي إلى قسمين:

- **التصور:** وهو كل معرفة حصولية لم نصدر عليها حكما بالصحة أو الخطأ، مثل: تصور كروية الأرض، فهو مجرد صورة أو فكرة في الذهن بدون حكم.

- **التصديق:** وهو كل معرفة حصولية أصدرنا عليها حكما بالصحة أو الخطأ، فهو صورة أو فكرة مع حكم عليها بالصحة أو الخطأ.

مثال: إذا قلنا: الأرض كروية الشكل، فهذا القول عبارة عن تصور، فإذا بحثنا فيه لنعرف هل ينطبق مع الواقع أو لا ينطبق، وتوصلنا إلى نتيجة محددة: بالصدق أو الكذب، فقد أنقلب التصور إلى تصديق.

الينابيع الأولى للتصورات

السؤال (١): ما هي الينابيع الأولى للتصورات في الذهن؟

الجواب (١): ثمة نظريات عديدة للإجابة على هذا السؤال، منها:

النظرية (١) الاستذكار

وهي للفيلسوف اليوناني الشهير أفلاطون (٤٢٨ – ٣٢٧ ق.م) وفيها تنقسم إدراكات الإنسان إلى قسمين:

- إدراكات جزئية تأتي عن طريق الحواس.
- وإدراكات كلية تأتي عن طريق التعقل.

فالحواس تدرك الأشياء التي تحيط بالإنسان كأجزاء مختلفة، ثم يقوم العقل بتصنيفها في مجموعات تشترك في صفات معينة، فهناك مثلا: مجموعة الأحجار والمعادن، ومجموعة المياه، ومجموعة الهواء والغازات، ومجموعة الأشجار والنباتات، ومجموعة الطيور، ومجموعة الحيوانات، ومجموعة الإنسان، وهكذا:

- فالحواس تدرك كل فرد من هذه المجموعات على حدة (إدراك جزئي).
- والعقل يقوم بعملية التجميع والتصنيف والتوزيع إلى مجموعات، كل مجموعة تشترك في صفات معينة وحقيقة واحدة (ماهية) يدركها العقل ولا تدركها الحواس (إدراك كلي) وتسمى كل مجموعة نوع.

كما يستطيع العقل إدراك مفاهيم كلية مجردة أخرى، مثل: الحق، والعدل، والخير، والجمال، والشجاعة، والعفة، والفضيلة، وغيرها.

وعلم العقل بالحقائق الكلية (الماهيات، مثل: الإنسان حيوان ناطق) هو العلم الحقيقي الذي يتميز به الإنسان عن الحيوان، وعليه تقوم حياته، ولا يمكن أن تقوم حياة الإنسان بدونه.

ويرى أفلاطون: أن تكوين الحقائق الكلية ليس من صنع العقل، وإنما وليد عملية تذكر تقوم بها الروح، حيث أن هذه الحقائق لها وجود فعلي حقيقي أزلي في عالم المثل، وأن عالم الطبيعة خلق على نسق عالم المثل، فهو مجرد ظلال وانعكاسات لعالم المثل، وأن الروح قبل أن تتلبس بالجسد كانت تسكن في عالم المثل وهي عالمة بتلك الحقائق، ولما تلبست بالجسد نسيتها أو ذهلت عنها، وأن إدراك الجزئيات يقوم بعملية تحفيز للروح لاستذكار تلك الحقائق واستعادتها والعلم بها من جديد، حيث:

- يزيد من عملية الاستذكار تصفية النفس والعرض الملائم للأفكار.

- وينقص منها الانغماس في الشهوات والملذات الحسية والانشغال بالمادة.

والخلاصة: أن مصدر التصور للجزئيات هو الحواس الخمس، ومصدر التصور للكليات هو الاستذكار.

وهذه النظرية تخالف الآية الشريفة المباركة التي تقول بأن مصدر المعرفة هي الحواس والعقل.. وفي الحقيقة: لا وجود لعالم الحقائق (المثل) وأن الموجود هو الأشياء، وأن العقل هو الذي صنع هذه الحقائق أو المفاهيم الكلية بواسطة التجميع والتصنيف على أساس الصفات المشتركة وحذف الخصوصيات، وليس لهذه الحقائق وجود خارج ذهن الإنسان.

النظرية (٢) الإشراق

وهي للقديس أورليوس أوغسطين (٣٥٤ - ٤٣٠م) ولد في طاجستان من أعمال نوميديا (سوق أهراس بالجزائر على الحدود التونسية) وهو مؤسس الأفلاطونية المسيحية، ويرى بأن للمعرفة ثلاثة مصادر: الحس، والعقل، والإشراق الإلهي، ويرى:

- أن كل معرفة حسية هي موضع شك من العقل حتى يثبتها أو ينفيها.

- أن العقل يدرك الحقائق المجردة، مثل: قوانين المنطق والرياضيات ومبادئ الخير والجمال، وهي حقائق ثابتة لا تتغير بتغير الأشخاص والزمان والمكان.

- أن وجود العقل في الإنسان دليل على وجود الله سبحانه وتعالى، وإلا

فمن أين تأتي للعقل مقاييسه التي يميز بها بين الحق والباطل. فهذه المقاييس ليس مصدرها الحواس، لأن المعرفة الحسية تحتاج إلى العقل لكي يثبتها أو ينفيها، فلابد أن يكون مصدرها الله سبحانه وتعالى يفيضها على الإنسان بدون إعمال الحس والعقل بحسب رأيه.

يقول أوغسطين: « كما أننا نرى الماديات في ضوء الشمس، فكذلك خلقت النفس الناطقة بحيث تستطيع أن ترى المعقولات في ضوء لا جسمي يشرق عليها ».

ويرى أن السبيل إلى الخير الأسمى هو الاتحاد بالله سبحانه وتعالى بواسطة التأمل، وأن أقوى دافع إلى الخير والفضيلة هو الحب: حب الله، وحب الإنسان.

ويرى بأن الإنسان كلما طهرت نفسه وصفى قلبه، تمكن أكثر من إدراك حقيقة الله ذي الجلال والإكرام، وبالتالي معرفة حقائق الكون وأسرار الوجود.

ويرى بأن الثقافة الحقيقية هي الثقافة التي تدرك الوحدة بين العلوم وتسير بنا إلى الخالق سبحانه وتعالى.

وقد قال بعض الفلاسفة المسلمين، مثل: ابن سينا وصدر التألهين الشيرازي وغيرهما بالمعرفة الإشراقية وتدعمها آيات من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾[1].

وقال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن

---

(١) الأنفال: ٢٩.

رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1].

إلا أن رأي الفلاسفة المسلمين يختلف عن رأي أوغسطين، حيث أنهم يعولون على العقل ويرون أن له القدرة على المعرفة واستنباط الأحكام الكلية بصورة مستقلة عن الإشراق.

النظرية (٣) العقلية

وهي لفلاسفة أوربيين ، مثل:

- الفيلسوف الفرنسي ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠م).
- والفيلسوف الفرنسي أوجست كونت (١٧٩٨ - ١٨٥٧م).
- والفيلسوف الهولندي سبينوزا (١٦٣٢ - ١٦٧٧م).
- والفيلسوف الألماني لايبنز (١٦٤٦ - ١٧١٦م).
- وغيرهم.

ويرى أصحاب هذه المدرسة أن مصدر المعرفة التصورية: الحس والفطرة:

- فهناك معلومات يكتسبها الإنسان بواسطة الحواس الخمس.
- وهناك معارف فطرية مغروسة في نفس الإنسان.

ويختلف الفلاسفة في التفاصيل، فمثلا:

- يرى ديكارت: أن من المعارف الفطرية فكرة الإله والنفس والحركة وتتميز بالوضوح التام.

---

(١) الحديد: ٢٨.

- ويرى كونت: أن مبادئ الرياضيات معارف فطرية، وأن مادة العلوم الطبيعية مكتسبة من الخارج، أما صورتها المؤلفة من فكرتي الزمان والمكان والتي يقوم العقل بترتيب الأحاسيس وفقها فهي فطرية. ويرى بأن العقل يمتلك قوالب فطرية أخرى لتنظيم الإدراكات الحسية.. والخلاصة: أن مصدر المعرفة التصورية لدى كونت، هي: الحواس والقوالب الفطرية.

- ويرى اسبينوزا: أن الفكر يمتلك قوة فطرية يصنع من خلالها لنفسه وسائل للقيام بعمليات فكرية، ومن خلال هذه العمليات الفكرية يكتسب وسائل جديدة للقيام بعمليات فكرية أعمق، وهكذا يتقدم الفكر الإنساني بصورة تدريجية.

- ويرى لايبنز: أن المعارف البشرية كلها فطرية، فهي موجودة في النفس بصورة كامنة لا يشعر بها الإنسان، ثم تأتي المنبهات الخارجية عن طريق الحواس فتقوم بإثارة تلك المعارف الفطرية لتخرجها من حالة الكمون واللاشعور إلى حالة الوعي والنشاط.

ويؤخذ على هذه النظرية: أن هذه المعارف لو كانت فطرية بالمعنى المذكور، لكانت واحدة عند الجميع، ونحن نجد من واقع التجربة بأنها ليست كذلك.

النظرية (٤) الحسية

وهي لمجموعة من الفلاسفة، منهم:

- الفيلسوف الانجليزي جون لوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤م).
- والفيلسوف الايرلندي جورج باركلي (١٦٨٥ - ١٧٥٣م).
- والفيلسوف الاسكتلندي ديفيد هيوم (١٧١١ - ١٧٧٦م).

وقد تصدى هؤلاء جميعا إلى دحض المعارف الفطرية وأرجعوا جميع

المعارف إلى الحواس، إلا أنهم تفاوتوا في الموقف:

- فجون لوك: يرى أن ذهن الإنسان عند الولادة يكون صفحة بيضاء لم ينقش فيها شيء، والتجارب هي وحدها التي تستطيع أن تنقش فيه المعاني والأفكار.

ويرى أن التجارب تنقسم إلى قسمين:

- تجارب حسية بواسطة الحواس الخمس.

- وتجارب باطنية بواسطة التأمل.

وأن كل ما لدينا من معارف هي وليدة هذه التجارب: الحسية والباطنية.

- ويرى باركلي: أن لا وجود لشيء مستقلا عن إدراك العقل، إما الإدراك بالعقل الإلهي، وإما الإدراك بالعقل الإنساني، فلا وجود واقعي للمادة، وأن إدراك العقل الإلهي للأشياء هو الذي يجعلها ذات وجود متصل حتى لو لم يدركها عقل إنسان، وبهذا يصبح قوام الكون هو الله عز وجل.

- ويرى هيوم: أن كل شيء هو عبارة عن سلسلة حالات متتابعة، وليس لشيء وجود قائم بذاته، وأن المعارف هي سلسلة انطباعات حسية تتجمع وفق قوانين للترابط، والفكرة التي يستحيل ردها إلى الانطباعات الحسية التي كونتها تكون فكرة وهمية. ويرى في العلاقة بين العلة والمعلول بأنها حالة اقتران مرهونة بتجربتنا الحسية، فهو - أي الاقتران - محتمل الصدق وليس محتوم الحدوث منطقيا، وبهذا أنكر هيوم الروحانيات وانتهى إلى الشك في الماديات.

- وترى الماركسية: أن التصورات هي إحساسات واردة من العالم الخارجي، وأن العقل يقوم بعملية تجميعها وترتيبها وتنسيقها، ولا يقوم العقل بعملية استنباط لمعاني وأفكار خارج نطاق الحس، فكل ما لا يحس لا وجود له، وأنه

خارج عن نطاق الفكر الصحيح.

ويؤخذ على النظرية الحسية:

- أنها لم تأتي بدليل واحد يدل على قصور العقل وعجزه عن استنباط معاني وأفكار خارجة عن نطاق الحواس، وهذا مما يخالف الواقع الوجداني لدى جميع الناس، فنحن نعلم بأن الكثير من الحيوانات تشارك الإنسان في الإحساس بالعالم الخارجي، ولكنها لا تكتسب ما يكتسبه الإنسان من معارف عن العالم المادي وخارجه.

- وأنها قاصرة عن تقديم تفسير واضح لعلم الإنسان ببعض المفاهيم، مثل: العلية، والتناقض، والممكن، والمستحيل، وغيرها .

- ويكفينا في نقد المدرسة الحسية النتيجة المنطقية التي تمخضت عنها انتهى إليها الكثير من روادها وهو الشك في كل شيء.

النظرية (٥) الإسلامية (الانتزاع)

ترى المدرسة الإسلامية أن الإنسان يولد خالي الذهن من كل معرفة فعلية، ولكنه مزودا بقابلية فطرية لتلقي الإحساسات وحفظها وتذكرها وتحليلها وتركيبها، والقابلية للاستنباط والاستنتاج والابتكار، وأن هذه القابلية تنمو لديه بصورة تدريجية:

- ففي البداية يكتسب الإنسان عن طريق الحواس الخمس مجموعة من المعارف الحسية.

- ثم يقوم العقل في مرحلة متقدمة بعملية المقارنة لما يرد عليه من الحواس وبعملية التحليل والتركيب والسعي لمعرفة الأسباب، فتتكون لديه فكرة عن الأشياء

بأبعادها المختلفة (الأشكال والأحجام والألوان) وعن أسباب الحوادث والعلاقة بينها، وعن بعض المفاهيم، مثل: الحب والبغض، والأمن والخوف، والسرور والحزن، والأمل واليأس.

- وفي مرحلة لاحقة يقوم العقل بعملية الاستنباط والابتكار والتوصل إلى المعارف العقلية المتقدمة، فتتكون لديه فكرة عن الماهيات والأنواع، وعن خالق الكون وأسمائه وصفاته، ويكون قادرا على حل المشاكل ومعالجتها، والتمييز بين الأفكار ومحاكمتها.

ويمكن تلخيص النظرية الإسلامية في ثلاث نقاط:

- أن الإنسان يولد وليست لديه أية معرفة فعلية، ويكون مزودا من الخالق جل جلاله بقابلية فطرية لتلقي الإحساسات وحفظها وتذكرها وتحليلها وتركيبها وبقابلية للاستنباط والاستنتاج والابتكار.

- أن المصدر الأول لكافة المعارف هو الإحساس، غير أن العقل لديه القدرة على استنباط معاني ومفاهيم غير محسوسة انطلاقا من المعارف المحسوسة، مثل: مفهوم الإنسان، ومفهوم العلة والمعلول وغيرها.

- أن عملية اكتساب المعارف تجري بصورة تدريجية: ففي البداية تتكون المعارف الحسية الجزئية التي مصدرها الحواس، ثم تتكون معارف كلية مبنية على المعارف الجزئية، مثل: مفهوم الإنسان، ومفهوم الحيوان، ثم تتكون الأفكار الناضجة والمتقدمة.

موارد التصديق

السؤال (٢): ما هي موارد التصديق؟

وما هي الوسائل التي يتبعها العقل للوصول إليه والحصول على مختلف العلوم؟

الجواب (٢): مورد التصديق هو: (النسبة في الجملة الخبرية) من جهة الاقتناع بمطابقة النسبة للواقع الموضوعي أو عدم مطابقتها له.

- فإذا قلنا: الأرض كروية الشكل، فهذه جملة خبرية، لأنها تخبر عن الأرض بأن شكلها كروي، وهي عبارة عن تصور.

- فإذا بحثنا في هذه الجملة الخبرية لنتحقق من أنها تنطبق مع الواقع (صادقة) أو لا تنطبق (كاذبة) وتوصلنا إلى حكم نطمئن إليه (سواء بصدقها أو كذبها) فقد أنقلب التصور إلى تصديق.

والوسائل التي يتبعها الإنسان (العقل) للوصول إلى النتائج متباينة بحسب تباين العلوم واختلافها. وسوف نتعرف على رأي مدرستين فيما يتعلق بالوسائل التي يتبعها العقل للوصول إلى المعرفة التصديقية:

المدرسة (١) العقلية

تنقسم المعارف التصديقية برأي أصحاب هـذه المدرســة إلى قسمين:

- **المعارف البديهية**: وهي المعارف الواضحة بنفسها والتي لا يحتاج الإنسان في إصدار الحكم عليها إلى مراجعة معارف أخرى، مثل: الكل أكبر من الجزء، والواحد نصف الاثنين، والمتناقضان لا يجتمعان.

- **المعارف النظرية**: وهي المعارف التي يحتاج الإنسان في إصدار الأحكام عليها إلى مراجعة معارف أخرى، مثل: الأرض كروية الشكل، الحديد يتمدد بالحرارة، الله خالق السماوات والأرض.

وتمثل المعارف البديهية رأس المال المعرفي لدى الإنسان:

- فمن خلال الرجوع إليها وتوظيفها يتوصل الإنسان إلى المعارف الأخرى وتكوين العلوم والنظريات، وبدونها لا يتمكن الإنسان من تحصيل أية معرفة.

- وأن تطبيقها بشكل صحيح يؤدي إلى الصواب والابتعاد عن الخطأ في النتائج.

ويترتب على ذلك النتائج التالية:

النتيجة (١): أن المدرسة العقلية تؤمن بالعلاقة السببية بين المعارف، فكل معرفة ترتكز على معرفة سابقة، حتى ينتهي التسلسل إلى المعارف البديهية الواضحة بذاتها، وبدونها لا يمكن أن تقوم أية معرفة.

النتيجة (٢): أن المدرسة العقلية ترى تعدد مناهج المعرفة واختلافها باختلاف حقول المعرفة، فلكل حقل منهجه الخاص، إلا أن جميع المعارف التي يكتسبها الإنسان في أي حقل من حقول المعرفة وبأي منهج لا تتحصل إلا بفاعلية العقل وبطريقة عمله الخاصة.

النتيجة (٣): أن العقل يقوم بمهمة التفكير على خطوات وفق نظام محدد:

- فيقوم في البداية باستنباط المعارف البديهية والتعرف عليها.

- ثم يقوم بتوظيفها في اكتساب المعارف الأخرى.

- وأنه يسير في عملية التفكير من الكليات إلى الجزئيات.

مثال: لو وجهنا السؤال التالي لواحد من أتباع المدرسة العقلية: المادة حادثة أو قديمة؟

فيمكنه أن يجيب كالتالي:

- المادة في حركة دائمة (وهذه معلومة مكتسبة) فهي متغيرة.
- وكل متغير حادث (وهذه أيضا معلومة مكتسبة).
- إذن: المادة حادثة.

في هذه العملية توجد ثلاث قضايا:

- قضية كبرى: كل متغير حادث.
- قضية متوسطة: المادة متغيرة.
- قضية صغرى: المادة حادثة.

وقد انتقل العقل من القضية الكبرى بتوسط القضية المتوسطة إلى القضية الصغرى.

النتيجة (٤): أن العقل يرتكز في عملية الاستنباط على معلومات سابقة، وكلما كانت هذه المعلومات دقيقة وشاملة ومفصلة وصحيحة، كلما كانت النتائج في عملية الاستنباط دقيقة وصحيحة، والعماد في صحة المعلومات المستخدمة في عملية الاستنباط هو المنهج الخاص بها.

النتيجة (٥): أن العقل قادر على التوصل إلى نتائج غير حسية إذا توفرت لديه المعلومات الكافية التي يقتضيها البحث في الموضوع.

النتيجة (٦): أن المدرسة العقلية لا تنفي التجربة كأحد مصادر المعرفة، وأنها تستطيع من خلال منهجها (القياس) أن تقوم بعملية تعميم النتائج التجريبية لتطبق على جزئيات لم تشملها التجربة.

المدرسة (٢) التجريبية

لقد أساء بعض أصحاب المدرسة العقلية في أوربا قبل النهضة إليها، حيث:

- جعلوا أقوال الباباوات ورجال الدين معايير للمعرفة البشرية ولم يدققوا في موافقتها أو مخالفتها للواقع.
- وحصروا البحث في القضايا النظرية وأهملوا التجارب العلمية، وكلفوا العقل مالا يطيق، فظهر التخلف في التفكير والعلوم.

مما حفز الفلاسفة على التفكير في وسائل جديدة للبحث ومعرفة العالم، فظهر المنهج التجريبي في أوربا على يد:

- الفيلسوف الانجليزي فرنسيس بيكون (١٥٦١ - ١٦٢٦م).
- ومن بعده الفيلسوف الانجليزي الآخر جون استيورات مل (١٨٠٦ - ١٨٧٣م).

والمدرسة التجريبية المعاصرة تعتمد على التجربة والملاحظة والاستقراء:

- ولا تؤمن بأية معرفة سابقة على التجربة حتى المعارف البديهية.
- ولا تبحث الموضوعات التي لا تخضع للملاحظة والتجربة.

شروط البحث التجريبي

يتطلب البحث التجريبي بعض الشروط، أهمها:

- التجرد قبل البحث من أي حكم مسبق.
- والقيام بكل ما يتطلبه البحث من ملاحظات وتجارب.

- جمع النتائج وتصنيفها وإجراء المقارنة بينها.

- وضع الفروض المحتملة لتفسير الوقائع.

- امتحان الفروض للتحقق من صحتها.

- إجراء المزيد من التجارب للتحقق من صحة الفرض الذي تم ترجيحه، فإذا أيدت التجارب الجديد صحة الفرض أصبح نظرية علمية وإلا تم حذفه،

- فحص النظرية من أجل اختبار قدرتها على تفسير الظواهر الماضية والتنبؤ بالظواهر الجديدة، فإذا ثبتت قدرتها على ذلك تصبح قانونا علميا، وإلا بقيت مجرد نظرية (فرض علمي معزز ببعض الأدلة) وليس لها الثبوت القطعي.

تقييم المدرسة التجريبية

لا ينكر أصحاب المدرسة العقلية قيمة التجربة وأهميتها في المعرفة، وأن تقدم العلوم الطبيعية يدين بالفضل إلى الملاحظة والتجربة، إلا أن ذلك لا يلغي قيمة العقل وفعاليته في حقول المعرفة التجريبية، فالعقل هو الذي يقوم بتنظيم الملاحظات ويدرك معطيات التجارب، وأن النظريات والقوانين التي يتم التوصل إليها من خلال الملاحظة والتجربة، هي في الحقيقة وليدة عاملين: العقل، وما تكشف عنه الملاحظة والتجربة.

- فالعقل بدون الملاحظة والتجربة لا يمكن أن يتوصل إلى النظريات والقوانين العلمية.

- والملاحظة والتجربة بدون فاعلية العقل لا يمكن أن تسفر عن نتائج محددة.

- وأن تعميم النظرية أو القانون على جميع الظروف المماثلة لظروف

التجربة – مع أن التجربة لم تشمل إلا عينة يسيرة من الأشياء التي تطبق عليها النظرية أو القانون – يستند إلى قانون عقلي، وهو: أن الظروف المتماثلة، والأشياء المتشابهة في النوع والحقيقة، تخضع لقوانين واحدة.. والخلاصة: أن إصدار قانون كلي بناء على التجربة، لا يتم إلا بعد التسليم بمعارف عقلية سابقة.

المآخذ على المدرسة التجريبية

يؤخذ على المدرسة التجريبية عدم اعترافها بالقضايا الميتافيزيقية (ما وراء الطبيعة) التي لا تخضع للملاحظة والتجربة، بدون أن تقدم دليلا واحدا تثبت به قصور العقل وعدم قدرته على إثبات هذه القضايا مع ملاحظة:

- أنه لا يمكن إثبات صحة دعوى أصحاب المدرسة التجريبية: (بأن التجربة هي المصدر الوحيد للمعرفة) عن طريق التجربة نفسها، فالاستدلال الذي تقدمه المدرسة هو استدلال عقلي وليس استدلالا تجريبيا.

- وأن مبدأ العلية الذي تقوم عليه جميع العلوم الطبيعية لا يمكن إثباته عن طريق التجربة، والطريق إلى إثباته هو طريق الاستدلال العقلي.

نتائج مهمة

ونتوصل مما سبق إلى النتائج المهمة التالية:

النتيجة (١): أن جميع النظريات التجريبية في العلوم الطبيعية ترتكز على معارف عقلية لا تخضع للتجربة.

النتيجة (٢): أن التجربة ليست هي المصدر الأول والأساسي للعلوم، لأن المصدر الأول والأساس لجميع العلوم هي المعارف العقلية البديهية التي نكتسب

على ضوئها جميع المعارف الأخرى.

النتيجة (٣): أن العقل يستطيع أن يتوصل إلى نتائج يقينية لما وراء الطبيعة بنفس الأسلوب الذي يستخدمه العقل في التوصل إلى النتائج الكلية (النظريات والقوانين) في العلوم الطبيعية.. ومن فضل الله الكريم على الإنسانية: أن آية الله العظمى السيد محمد باقر الصدر (قدس سره الشريف) قد نجح في إثبات وجود الله عز وجل من خلال المنهج التجريبي ووفق شروطه في كتابه المعروف: (الأسس المنطقية للاستقراء) وفي البحث الموجز في أصول الدين الذي نشره في مقدمة رسالته العملية: (الفتاوى الواضحة).

النتيجة (٤): أن نتائج العلوم الطبيعية تكون ظنية غالبا، وعلة ذلك أنها تعتمد على الاستقراء، والاستقراء في العلوم الطبيعية لا يكون إلا ناقصا، فلا يملك عالم الطبيعة أن ينفي وجود تفسير آخر للظواهر أو الوقائع موضوع البحث.

النتيجة (٥): أن نتائج العلوم الرياضية تكون يقينية دائما، وذلك لأنها تستند إلى مبادئ العقل البديهية، ولا تتوقف على معارف غير عقلية (فالطابع العقلي الصارم هو سر اليقين المطلق في الحقائق الرياضية) ويمكن أن تكون نتائج بعض البحوث الفلسفية يقينية، إذا ثبت بالعقل صحة جميع المقدمات المستخدمة في إثباتها.

وبهذه الوقفة على هذا الجزء اليسير من البحث الفلسفي في المعرفة، ندرك عظمة قول الله عز وجل الذي جاء على لسان النبي الأمي: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[1].

---

(١) النحل: ٧٨.

البحث (٣): ابتلاء الإنسان

قول الله تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾(١).

بيان المفردات

إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج: مشج الشيء: خلطه، والمشج والشيج: كل شيئين مختلطين أو أكثر، والجمع: أمشاج، وسبق بيان معاني باقي المفردات.. والمراد: خلقنا جنس الإنسان من ماء الرجل الذي يقذفه في رحم المرأة (المني) الذي يمثل أخلاط من عناصر مختلفة متباينة الصفات والخصائص والقوى والطبائع والاستعدادات، وقيل في الأمشاج أقوال عديدة، منها:

- هي مجموع ماء الزوجين بعد التلقيح.
- الحيوان المنوي وهو الخلية التناسلية في الذكر.
- بوُيضة المرأة وهي الخلية التناسلية الأنثوية.
- والجينات التي هي الوحدات الوراثية الحاملة لصفات الجنس البشري وللصفات الموروثة من الوالدين والأجداد، وإليها يعزى سير النطفة في رحلتها الطويلة التكاملية لتكوين الجنين، وتساهم في بناء الشخصية وسلوك الإنسان بعد

---

(١) الإنسان: ٢- ٣.

الولادة حتى الموت.

- المواد التركيبية المختلفة للنطفة التي يتكون منها الجنين، لأنها تتركب من مواد عديدة مختلفة.

- وقيل: هي مجموع ذلك.

نبتليه: بلا: اختبر وجرب وامتحن، وابتلى الشيء: اختبره وجربه وعرفه، وتبلو النفس ما اسلفت: تنكشف لها حقيقة عملها وتجد نتيجته: خيرا وشرا.. والمراد: نريد اختباره بالتكاليف حين تأهله للتكليف، وذلك لنجازيه في يوم القيامة وفق ما يظهر من نتائج الامتحان، قول الله تعالى: ﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴾[1] أي جزاء موافقا لعملهم.

فجعلناه سميعا بصيرا: سبق بيان معاني المفردات.. والمراد: جعلناه بسبب الابتلاء أو من أجل الابتلاء ذا سمع وذا بصر أو ذا عقل وإدراك، ليبصر دلائل القدرة في الآيات التكوينية، ويسمع الآيات التنزيلية والحجج والمواعظ من الأنبياء والأوصياء والأولياء الصالحين عليهم السلام فتلزمه بذلك الحجة من الله تبارك وتعالى.

والإشارة إلى السمع والبصر باعتبارهما المصدران الأساسيان للمعرفة.

إنا هديناه السبيل: الهداية: إراءة الطريق، والسبيل: الطريق المؤدي إلى الغاية المطلوبة.. والمراد: أن الله تبارك وتعالى قد بين للإنسان أنواع الطرق المختلفة وما يترتب عليها من نتائج في الدنيا والآخرة، وأرشده إلى الطريق الصحيح الذي يجب عليه أن يسلكه في الحياة الدنيا من أجل أن يوصله إلى سعادته في الدارين: الدنيا والآخرة ويسوقه إلى كرامة القرب من الله ذي الجلال والإكرام والزلفى لديه، وذلك بواسطة الآيات التنزيلية والتكوينية، ونصب الأدلة القاطعة والبراهين الواضحة.

---

(١) النبأ: ٢٦.

إما شاكرا: الشكر: هو استعمال النعمة بإظهار كونها من منعمها.. والمراد: أن يكون الإنسان مقدرا لنعم الله تبارك وتعالى عليه مخلصا له، فيختار طريق الإيمان والهدى والطاعة فيصيب الحق والعدل والرشاد، ويكون مستحقا لرضا الله تبارك وتعالى ويحظى بثوابه.

وإما كفورا: الكفران: هو استعمال النعمة مع ستر كونها من منعمها.. والمراد: أن يكون الإنسان جاحدا لنعم الله تبارك وتعالى عليه، فيختار طريق الضلال والبغي والمعصية فيحيد عن الحق والعدل والرشاد، ويكون مستحقا لسخط الله عز وجل وعذابه.

يقول العلامة السيد قطب: « وعبر عن الهدى بالشكر، لأن الشكر أقرب خاطر يرد على قلب المهتدي، بعد إذ يعلم بأنه لم يكن شيئا مذكورا، فأراد ربه له أن يكون شيئا مذكورا، ووهب له السمع والبصر، وزوده بالقدرة على المعرفة »[١].

ويقول العلامة مكارم الشيرازي: « والحال أن الكفران جهاز بصيغة المبالغة فقال: ﴿ كَفُورًا﴾ [٢]. لأن سترهم لهذه النعم الكبيرة يعتبر كفرانا شديدا منهم باعتبار أن الله عز وجل وضع وسائل الهداية تحت تصرفهم، ولذا فإن ستر هذه الوسائل والمواهب والغض عنها واتخاذ السبيل المنافي لها يعتبر كفرانا شديدا »[٣].

مضامين الآية الشريفة المباركة

الآية الشريفة المباركة تتناول جانبا من تجهيز الإنسان بما يلزمه من

---

(١) الظلال. ج٦. ص٣٧٨٠.

(٢) الإنسان: ٣.

(٣) الأمثل. ج١٩. ص٢١٨.

الاستعدادات والقوى لتحقيق غاية وجوده، وقد أشارت إلى نقاط أساسية عديدة، منها:

النقطة (١): خلق الله تبارك وتعالى الإنسان في رحم أمه من اختلاط ماء الرجل بماء المرأة (التمازج بين الحيوان المنوي للرجل وبويضة المرأة) وقد اجتمعت في ذلك المزيج عناصر شتى مختلفة ومتباينة، فهي:

- تحمل الطبائع والصفات التي يرثها الإنسان عن آبائه وأجداده (الآباء والأمهات والأجداد والجدات) ويورثها بدوره إلى أبنائه وأحفاده، فتتوزع الطبائع والصفات بين الأبناء والأحفاد، على تفاوت بينهم في درجة القوة والضعف، والقلة والكثرة، والقرب والبعد، فكل إنسان يأخذ بعض الصفات من آبائه وأجداده، وبعضها من أعمامه وأخواله، وهكذا. بالإضافة إلى الطبائع والصفات المكتسبة من البيئة.

- وتحمل بصورة كامنة نوازع الخير والشر، والحلم والغضب، والحب والكراهية، والتكبر والتواضع، والرقة والقسوة، وغيرها من النوازع والتوجهات المتباينة لدى الإنسان.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: « معجونا (أي الإنسان) بطينة الألوان المختلفة، والأشباه المؤتلفة، والأضداد المتعادية، والاخلاط المتباينة »[1].

ممّا يؤدي إلى اختلاف طبائع الناس وتنوع أفكارهم ومشاربهم وتباين استعداداتهم وقدراتهم ومواهبهم وتوجهاتهم في الحياة، مما يسهم في بناء الحضارة الإنسانية الراقية والمميزة واستمرار تصحيحها وتطويرها، وهو الأساس للسير التكاملي: الفردي والمجتمعي في حياة الإنسان.

---

(١) النهج. الخطبة: ١.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾[1].

النقطة (٢): أن الإنسان لم يخلق عبثا ولا جزافا ولا تسلية ولا لعبا، وإنما خلق ليبتلى ويمتحن ويختبر، من أجل تخليصه مما لا يليق به من الصفات، والتفضل عليه بالكمال والسعادة الأبدية الخالدة، وتلك هي الغاية الإلهية الكريمة لوجوده في الحياة. وقد زوده الله تبارك وتعالى بما يلزمه من القوى والأدوات المادية والمعنوية للدخول في دورة الامتحان الإلهي العظيم وتحقيق غاية وجوده في الحياة:

- فخلق فيه نوازع الخير والشر والطباع والاتجاهات المختلفة المتباينة.

- وأعطاه السمع والبصر، والعقل والفطرة، والعشق والإلهام، وحرية الإرادة والاختيار، وغيرها.

- وأنزل إليه الشرائع السماوية التي تبين له الحق والباطل، والعدل والظلم، والخير والشر، والفضيلة والرذيلة، وتهديه السبيل التي تحقق غايته في الحياة ومقصده النهائي في الوجود.

فيرى آيات الله الدالة على الوحدانية والنبوة والمعاد، ويسمع كلمة الحق من الرسل المبعوثين من الرب الجليل رحمة للعالمين، فيسلك سبيل الحق والهداية، ويعمل الصالحات بحسن اختياره، فيكون أهلا للثواب الجزيل من عند الله تبارك وتعالى في يوم القيامة. وهذا يدل على أن الله تبارك وتعالى قد خلق الإنسان على أكمل وجه بحيث لا شيء فوق كمال الإنسان، مما يشعره:

- بالكرامة والمكانة العالية المتميزة: فقد جعله الله تبارك وتعالى أهلا

---

(١) الحجرات: ١٣.

للتكليف والخلافة الإلهية في الأرض.

- كما يشعره بالمسؤولية العظيمة الملقاة على عاتقه في الحياة.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[1].

فهو في فترة امتحان مصيري لا عودة عن نتائجه، وليس في فترة لعب ولهو وإهمال وتضييع، فيخرج من هذه التجربة:

- إما أبيض الوجه فرح بما آتاه الله تبارك وتعالى من فضله.

- وإما مسود الوجه مثقل الظهر بنتائج الابتلاء متعدد الوجوه والمستويات، ليجزى جزاء وفاقا لنتائج الابتلاء.

قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[2].

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾[3].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: « إن أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الذين يلونهم ثم الأمثل فالأمثل »[4].

النقطة (٣): أن الناس ينقسمون بطبيعة الحال إلى قسمين:

---

(١) الأحزاب: ٧٢.

(٢) آل عمران: ١٠٦ - ١٠٧.

(٣) الزلزلة: ٧ - ٨.

(٤) ميزان الحكمة.ج١ . ص٤٨٢.

- من يسلك طريق الهداية والرشاد، وهو طريق الحق والعدل والخير والصلاح، وذلك بالاستماع إلى نداء العقل والفطرة وبيانات الأنبياء والأوصياء والأولياء الصالحين عليهم السلام فيكون من الشاكرين لنعم الله تبارك وتعالى عليه، فيحظى بالقرب من الله ذي الجلال والإكرام ورضاه، ويكون مستحقا للثواب في دار الكرامة، فيدخل جنة الخلد والنعيم المقيم الذي لا يزول.

- ومن يسلك طريق الغي والضلال، وهو طريق الباطل والظلم والشر والفساد، وذلك بالإعراض عن نداء العقل والفطرة وبيانات الأنبياء والأوصياء والأولياء الصالحين عليهم السلام والاستماع إلى نداء الهوى ووساوس الشيطان الرجيم، والخضوع إلى نوازع الذات والشهوة، فيكون من الجاحدين لنعم الله تبارك وتعالى عليه المكذبين لرسله، فيحظى بالبعد من الله عز وجل ويبوء بغضبه وسخطه، ويكون مستحقا لعقابه، فيدخل النار دار البوار والهلاك والإهانة.

نتائج مهمة

ونتوصل مما سبق إلى النتائج المهمة التالية:

النتيجة (١): أن خلق الإنسان من نطفة، وانتقاله من طور إلى طور حتى يصبح إنسانا كاملا، وحمله لتلك الطبائع والخصائص والصفات والاستعدادات التي يرثها من آبائه وأجداده، وتزويده بالأدوات التي تلزمه للحياة الحرة الكريمة على وجه الأرض والسير الحثيث إلى غاية وجوده:

- تدل بحكم العقل والفطرة وبدون شك - على عظمة الخالق وقدرته وحكمته وكرمه تبارك وتعالى، حيث جعل النطفة الحقيرة إنسانا يحمل كل تلك الصفات والخصائص والاستعدادات والملكات والمواهب والقدرات.

- وأنها تدخل في دائرة التدبير الربوبي الذي يوصل الإنسان إلى كماله

وتحقيق غاية وجوده، حيث يرى آيات الله جل جلاله الدالة على المبدأ والمعاد، قول الله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[1] ويسمع كلمة الحق والمواعظ من الرسل والأوصياء والأولياء الصالحين عليهم السلام فيدعوه ذلك إلى سلوك طريق الحق والعمل الصالح، لينتهي به المطاف إلى النعيم الأبدي الخالد في الجنة.

- وتعتبر كلها حججا بالغة لله جل جلاله على الإنسان.

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[2].

النتيجة (٢): يعتبر العقل المدرك للكليات، وحرية الإرادة والاختيار لدى الإنسان، واختلاف المشاعر: الحب والبغض، واختلاف الطبائع: الطمع والقناعة، والتكبر والتواضع، وصراع العقل والشهوة، وغيرها:

- الأساس الذي يقوم عليه الامتحان الإلهي للإنسان في الحياة، وتقرير مصيره في الآخرة: إما الهداية والعمل الصالح والنتيجة هي الجنة والنعيم المقيم، وإما الضلال والعمل السيء والنتيجة هي النار والعذاب الأليم، فلم يجعل الناس على طريقة واحدة: كلهم للهداية والخير أو كلهم للضلال والشر، ولو شاء لجعلهم كذلك، ولكنه جعلهم مختلفين، ولأجل هذا الاختلاف خلقهم، فهذه ميزة الإنسان الوجودية التي يمتاز بها على جميع الكائنات في الوجود، وبها استحق أن يكون خليفة الله ذي الجلال والإكرام في الأرض من بين جميع الكائنات.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ

---

(١) فصلت: ٥٣.

(٢) الأنعام: ١٤٩.

أَجْمَعِينَ ﴾[1].

- وفي نفس الوقت تشكل الأساس لبناء الحضارات الإنسانية المتنوعة على وجه الأرض وعمارة الكون. ولا شك فإن بعض الحضارات يسلك طريق الهدى، وبعضها يسلك طريق الضلال، وتعتبر كل حضارة معين للإنسان لكي يسلك الطريق الذي تنتهجه تلك الحضارة، ومعيق في وجه الطريق الآخر، مما يحدد موقف الإنسان المبدئي (الفكري أو الايديولوجي) من كل حضارة، وهو موقف يختلف عن الموقفين: الحقوقي والسياسي والاجتماعي، وسوف أشرح الفرق بين المواقف الثلاثة على هدى القرآن الكريم في المكان المناسب من هذا البحث إن شاء الله تعالى.

النتيجة (٣): يوجد طريقان متمايزان في الحياة تمايزا واقعيا، وهما:

- طريق الهدى: طريق الحق والعدل والخير والفضيلة.

- وطريق الضلال: طريق الباطل والظلم والشر والرذيلة.

وأن الإنسان السوي يدرك بعقله وفطرته وبواسطة تعاليم الأنبياء والأوصياء عليهم السلام الفرق بين الطريقين، ويملك حرية الإرادة والاختيار لسلوك أحدهما، وهذا ما يميز الإنسان عن الحيوان.. وعليه: فإن الثمرة الطيبة للعقل وحرية الإرادة والاختيار تتمثل في سلوك طريق الهدى: طريق الحق والعدل والخير والفضيلة، مما يحفظ جوهر الحياة الإنسانية الكريمة وكمالها، بينما سلوك طريق الضلال: (طريق الباطل والظلم والشر والرذيلة) يهبط بالإنسان قطعا إلى درجة أسوء من البهائم.

قال الله تعالى: ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾[2].

---

(١) هود:١١٨- ١١٩.

(٢) الفرقان: ٤٤.

يقول العلامة السيد الطباطبائي: « فإن سعادة كل موجود وكماله في الآثار والأعمال التي تناسب ذاته وتلائمها بما جهزت به من القوى والأدوات، فسعادة الإنسان وكماله في أتباع الدين الإلهي الذي هو سنة الحياة الفطرية، وقد حكم به العقل وجاءت به الأنبياء والرسل عليهم السلام »[1].

النتيجة (٤): أن السبيل المهدي إليه بواسطة الآيات التكوينية والتنزيلية هو سبيل اختياري، وأن الشكر والكفر اللذين يترتبان على الهداية هما في دائرة الاختيار، فبوسع الإنسان أن يختار أحدهما دون الآخر من غير إكراه تكويني يمنعه، قول الله تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾[2] وأن الإنسان يتلقى تنبيهات عقلية ووجدانية واقعية عن طريق الأنبياء والأوصياء والأولياء الصالحين، تتوافق مع كرامة الإنسان، ولا تلغي حريته في الاختيار بأي حال من الأحوال، قول الله تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ﴾[3] وفي نفس الوقت تضعه وجهها لوجه مع مصيره الوجودي في الآخرة، الذي يترتب على سلوك طريقي الهداية والضلال في هذه الحياة، وهذا يشكل ضغطا معنويا على الإنسان يدفعه لسلوك طريق الهدى، ولكنه ضغط لا يتنافى مع كرامة الإنسان ولا يلغي حريته، وهو ينسجم مع وجدان الإنسان وفطرته، ويؤدي به إلى كماله وسعادته الحقيقية في الدنيا والآخرة، وسوف أبحث هذا الموضوع بالتفصيل حينما يأتي دور البحث في الغاية من خلق الإنسان.

النتيجة (٥): تنقسم الهداية إلى قسمين:

- هداية فطرية عن طريق العقل والفطرة والإلهام والعشق لطي هذا

---

(١) الميزان. ج٢٠. ص١٢٤.

(٢) الإنسان:٣.

(٣) البقرة:٢٥٦.

الطريق الشائك، قول الله تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾[1].

- هداية قولية عن طريق الأنبياء والأوصياء عليهم السلام وإنزال الكتب.

وتعتبر الهداية الفطرية عامة لكل الناس، غير أنها قد تضعف أو يلغى أثرها بسبب تأثيرات البيئة المنحرفة والصفات المكتسبة كالعناد، ومن هنا تأتي أهمية الهداية القولية التي تقوم بتحريك دفائن العقول ومكنونات الضمائر، وتوضح الطريق السوي وترشد الناس إليه، فمن بلغته الدعوة، فقد تمت عليه الحجة.

قول الله تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[2].

ومن لم تبلغه الدعوة فهو في عداد المستضعفين الذين هم في معرض الرحمة الإلهية الواسعة، حيث يشملهم الله تبارك وتعالى بفضله وإحسانه.

قول الله تعالى: ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾[3].

وهذا يحمل الدليل أيضا على أهمية العمل والمعرفة والصدق والإخلاص في تحقق الهداية الفعلية.

النتيجة (٦): لا يوجد فاصل حاسم بين طريقي: الهدى والضلال، فمن يسلك طريق الهدى قد يحمل بعض صفات وطبائع أهل البغي والضلال ويسلك سلوكهم ويتخذ بعض مواقفهم في الحياة.

---

(١) الشمس:٧- ٨.

(٢) النساء: ١٦٥.

(٣) الإسراء: ١٥.

قول الله تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾[1].

ولهذا فالإيمان درجات، وقد وعد الله تبارك وتعالى المؤمنين بأن يغفر لهم صغائر الذنوب ويسامحهم عليها إن هم تجنبوا كبائر الذنوب.

قول الله تعالى: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾[2].

وقول الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾[3].

---

(١) يوسف: ١٠٦.

(٢) النساء: ٣١.

(٣) النجم: ٣١ - ٣٢.

المبحث (٤): الطابع الاجتماعي للإنسان

مما جهز الله تبارك وتعالى به الإنسان للقيام بوظيفته في الحياة وتحقيق غاية وجوده، الطابع الاجتماعي الذي فطر عليه، ولايمكنه تحقيق غاية وجوده بدونه.

قال الله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[١].

وقال الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَـٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾[٢].

وقال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾[٣].

وقال الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾[٤].

وقال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ

---

(١) الروم: ٢١.

(٢) النحل: ٧٢.

(٣) النساء: ١.

(٤) الفرقان: ٥٤.

لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾[1].

بيان المفردات

خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا إليها: سبق بيان معاني المفردات.. والمراد: خلق لأجل منفعتكم وبقاء نسلكم وتحقيق غاية وجودكم من جنسكم لا من جنس أدنى ولا أرفع وعلى شكلكم قرائن تبادلكم العواطف والمشاعر والهموم والمسؤوليات، لتألفواها وتميلوا إليها وتأنسوا وتطمئنوا بها، ويحصل بينكم التعاون والمشاركة في الحياة من جميع الجهات، والسعي في قضاء الحوائج وإقامة المصالح ودفع المكاره وبناء الأسرة على طريق بناء الحضارة الإنسانية المتميزة، فإن المجانسة من دواعي التضام والتعارف، والمخالفة من أسباب التفرق والتنافر.

يقول العلامة السيد الطباطبائي: « وذلك أن كل واحد من الرجل والمرأة مجهز بجهاز التناسل تجهيزا يتم فعله بمقارنة الآخر ويتم بمجموعهما أمر التوالد والتناسل فكل واحد منهما ناقص في نفسه مفتقر إلى الآخر ويحصل من المجموع واحد تام له أن يلد وينسل، ولهذا النقص والافتقار يتحرك الواحد منهما إلى الآخر حتى إذا اتصل به سكن إليه لأن كل ناقص مشتاق إلى كماله وكل مفتقر مائل إلى ما يزيل فقره وهذا هو الشبق المودع في كل من هذين القرينين »[2].

ويقول العلامة محمد جواد مغنية: « ولو كانت الزوجة من غير جنس الزوج لتعذر التفاهم والمشاركة ولنظر كل إلى الآخر على أنه غريب وبعيد عن طبعه وأخلاقه »[3].

---

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) الميزان. ج١٦ . ص١٦٦.

(٣) الكاشف.ج٦ .ص١٣٦.

وجعل بينكم مودة ورحمة: المودة: هي الحب الظاهر أثره في مقام العمل، والرحمة: تأثر نفسي ناتج عن مشاهدة حرمان المحروم عن الكمال وحاجته إلى رفع نقيصته، مما يدعو الراحم إلى التحرك لرفع نقصه وإنجائه من الحرمان.. والمراد: أن الله تبارك وتعالى الذي خلق الإنسان للحياة الاجتماعية وللدنيا والآخرة، قد:

- جعل بين الأزواج بعصمة الزواج محبة وتعطفا ورقة وحنانا، حتى مع عدم سابق المعرفة، لتكون سببا لاستمرار الرابطة الأسرية، وحرص أفرادها على حفظ مصالح بعضهم البعض وتحركهم لإسعاد بعضهم البعض، مما يجعل المسألة فوق المصالح المادية، وتتعدى مجرد العلاقة الجنسية، إلى الجوانب الروحية والشعورية ذات الجذور العميقة في فطرة الإنسان، وذات الآفاق البعيدة الرحبة: الروحية والاجتماعية في وجوده.

- كما جعل في قلب كل إنسان مثل هذه العواطف الإنسانية النبيلة تجاه أخيه الإنسان، حيث أن العيش المشترك، والتعارف والتعاون بين أفراد النوع يتوقف على ذلك، ولولاه: لانقطع النسل واضطربت الحياة الاجتماعية للإنسان ولم يعيش النوع.

وقد أثبتت التجارب: حاجة الرابطة الأسرية والعلاقات بين جميع الناس إلى هذه العواطف القلبية لكي تستمر وتسير في الطريق الصحيح وتوتي ثمارها الطيبة.

حفدة: جمع حافد أو حفيد، وهو المسارع في الخدمة والطاعة دون انتظار أجر أو جزاء، ويطلق على الأعوان والخدم واختان الرجل (أزواج بناته) وأولاد الأبناء والبنات، وذلك لصدقهم ومسارعتهم في طاعة وخدمة الأجداد والجدات. ويطلق لفظ السبط أيضا على أولاد الأبناء والبنات، إلا أن لفظ الفيد غلب على ابن الولد، ولفظ السبط على ابن البنت، وقيل: الأحفاد هم الأبناء الكبار القادرين على الخدمة. ويمثل الأبناء والأحفاد الامتداد الطبيعي للإنسان الفرد في الحياة، وسببا

لاستمرار النوع الإنساني في البقاء، وذكرهم يلامس أعمق الشعور لدى الإنسان، ويحرك وجدانه إيجابيا نحو الحياة.

خلقكم من نفس واحدة: النفس: عين الشيء، ونفس الإنسان: ما يكون به الإنسان إنسان (أي مجموع روح الإنسان وجسمه) والمراد بالنفس الواحدة: النفس الإنسانية المشتركة بين الذكر والأنثى، وقيل: النفس الواحدة: هو آدم عليه السلام.

زوجها: الزوج: يطلق على كل واحد معه آخر من جنسه، سواء كان إنسانا أو حيوانا أوجمادا كالنعل والخف، ويطلق على الذكر والأنثى، فالمرأة المتزوجة زوج، والرجل المتزوج زوج.

وبث منهما رجالا كثيرا ونساء: بث: نشر وفرق.. والمراد: نشر وفرق منهما (آدم وحواء عليهما السلام) بطريق التوالد والتناسل أفراد البشر: رجالا ونساء.

تساءلون به: يسأل بعضكم بعضا بأن يقول: سألتك بالله أن تفعل كذا وكذا.

والأرحام: جمع رحم، وهي القرابة من جهة الأب أو الأم، وذوو الأرحام: الأقارب، والأصل هو رحم المرأة (مستودع الجنين في أحشاء الأم) ثم استعير للقرابة لكون الأقرباء مشتركين في الخروج من رحم واحد.

في الحديث القدسي: « أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته »[1].

رقيبا: الرقيب أصله من الترقب وهو الانتظار من مكان مرتفع، ثم استعمل بمعنى الحافظ والحارس، وهي صيغة مبالغة.. والمراد: حافظا يحفظ أعمالكم ويراقبها ويرصدها، مطلعا على جميع ما يصدر عنكم من أقوال وأفعال وما تضمرنه من النيات في داخل أنفسكم، قول الله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى

(١) معجم الألفاظ والأعلام القرآنية. محمد اسماعيل إبراهيم.

ٱلصُّدُورُ ﴾[1]. مريدا لمجازاتكم على ما تعتقدون وما تعملون في يوم القيامة.

بشرا: الإنسان ذكرا أو أنثى، واحدا أو جمعا.

نسبا وصهرا: النسب: القرابة من جهة الذكور أو بالتوالد، مثل: ارتباط الأب والابن أو الأخوة، والصهر: النسب من جهة الإناث أو بالمصاهرة، مثل: ارتباط الإنسان مع أقرباء زوجته، واشتقاق الصهر من صهرت الشيء إذا خلطته، وسميت التزاوج صهرا لاختلاط الناس بها.

شعوبا وقبائل: الشعب: الجماعة الكبيرة من الناس التي لها وطن خاص (منطقة جغرافية) تنتسب إليه، والقبيلة: الجماعة من الناس تنتسب إلى العرق والدم، فالشعب أوسع من القبيلة، فهو يضم قبائل عديدة، والقبيلة قد تتفرق في أكثر من وطن.

مضامين الآيات الشريفة المباركة

تتضمن الآيات الشريفة المباركة الإشارة إلى حقائق أساسية عديدة تتعلق بالطبع الاجتماعي للإنسان، منها:

الحقيقة (١): أن الناس جميعا خلقوا من أصل واحد، وتجمعهم حقيقة إنسانية واحدة، ويشتركون في الطباع العامة والغرائز، من غير اختلاف في جوهرها بين الرجل والمرأة، ولا بين أبيض وأسود، ولا بين عربي وأعجمي.

ويعتبر التمييز العنصري بين البشر، والتفاخر والتباهي بالأنساب والأحساب، داء قديم قد هدد الوحدة البشرية وأضر بها، وكان سببا للتدابر

---

(١) غافر:١٩.

والتخاصم والتقاطع والتناحر، وجر على البشرية الويلات والفتن والحروب، بدلا من إثراء الحضارة البشرية والتقدم بها.

وقد عالج القرآن الكريم هذا الداء - فكريا - بواقعية وحكمة بالغة استنادا إلى موازين أصيلة واقعية وأصول محكمة، من خلال:

- التركيز على وحدة الرب الذي خلق الناس جميعا من أصل واحد، قول الله تعالى: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾[1] فكل إنسان بما هو إنسان يساوي الآخر في حقيقة النوع الإنساني، لا اختلاف بينهم ولا فضل لأحدهم على غيره.

- والتأكيد على أن الاختلاف في القابليات والاستعدادات والمواهب والقدرات، راجع إلى الجعل الإلهي، من أجل التعارف والتعاون والتكامل في سد الحاجات، ليقوم الاجتماع الإنساني وتتقدم الحضارة الإنسانية المتميزة، وليس لكرامة بعضهم على بعض.

- الدعوة إلى العدل والمحبة والتعاون على الخير والصلاح، وتقوية الروابط الأخوية بين البشر، وحفظ الحقوق المتبادلة، وتحطيم الفروق والطبقات، حيث أنهم جميعا أقرباء وأرحام.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[2].

- اعتماد التفاضل بين الناس على ميزان القيم الروحية والمعنوية العامة غير القابلة للاحتكار، والمكتسبة بالعمل والجهاد الشخصي، مثل: العلم والتقوى، قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[3] والتي تعد سببا لتكامل النفوس

---

(١) النساء:١.

(٢) النحل: ٩٠.

(٣) الحجرات: ١٣.

البشرية، وتصب في خدمة الوحدة الانسانية وتقدمها وسعادتها الحقيقية في الدنيا والآخرة، وهو ميزان واقعي أصيل وعادل. فمن رغب في نيل الدرجات العلا: من الأفراد والشعوب والأمم، فعليه بالعلم والتقوى والعمل الصالح، والاحتراز من التفاضل على أساس العنصر أو الجنس أو اللون أو اللغة أو القبيلة أو الطبقة أو الجمال الحسي أو الأولاد أو الرئاسة وانتشار الصيت أو الاستكبار أو غيرها من مزايا الحياة المادية والمعايير الوهمية الباطلة التي تؤدي إلى الفساد وهلاك النوع وشقائه في الدنيا والآخرة.

- التنبيه إلى أن الأصل المشترك الذي يربطهم يستدعي وحدة الطريق والمصير، مما يعمق لديهم الشعور بالمسؤولية بصورة أكبر.

الحقيقة (٢): أن الأسرة هي القاعدة الأولى للحياة الاجتماعية البشرية، وتعتبر الأسرة الصالحة هي الأساس للمجتمع الصالح، فلا يصلح المجتمع ما لم تبنى الأسر على أسس كريمة، وتدار بشكل صحيح، وتصان من الفساد، وعليه:

- يجب تثبيت بنيانها على أسس شرعية كريمة.

- وتوثيق عراها بالمودة والرحمة، وحفظ الحقوق بين أفرادها، وحسن التقدير للظروف الخاصة، والتفهم للأخطاء التي قد تحدث بين الحين والآخر، والتعاون بين أفرادها على ما فيه خير جميع أعضائها، والتشاور بينهم في إدارة شؤونها.

- وحمايتها من جميع المؤثرات السلبية، مثل: الزنا والغلظة والاستبداد وجعل الرجل والمرأة متماثلين بدلا من كونهما متكاملين.

- التربية الصالحة للأبناء ليكونوا بحق وحقيقة خلفاء الله جل جلاله في الأرض وسعداء خلقه برضاه والجنة.

فهي بنيان إنساني كريم يخدم استمرار بقاء النوع في الحياة وإسعاده

وتحقيق أهداف خلافته في الأرض، وليست مجرد إشباع حيواني للغريزة الجنسية، وهي فوق المصالح المادية.

يقول العلامة محمد جواد مغنية: « حدد الله سبحانه وتعالى عقد الزواج بالفاظ ذكرها في كتابه العزيز، وأوجب الوقوف عندها، والتعبد بها تماما كألفاظ العبادة، وأضفى على عقد الزواج من القداسة ما أبعده عن كل العقود، كعقد البيع والاجارة، وما إليهما، لأن البيع مبادلة مال بمال، أما الزواج فمبادلة روح بروح، وعقده عقد رحمة ومودة، لا عقد تمليك للجسم بدلا عن المال، قال الفقهاء: إن عقد الزواج أقرب إلى العبادات منه إلى عقود المعاملات والمعاوضات، ومن أجل هذا يجرونه على اسم الله، وسنة رسول الله ﷺ »[1].

الحقيقة (٣): التذكير بأهمية القرابة والتنوع بين الحضارات من أجل المساهمة في صلاح الإنسان وتكامله وسعادته وبلوغ غاية وجوده، والاستفادة من التمايز والتنوع بين الأفراد والشعوب والأمم في الخصوصيات: العرقية واللغوية والجغرافية وفي القدرات والمواهب والامكانيات المادية والمعنوية في تكريس التعارف والتعاطف والتعاون والتبادل العلمي والمعرفي والحضاري والتكامل في سد الحاجات في صيغة إنسانية هادفة تحتضن تنوع البشر وتمايزهم، من أجل إغناء التجربة الإنسانية وتحقيق الرفاه والتقدم والرقي بالحضارة الإنسانية من أجل الوصول إلى الكمال الإنساني وتحقيق السعادة الحقيقية للإنسان: (الفرد والمجتمع) في الدنيا والاخرة.

وهذه دعوة قرآنية إلى وحدة إنسانية عالمية، تقوم على أساس الحق والعدل والخير والمحبة والانفتاح.

يقول العلامة الشيخ محمد جواد مغنية: « وهذا العالم (الإنساني) أمل

---

(١) الكاشف.ج٢. ص٢٨٣.

الصفوة من المفكرين وحلم المصلحين، وفي يقيننا أن الاعتراف بحقوق الإنسان سيظل حبرا على ورق ومجرد نظرية إذا لم تتحقق الوحدة الإنسانية الشاملة التي دعا إليها القرآن الكريم »[١].

ويقول العلامة السيد قطب: « المجتمع الإنساني العالمي، الذي تحاول البشرية في خيالها المحلق أن تحقق لونا من ألوانه فتخفق، لأنها لا تسلك إليه الطريق الواحد الواصل المستقيم.. الطريق إلى الله.. ولأنها لا تقف تحت الراية الواحدة المجمعة.. راية الله »[٢].

أقول: بأن الإسلام الحنيف لم يكتفي بالدعوة إلى الوحدة الإنسانية وإقامة المجتمع الإنساني العالمي، وإنما عمل من أجلهما استنادا إلى موازين أصيلة واقعية وأصول محكمة، واعتبر تحققهما من الحتميات التاريخية التي سوف تنتهي إليها المسيرة البشرية في نهاية المطاف، وسوف يتحققا في آخر الزمان على يد المهدي الموعود من ولد الرسول الأعظم الأكرم ﷺ.

الحقيقة (٣): أن مقومات الحياة الاجتماعية التي جهز الله تبارك وتعالى بها الإنسان تعتبر من دلائل القدرة القاهرة، والحكمة البالغة، ومن أعظم النعم الباهرة التي أنعم الله تبارك وتعالى بها على الإنسان وأجلاها، التي توجب الطاعة لواهبها سبحانه وتعالى، لكونها الأساس التكويني:

- لبناء المجتمع وحراكه وتطوره.
- ولتحقيق الرقي الفكري والروحي للإنسان.
- وتيسر للإنسان الظفر بالسعادة في الدنيا والآخرة.

---

(١) الكاشف. ج٧. ص١٢٤.

(٢) الظلال. ج٦. ص٣٣٤٨ – ٣٣٤٩.

يقول العلامة السيد الطباطبائي: « لأنهم إذا تفكروا في الأصول التكوينية التي يبعث الإنسان إلى عقد المجتمع من الذكورة والانوثة الداعيتين إلى الاجتماع المنزلي والمودة والرحمة الباعثين على الاجتماع المدني ثم ما يترتب على هذا الاجتماع من بقاء النوع واستكمال الإنسان في حياته الدنيا والآخرة عثروا من عجائب الآيات الإلهية في تدبير أمر هذا النوع على ما يبهر به عقولهم وتدهش به أحلامهم »[1].

وقد دلت التجارب - وهذا ما يحكم به العقل السليم - أنه لا يمكن حفظ النظام في المجتمعات الإنسانية وصيانة الحقوق وإقامة المجتمعات الصالحة بعيدا عن التقوى والطاعة لله تبارك وتعالى.

نتائج مهمة

ونتوصل مما سبق إلى النتائج المهمة التالية:

النتيجة (١): لا فرق بين الرجل والمرأة في الحقيقة الإنسانية، وإنما الفارق بينهما في الاستعداد والوظيفة، وأنهما زوجان متكاملان، وليسا فردين متماثلين.

النتيجة (٢): ضرورة المحافظة على العدل والمساواة والتعاون على البر والتوزيع العادل للثروة وحفظ الحقوق - لاسيما الحقوق العامة والحقوق العائلية وحقوق الضعفاء - وحماية الأسرة من التفكك والضياع، ونبذ الفرقة والظلم والتمييز بين البشر، والحذر من استئثار فئة قليلة بالثروة ومن الاعتداء على حقوق الآخرين وتضييعها، فإن نتائج ذلك سيئة ووخيمة في الدنيا والاخرة.

قال الله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى

---

(١) الميزان. ج١٦. ص١٦٧.

عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾[1].

النتيجة (٣): ضرورة صلة الأرحام بالمودة والاحسان والاحتراز من الاخلال بحقوق الأخوة والقرابة.

قال الله تعالى في الحديث القدسي: « صلوا أرحامكم فإنه أبقى لكم في الحياة الدنيا وخير لكم في آخرتكم »[2].

وضرورة التواصل بين الحضارات وتبادل الخبرات بينها، وتبادل المصالح بين الدول على أساس العدل والمساواة وبما يخدم مصالح البشرية مجتمعة، والتأكيد على أصالة العلاقات الإنسانية، والعمل على تعميقها وامتدادها، والتأصيل الفكري والروحي والأخلاقي والعملي لها، لكي لا تخضع للأوضاع السلبية الطارئة، والقرارات الذاتية والأمزجة الفردية، والمصالح الخاصة على حساب المصالح الإنسانية العامة، والسعي لوقاية الوحدة الإنسانية من الفساد والتدهور والسقوط، فإن ذلك أبقى للحياة وأسلم، وهو الطريق إلى الأمن والسعادة والرفاه العالمي، والاحتراز من الصراعات العنصرية والحروب الظالمة التي تجر البلايا والمصائب على المجتمعات الإنسانية والدول، والاحتراز من الأمجاد الكاذبة والتفوق الموهوم لعنصر بشري على آخر، والاحتراز من تدهور العلاقات الإنسانية ومن احتكار العلم والمعرفة وحجبها عن الشعوب بهدف فرض التبعية وإحكام السيطرة عليهم والاستئثار بثرواتهم ظلما وعدوانا.

النتيجة (٤): ضرورة وجود القوانين العادلة التي تنظم العلاقات الإنسانية: الأسرية والوطنية والخارجية، بما يضمن أمن الإنسان وسلامته وإزدهاره وتسهيل حياته، ويحفظ حقوقه، ويساعده على تحقيق سعادتهم والانتهاء السليم إلى

---

(١) لقمان: ١٤.

(٢) الميزان. ج٤. ص١٤٧.

غاية وجوده.

النتيجة (٥): أن القوانين التي تنظم حياة الإنسان يجب أن تقوم على أساس السير في الخط المستقيم والارتباط بالله ذي الجلال والإكرام، لأنه القوة التي خلقتهم، والقوة التي تجمع بينهم، والقوة التي إليها معادهم في الآخرة.

يقول العلامة السيد الطباطبائي: « أن من الواجب على الناس أن يتبعوا في غايات الحياة أمر ربهم ويختاروا ما يختاره ويهدي إليه وقد اختار لهم التقوى كما أن من الواجب عليهم أن يختاروا من سنن الحياة ما يختاره لهم من الدين »[١].

وقد سبق البحث بالتفصيل في الماهية الاجتماعية للإنسان في الباب السادس، وأبعاد الحياة الاجتماعية في الباب السابع.

---

(١) الميزان. ج١٨. ص٣٢٨.

البحث (٥): مقوّمات المجتمع الإسلامي

قول الله تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾ (١).

---

(١) الإسراء: ٢٣ – ٣٩.

وقول الله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾(١).

بيان المفردات

وقضى ربك: القضاء: الحكم والفصل والأداء، والجمع: أقضية، وقضى الشيء: قدره وصنعه بإحكام، وقضى حاجته: نالها وبلغها وفرغ منها، وقضى عليه: قتله، وقضى أجله: بلغ أجله الذي حدد له، وقضى نحبه: مات، والقاضية: الموت، وقضى دينه: أداه، وقضي الأمر: نفذ فيه القضاء، وانقضى الشيء: فني وانقطع، والقاضي: القاطع للأمور المحكم لها، والذي ينظر في الخصومات والدعاوى ويصدر الأحكام التي يرها طبقا للقانون، والجمع: قضاة، والقضية: مسألة يتنازع فيها وتعرض على القضاء للنظر والفصل، والقضية في المنطق: قول مكون من موضوع ومحمول يحتمل الصدق والكذب لذاته، ويصح أن يكون موضوعا للبرهنة، وكلمة "قضى" في الآية الشريفة تتعلق بالقضاء التشريعي المتعلق بالأحكام والقضايا التشريعية، ولها مفهوم أمري أكثر من كلمة أمر، وهي تعني: القرار والأمر المولوي المحكم والقاطع الذي لا نقاش فيه، والرب: المالك والسيد والمصلح والقيم والمدبر والمربي والمنعم، والجمع: أرباب وربوب، وهو اسم من أسماء الله الحسنى، ولا يقال في غيره إلا بالإضافة، مثل: رب الأسرة، والنسبة إليه: رباني، والرباني: الذي يعبد الرب والعالم الكامل المتأله العارف بالله ذي الجلال والإكرام، وشديد التمسك بدينه الحنيف، والربيون: الجماعات الكثيرة، ورب الناس: مربيهم ومصلحهم.. والمراد: أن الله تبارك وتعالى أمر على ألسنة أنبيائه عليهم السلام أمرا تكليفيا

---

(١) آل عمران: ١٥٩.

واجبا جازما لا نقص فيه ولا رجوع عنه.

وبالوالدين إحسانا: الوالدين: الأب والأم، والولد: كل ما ولد، والجمع: أولاد، والحسن: الجمال وضد القبح، والجمع: محاسن، والإحسان: الإتقان والإخلاص في العمل وأداء الواجبات ويقابل الإساءة، والمحسن: فاعل الإحسان والمتقن لعمله والمتصدق، وأحسن إلى الناس: أسدى إليهم المعروف وعاملهم بإحسان.. والمراد: الأمر ببر الوالدين والإحسان إليهما إحسانا كاملا في المعاملة.

إما يبلغن عندك الكبر: إما: إن، وبلغ: وصل وشارف، وبلغ الغلام: أدرك مبلغ الرجال، وبلغ أشده: قوي ونضج عقله، وبلغ الشجر: حان إدراك ثمره، وبلغ الأمر: وصل إلى نهايته، والمبلغ: المنتهى، ومبلغ علمه: نهاية علمه، والتبليغ: الايصال، والحجة البالغة: الدليل الذي يصل إلى درجة الاقناع، وشيء بالغ: جيد، والبليغ: الفصيح المعبر عن المقصود، والجمع: بلغاء، والبلاغات: الوشايات، والبلغة: ما يتبلغ به من المعيشة، وما يكفي لسد الحاجة ولا يفضل عنها، وتبلغ: اكتفى، وعند: حضور الشيء ودنوه، وهي ظرف مكان وزمان، مثل: عند المسجد، وعند الفجر، وهذا عندي أفضل: أي أفضل في حكمي أو ظني أو علمي، وكبر: طعن في السن وعظم، والجمع: كبار وكبراء، وأكبر الشيء: استعظمه، وكبر الأمر: شق وثقل وعظم، والأكابر: العظماء والوجهاء والأشراف، وكابرا عن كابر: كبيرا عن كبير في المجد والعز والشرف، والتكبير: التعظيم، والتكبر: التعظم والامتناع عن قبول الحق معاندة، والكبرياء: التجبر والترفع عن الانتقياد، والكبيرة: الإثم الكبير المنهي عنه شرعا، والجمع: كبائر، والكُبر: البلايا والدواهي، والكبير: من أسماء الله الحسنى، ومعناه: العظيم ذو الكبرياء، والمتكبر: كذلك، ومعناه: المتعالى عن صفات الخلق.. والمراد: إن طعن في السن عندك أحد الوالدين أو كلاهما، وكلمة " عندك " تصور لنا معنى الالتجاء والاحتماء في حالة الكبر والضعف.

فلا تقل لهما أف: لا: لطلب الترك وتسمى الناهية، وتدخل على الفعل المضارع

وتقتضي جزمه واستقباله، وأف: كلمة تضجر وكراهية وتبرم، وأف وتأفف: تضجر أو قال أف، والأفة: القذر الذي يتأفف منه، واليأفوف: الجبان الطائش والمر من الطعام، والجمع: يآفيف.. والمراد: لا تضجر منهما، ولا يصدر عنك نحوهما ما يدل على الإهانة وسوء الأدب.

قال الإمام الصادق عليه السلام: « أدنى العقوق أف ولو علم الله شيئا أهون منه لنهى عنه »[1].

ولا تنهرهما: النهر: هو الزجر بالصياح ورفع الصوت والاغلاظ في القول.. والمراد: لا تزجرهما عما لا يعجبك بغلظة في القول أو الفعل. والنهي عن الضجر والزجر هو أول مرتبة من مراتب الرعاية والأدب مع الوالدين.

وقل لهما قولا كريما: القول: الكلام أو الرأي أو المعتقد، والجمع: أقوال وأقاويل، وقال: تكلم أو خاطب فهو قائل، والجمع: قول، وقال عليه: افترى، واقتال عليه: تحكم، وتقول: اختلق قولا كذبا، وقال عنه: أخبر عنه، وقال فيه: اجتهد، وقال به: رآه رأيا، ومقوال: كثير القول، وقاوله: فاوضه في أمر من الأمور، والكرم: الجود والعطاء بسخاء وضد اللؤم، والكريم: الصفوح وصفة لكل ما يُرضى ويُحمد في بابه، وهو اسم من أسماء الله الحسنى، ومعناه: كثير الخير والجواد المعطي الذي لا ينفذ عطاؤه، والصفوح عن الزلات، والجمع: كرام وكرماء، والكريمة: مؤنث الكريم، والجمع: كرائم وكريمات، وكرم الشيء: عز ونفس، وأكرم زيدا: فضله وأعظمه، والإكرام: الانعام والإحسان والإعطاء بسخاء، والإكرامية: العطية، والأكرومة: الفعلة الكريمة، والتكرمة: ما يعد لإكرام الشخص من موضع خاص وغيره، والكرامة: الأمر الخارق للعادة غير المقرون بالتحدي ودعوى السفارة عن الله عز وجل، يظهره الله على أيدي أوليائه الصالحين.. والمراد: قل لهما بدل التأفف والنهر، قولا حسنا جميلا لينا يدل على الحب والعطف والاحترام والتقدير

---

(١) مجمع البيان. ج٦ . ص٥٢٩.

ويخلو من الشراسة والغلظة، وهذا مما تقتضيه الرعاية الواجبة لهما وحسن الأدب معهما، ويستدعيه النزول على المروءة والاعتراف بالجميل وحسن الخلق.

واخفض لهم جناح الذل من الرحمة: الخفض: الدعة، وخفض الصوت: غضه، وخفض الأمر: تهوينه، والانخفاض: الانحطاط، والله يخفض من يشاء: يضعه، والجناح: ما يطير به الطائر ونحوه، والجمع: أجنحة، وفي جناح زيد: في كنفه ورعايته، وعلى جناح سفر: يريد السفر، وركب جناحي طائر: فارق وطنه، وركب جناحي نعامة: جد في الأمر واحتفل به، وفي جناحي طائر: قلقا دهشا، وخفض الجناح: إلانة الجانب من خفض الطائر جناحه على فراخه حنانا عليهم، والذل: اللين وضد العزة والصعوبة، وتذلل: خضع وتواضع، والذلة: الهوان، والذليل: الخاضع عن قهر وهوان، والجمع: أذلة وأذلاء، والأذل: ضد الأعز، والذلول: سهل الانقياد والطريق المعبدة التي يسهل السير فيها، والجمع: ذُلل، وذللت قطوفها: سويت عناقيدها ودليت وسهل تناولها، والرحمة: الرقة والعطف والخير والنعمة، ومن الله: الإحسان، والرحوم: كثير الرحمة.. والمراد: واجههما في معاشرتك لهما ومحاورتك مواجهة يلوح منها تواضعك وخضوعك لهما وتذللك قبالهما من فرط رحمتك بهما وعطفك عليهما، والجملة: كناية عن المبالغة في الرحمة والتواضع والخضوع لهما وحسن المعاشرة والرعاية والعناية بهما، لأن الطائر يخفض جناحه على أولاده عند تربيتها والعناية بها رحمة بها وحفظا لها، وقيل: كناية عن التواضع وترك التعالي، لأن الطائر يخفض جناحه عند النزول وينشره عند الطيران.

يقول العلامة السيد قطب: « فهي الرحمة ترق وتلطف حتى لكأنها الذل الذي لا يرفع عينا، ولا يرفض أمرا. وكأنما للذل جناح يخفضه إيذانا بالسلام والاستسلام »[1].

---

(١) الظلال. ج٤. ص٢٢٢١.

وقل ربي ارحمهما كما ربياني صغيرا: ربَّ الولد: رعاه وتعهده بما يغذيه وينمي قدراته وملكاته ويهذب سلوكه حتى يصبح صالحا للحياة في بيئة اجتماعية معينة، وتربى: نشأ نفسه بنفسه وأحكمته التجارب، وربَّ القوم: رأسهم وساسهم، والتربية: تنمية الوظائف الجسمية والنفسية والعقلية بالتمرين حتى تبلغ كمالها تدريجيا، والربيب : ابن إمرأة الزوج من غيره يعيش في حجره، والمؤنث: ربيبة، والجمع: ربائب، والصغير: قليل الحجم والسن والشأن وضد الكبير والعظيم، والجمع: صغار، واستصغره: عده صغيرا، والصغار: الذل والضيم والهوان، والصاغر: الراضي بالذل والضيم والهوان، والجمع: صغرة وصاغرون، وتصاغر: سلك مسلك الصغار، والصغيرة: الذنب الحقير، والجمع: صغائر.. والمراد: ادع الله سبحانه وتعالى لهما في حياتهما ومماتهما بأن يرحمهما برحمته، فرحمته أوسع وأشمل وأبقى، وهو أقدر على جزائهما بما بذلا من أنفسهما في تربيتك وإرشادك مما لا تقدر على جزائه، فلا تكتف برحمتك الضيقة الفانية لهما عن الدعاء لهما بالرحمة الواسعة الباقية من الله تبارك وتعالى.

وفيه إشارة إلى عاجز الإنسان عن مكافأة والديه مهما عمل لهما.

ربكم أعلم بما في نفوسكم: العلم: إدراك الشيء بحقيقته عن يقين، وعلم الشيء: عرفه فهو عالم، والجمع: علماء، وتعلم الأمر: عرفه وأتقنه، والعليم والعلامة: الكثير والواسع العلم، والأعلم: الأكثر علما والأخبر من غيره بحقائق الأمور وظواهرها وبواطنها.. والمراد: ربكم أعلم بحقيقة ما في أنفسكم من إضمار البر والعقوق، وهذا مما يفرض مراقبة النفس ومحاسبتها والتفتيش عن الدوافع الحقيقية التي تحرك الإنسان، لكي يضمن الاستقامة على الخط قبل العمل، ويضمن رضوان الله سبحانه وتعالى، بدلا من أن يخدع نفسه ويخدع الآخرين، ثم يقبل على الله عز وجل ليجد عاقبة عمله الخسران والندامة في الآخرة.

إن تكونوا صالحين: كان: تأتي ناقصة وتحتاج إلى خبر، وتأتي تامة بمعنى حدث

ووقع ولا تحتاج إلى خبر، والصلاح: الاستقامة والسلامة من العيب، والصالح: المستقيم المؤدي لواجباته، وكل ما زال عنه الفساد وأصبح نافعا أو مناسبا، والجمع: صلحاء، وأصلح: أتى بما هو صالح ونافع، وأصلح ذات البين: أزال ما بينهم من عداوة وشقاق وخصومة، والصلاحية: الاتساق في العمل وحسن التهيؤ له، وما يخول للشخص من تصرفات قانونية.. والمراد: تكونوا طائعين لله تبارك وتعالى، قاصدين للصلاح والبر دون العقوق والفساد.

فإنه كان للأوابين غفورا: الأواب: الراجع إلى الله تبارك وتعالى في جميع شؤونه وأموره عن قصد وإرادة، والراجع إلى الله عز وجل مستغفرا تائبا كلما أخطأ وأذنب وقصر، وغفر الشيء: ستره وغطاه، وغفر الله ذنبه: ستره وعفا عنه، والغفور والغفار: للمبالغة.. والمراد: أن الإنسان إذا طغى وأسرف وعصى أوامر الله تبارك وتعالى في مجال احترام الوالدين والاحسان إليهما والبر بهما عن جهل أو غير قصد – وهو أمر لا يكاد يخلو منه البشر العاديين – ثم تاب بعد ذلك وندم على ما صدر منه من تقصير أو أذية فعلية أو قولية في حق الوالدين، فإن الله تبارك وتعالى يغفر له ذنوبه، ويرضى عنه، ويتقبله بقبول حسن، ويدخله الجنة مع الداخلين.

وهذا يدل على:

- التشديد في الأمر بمراعاة حقوق الوالدين.
- فتح باب التوبة والرحمة لكل من يخطيء أو يقصر ثم يرجع فيتوب من الخطأ والتقصير.

وءات ذا القربى حقه: الإتيان: المجيء، وأتى الأمر من مأتاه: أي أتاه من وجهه الذي يؤتى منه، وآتاه: أعطاه ووافقه، والإتاوة: الخراج، والجمع: الأتاوى، والقرب: الدنو والمباشرة، والقريب: الداني في المكان والزمان والنسب، والقربى والقرابة: القرب

في الرحم، وكل ما يتقرب به العبد إلى الله عز وجل من أعمال البر والطاعات، والجمع: قربات، والحق: ضد الباطل أو أحد الحقوق الواجبة واسم من أسماء الله الحسنى، ومعناه: الثابت الوجود سرمدا.. والمراد: أعط القرابة حقهم (الواجب والمستحب) من البر والصلة بالمال والنفس، وهي توصية بالأقارب، إثر التوصية ببر الوالدين.

والمسكين: المسكنة: الفقر والضعف، والمسكين: المحتاج الذي اسكنه الفقر ولا يجد ما يكفيه، والجمع: مساكين.

وابن السبيل: السبيل: الطريق، والجمع: سبل، وابن السبيل: المنقطع في السفر الذي لا يملك نفقة العودة إلى بلاده ويحتاج إلى المعونة.

ولا تبذر تبذيرا: التبذير وضع المال في غير موضعه قليلا كان أو كثيرا.. والمراد: النهي عن الانفاق في الفساد وفي غير طاعة الله عز وجل ورضاه، وفيما لا يعود على الإنسان بالفائدة المشروعة والمنفعة العقلائية، أما الانفاق على وجه الاصلاح، وفي سبيل الطاعة لله عز وجل، وفيما يعود على الإنسان بالفائدة المشروعة والمنفعة العقلائية، فلا يسمى تبذيرا وإن كان المال الذي أنفق كثر.

قال الإمام الصادق عليه السلام: « من أنفق شيئا في غير طاعة الله فهو مبذر، ومن أنفق في سبيل الله فهو مقتصد »[1].

إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين: الإخ: من جمعك وإياه صلب أو بطن أو مشاركة في رضاع أو غيره، والجمع: إخوة وإخوان، والمؤنث: أخت، وجمعها: أخوات، ويطلق اللفظ على المشارك في الصداقة أو الدين أو الصنعة وما شابه ذلك، والشيطان: روح شرير، ويطلق على كل متمرد من إنس أو جن، والجمع: شياطين، والشيطنة: فعل الشياطين.. والمراد: أن المبذرين من أتباع الشياطين وعلى طريقتهم

---

(١) تفسير الصافي. الكاشاني. ج٣. ص١٨٨.

والمماثلة لهم في كل مالا خير فيه من الصفات السيئة التي من جملتها الاسراف والصرف في الملاهي والمعاصي ووضع الأمور في غير محلها الصحيح.

وكان الشيطان لربه كفورا: الكفر: الستر على الشيء وتغطيته وعدم الإيمان بالوحدانية أو النبوة والشريعة أو المعاد والجحود بالنعمة ونكرانها (ضد الشكر) فهو كافر وكفور، والجمع: كفرة وكفار، وكفر به: تبرأ منه.. والمراد: أن الشيطان شديد الكفر لنعم ربه، لأنه يصرف جميع ما أعطاه الله تبارك وتعالى من القوى والمواهب في المعاصي والافساد في الأرض وإضلال العباد وحملهم على الكفر بالله عز وجل، وهذا غير ما خلقت له، وهو من الكفران المقابل للشكر الذي هو صرف النعم فيما خلقت له من الموارد. وهذا الحكم يلحق بالمبذرين، لأنهم يصرفون نعم الله تبارك وتعالى عليهم في غير محلها، فيلحقهم الذم والعقاب.

وإما تعرضن عنهم: الإعراض: الصد عن الشيء.. والمراد: إن اعتراك أمر اضطرك إلى أن تعرض عن ذوي القربى والمساكين وابن السبيل حيث لا تجد ما تعطيهم إياه.

ابتغاء رحمة من ربك ترجوها: ابتغى الشيء: أراده وطلبه، والبغية: الحاجة وما ينبغي، وأبغاه الشيء: أعانه على طلبه، وبغى ضالته: طلبها، وينبغي له: يحسن به ويستحب له، ولا ينبغي له: لا يليق ولا يحسن به، والرجاء: الأمل، والجمع: أرجاء، والترجي: ارتقاب شيء محبوب ممكن، والرجية: ما يرجى من كل شيء، والمرجو: موضع الرجاء، وترجون لله وقارا: تخافون عظمته.. والمراد: إذا كنت تنتظر أن يأتيك من الله تبارك وتعالى رزقا فتعطيهم منه.

فقل لهما قولا ميسورا: اليسر: الخفة والراحة والسهولة وضد العسر، واليسار والميسرة: السهولة والسعة والرخاء والغنى والثراء وضد اليمين، والقول الميسور: السهل اللين .. والمراد: قل كلاما جميلا يدل على المحبة والاحترام والتقدير والمشاركة الشعورية والمواساة، كأن تعدهم بالإعطاء عند مجيء الرزق، أو تدعو لهم

باليسر، كأن تقول: رزقنا الله وإياكم من فضله، ففي القول الجميل: عوض وأمل، في مقابل الضجر منهم والسكت عنهم، فيحسوا بالضيق أو يظنوا السوء.

ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك: اليد من الجسد: العضو الممتد من المنكب إلى أطراف الأصابع، واليد من كل شيء: مقبضه، واليد: النعمة والإحسان والسلطان والقدرة والقوة والطاقة، والجمع: أيدي وأياد، وأعطى الجزية عن يد: عن ذل واستسلام، وسقط في يده: ندم وتحسر، وفي يدي: في ملكي، ويد الله: قدرته، والغل: الغش والعداوة والحقد الكامن وطوق يجعل في عنق الأسير أو المجرم أو في يده، والجمع: أغلال، وغلله: وضع في يده أو عنقه الغل، والمغلول: المقيد، والغليل: حرارة العطش، واليد المغلولة: اليد المقيدة، والعنق: الرقبة (وصلة بين الرأس والجسد) والجمع: أعناق، والأعنق: طويل العنق، والمؤنث: عنقاء، والعنقاء: الداهية وطائر عظيم معروف الأسم مجهول الجسم، والعناق والمعانقة: وضع اليد على عنق الآخر وضمه إلى النفس، وقد يطلق العنق ويراد به الإنسان مجازا.. والمراد: لا تمسك يدك عن الانفاق كل المسك، والجملة: كناية عن الشح والبخل وعدم الانفاق في سبيل الله والخير والصلاح، وجاءت على سبيل المبالغة في النهي عن البخل.

ولا تبسطها كل البسط: البسط: السعة والكثرة والنشر، وبسط يده: مدها للطلب أو للإعطاء، وبسط اليد كل البسط: البذل والعطاء بسخاء، وبسط العذر: قبوله، والانبساط: ترك الاحتشام، ويد بسط: مطلقة، والبساط: الأرض الواسعة وكل ما يبسط، والبسطة في الجسم: زيادة في الطول والعرض والصحة والكمال، والبسطة في العلم: التوسع والتعمق والتبحر فيه، والباسط: من أسماء الله الحسنى.. والمراد: لا تبسط يدك كل البسط في الانفاق، والجملة: كناية عن التبذير والاسراف.

فتقعد ملوما محسورا: القعود: الجلوس – وهو أضعف هيئات الإنسان وأكثرها استكانة وعجزا – وقعد للأمر: اهتم وتهيأ له، وقعد عن الأمر: تأخر عنه أو تركه، والمقعد: مكان القعود والعاجز عن القيام، والجمع: مقاعد، واللوم: العذل والمآخذة

على إتيان ما هو غير لائق، والمليم: من أتى بما يلام عليه، والملوم: من استحق اللوم، واللوام: كثير المحاسبة والمراقبة واللوم، والنفس اللوامة: النادمة على الشر إذا فعلته، والآسفة على الخير إذا لم تفعله ولم تستكثر منه، ويتلاومون: يلوم بعضهم بعضا، والحسر: الكشف، والانحسار: الانكشاف، وحسر بصره: كل وتعب وانقطع نظره، والحسرة: الندامة وأشد التلهف على الشيء الفائت، والجمع: حسرات، ويا حسرتي: نداء يقصد به إظهار الأسف والندم، ويعرف بنداء الندبة، والحسير: الدابة التي تقف عن السير ضعفا وعجزا، والمحسور: المغموم الذي أتلف ماله وندم، والمنقطع الذي لا شيء عنده.. والمراد: تصير ملوما عند الله وعند الناس وعند نفسك، معدوما لا شيء عندك، حزينا نادما على تصرفك وما فعلته في نفسك، والجملة: كناية عن العجز والضعف واستنفاذ الطاقة وفقدان القابلية وعدم القدرة على الحركة والعمل والاتصال الفاعل بالناس وتحمل المسؤوليات الدينية والاجتماعية وتحصيل الخيرات والوصول إلى الأهداف المنشودة.

إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر: الرزق: العطاء وما ينتفع به، والجمع: أرزاق، وارتزق: أخذ الرزق، ورزقه: أوصل إليه الرزق، والرزاق: اسم من أسماء الله الحسنى، ومعناه: خالق الأرزاق والمتكفل بإمداد خلقه بها، وشاء: أراد، وشاء الله: قدر، والمشيئة: الإرادة، والقدر: المقدار وما يقدره الله عز وجل من القضاء على عباده، والجمع: أقدار، والقدرة: الطاقة والوسع والتمكن، وذو قدرة ومقدرة: ذو سعة ويسار، وقدر عليه رزقه: ضيقه، وقدر على عياله: قتر، وقدر الشيء: بين مقداره، وقدر الأمر: دبره وفكر في تسويته وتهيئته، وقدر الله الأمر: حكم به، وقدر الشيء بالشيء: قاسه به وجعله على مقداره، وجاء على قدر الشيء: وافقه وساواه، وقدر مقدور: قضاء واقع لا محالة، والقدير والقادر والمقتدر: من أسماء الله الحسنى، ومعناه: ذو القدرة البالغة.. والمراد: أن الله عز وجل يوسع الرزق لمن يشاء، ويضيقه على من يشاء، ولا يبسطه كل البسط، ولا يمسكه كل الإمساك، رعاية لمصلحة العباد.

إنه كان بعباده خبيرا بصيرا: العبد: الرقيق والإنسان عموما لأنه متعبد إلى الله سبحانه وتعالى وضد الحر، والجمع: عبيد وعباد، والعبودية: الانقياد والتذلل والخضوع، والاعتباد والاستعباد: اتخاذ الشخص عبدا، والتعبد والعبادة: التنسك والطاعة، والعابد: المقيم على العبادة، والجمع: عبدة وعُباد، والخبر: العلم بالشيء وما ينقل ويتحدث به الناس، والجمع: أخبار، وخبره: أعلمه وأنبأه، والتخبر والاستخبار: السؤال عن الخبر، والمخبر: من يوصل الأخبار، وخبر الشيء: امتحنه وعلمه عن تجربه وعلم حقيقته، والخبير: العالم بالاخبار أو الحقائق، واسم من أسماء الله الحسنى، ومعناه: العالم بكنه الأشياء وحقائق الأمور وظواهر مخلوقاته وبواطنها، وبصر وأبصر: رأى بالعين، والبصر: العين، وبصر به: علمه فهو بصير به، والبصير: الخبير وضد الضرير، والبصيرة: الحجة والعقل والفطنة، والجمع: بصائر، والتبصر: التأْمل والتعرف، والتبصير: التعريف والايضاح والإضاءة، وعلى بصيرة: على يقين وعقيدة صحيحة.. والمراد: أن الله عز وجل عالما ببواطن عباده وظواهرهم وبسرهم وعلانيتهم وما يصلحهم من سعة أو تقدير فيرزقهم على حسب مصالحهم.

ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق: القتل: الإماتة، والمقاتل: المواضع التي إذا أصيب فيها الإنسان أدت إلى قتله، واستقتل: استمات حتى لا يبالي بالموت لشجاعته، وتقاتلوا: تحاربوا وقتل بعضهم بعضا، والقتيل: المقتول، والجمع: قتلى، والولد: كل ما ولد، والجمع: أولاد، والخشية: الخوف والهيبة مع تعظيم المخوف أو المهاب منه، والاملاق: الفقر والحاجة، وانملق الشيء: أفلت.. والمراد: النهي عن قتل الأولاد بالوأد مخافة الفقر والفاقة والجوع.

نحن نرزقهم وإياكم: تعليل للنهي المذكور، وهو ضمان لرزق الأولاد من غير أن ينقص شيء من رزق الآباء، وربما يدل على زيادة الرزق للآباء ببركة الأولاد، وفيه نهي عن التعويل على الظاهر بالعجز عن النفقة للتخلص من الأولاد.

إن قتلهم كان خطأ كبيرا: الخطأ الذنب وضد الصواب، والخطيئة: الذنب المتعمد، والجمع: خطايا وخطيئات، والمخطئ: من قصد الصواب ولكن لم يوفق إليه، والخاطئ: من تعمد الخطأ، والخاطئة: المعصية والكفر، والكبير: العظيم والمسن.. والمراد: أن قتل الأولاد خشية الفقر ذنب كبير وإثم عظيم في نفسه.

ولا تقربوا الزنى: القرب: الدنو والمباشرة، والقريب: الداني في المكان والزمان للمذكر والمؤنث، والقربة: النسب وكل ما يتقرب به العبد من الطاعة إلى الله عز وجل، والجمع: قربات، ولا تقربوا: للتشديد في النهي، والزنى: الفجور وارتكاب فاحشة المعاشرة الجنسية من غير عقد شرعي أو ملك يمين، فهو زان وهي زانية، والجمع: زناة وزوان، والزناء: كثير الزنى.. والمراد: النهى عن مقاربة أسباب الزنى القريبة أو البعيدة فضلا عن مباشرته مبالغة في النهي عنه، لأن الزنى تدفع إليه شهوة عنيفة وميل غريزي عجيب ومتميز إلى الجنس الآخر، ومقاربة أسبابه قد تؤدي إلى مباشرته، فالتحرر من المقاربة أضمن وأسلم.

إنه كان فاحشة: الفاحشة: ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال، والزنى ظاهر القبح عقلا وشرعا، حيث أنه يؤدي إلى اختلال أمر الأنساب وظهور الفتن وإبطال صلة الرحم والمواريث وغيرها من الحقوق الشرعية والأخلاقية والاجتماعية، وهو معصية ومن أكبر الكبائر شرعا، وأن الله عز وجل يبغضه أشد البغض.

وساء سبيلا: ساء: قبح وخبث، وأساء: أتى بالسيئة فهو مسئ، وأساءه: أحزنه، وسوء العذاب: أشده، والسوء: القبح والضرر والفساد وكل آفة وشر، والجمع: أسواء، والسيئة: نقيض الحسنة، والسوأة: العورة وكل ما يسوء منظره إذا انكشف، والجمع: سوءات، والسبيل: الطريق.. والمراد: بئس الزنى طريقا، فإنه يؤدي إلى الانحلال في المجتمع والعذاب الشديد في نار جهنم يوم القيامة.

ومن قتل مظلوما: الظلم: وضع الشيء في غير موضعه، وظلمه حقه: اغتصبه أو انتقصه، والظالم: من يفعل الظلم، والظلوم: كثير الظلم.. والمراد: قتل بغير حق.

فقد جعلنا لوليه سلطانا: الولي: القريب والحليف والشريك، والأولى: الأحق والأجدر، وولاه: ملكه، وتولي فلانا: احبه ونصره وحاباه واتخذه وليا، وولي البلد: تسلط عليه وحكمه، فهو وال، والجمع: ولاة، وتولى الأمر: تقلده وقام به، وأولاه: جعله واليا، وأولاه معروفا: صنع إليه معروفا، وتولى عنه: أعرض عنه وتركه، وأولى لك: قاربك الشر فاحذر، وولي المرأة: من يلي عقد النكاح عليها، وولي اليتيم: من يلي أمره ويقوم بكفايته وكفالته، والسلطان: الملك والقهر والحجة والبرهان والعلم، وسلطه: أمكنه واطلق له السلطة.. والمراد: أن الله عز وجل جعل لوارث المقتول تسلطا على القاتل بالقصاص أو الدية.

فلا يسرف في القتل: الاسراف: الافراط وتجاوز حد الاعتدال في كل شيء، والاسراف في الانفاق: التبذير، وأكل أموال اليتيم إسرافا: أكلها بغير حق، والمسرف: من فسد عقله وكثرت معاصيه.. والمراد: فلا يتجاوز الولي الحد بالمثلة أو قتل غير القاتل أو غيره.

إنه كان منصورا: النصرة: العون والتأييد، واستنصره: استغاث به وطلب نصرته، ونصره: أيده وأعانه على عدوه، ونجاه وخلصه منه، فهو ناصر ونصير، والجمع: أنصار، والمنصور: من أُعطي النصرة وحصل عليها.. والمراد: أن الله عز وجل منّ على الوارث بإيجاب القصاص أو الدية، وأمر الحاكم الشرعي بمعونته في استيفاء حقه.

ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن: المال: كل ما يملكه الفرد أو الجماعة من متاع أو عقار أو نقود أو حيوان أو غيره من الأشياء، والجمع: أموال، وأحسن: أجمل وأفضل.. والمراد: لا تقربوا مال اليتيم إلا بالخصلة التي هي أحسن بالحفظ والاستثمار الحلال، وفيه مبالغة في النهي عن التعرض لمال اليتيم بالأكل أو التضييع أو غيره من التصرفات غير الصحيحة أو غير المناسبة.

حتى يبلغ أشده: بلغ: وصل وأدرك وشارف، أشده: قوته، وهو ما بين ثماني عشرة

سنة إلى ثلاثين سنة.. والمراد: يبلغ رشده وقوته على حفظ ماله.

وأوفوا بالعهد: الوفاء: الأداء والانجاز والاتمام وضد الغدر، وأوفى بالعهد: انجزه كاملا، وأوفاه حقه: أعطاه إياه وافيا تاما، وأوفى: زاد، والوفي: كثير الوفاء، والوفاة: الموت، وتوافاه الله: قبض روحه، والعهد: الأمان والوصية واليمين والميثاق والذمة ورعاية المودة، والتعهد: التحفظ بالشيء وتجديد العهد به، والمعهود: الذي عُهد به وعرف، والمعهد: الموضع الذي تعهد به شيئا، وعاهدوا: أعطوا المواثيق المؤكدة.. والمراد: التأكيد في الأمر على القيام بمقتضى العهد والمحافظة عليه، سواء كان العهد بين العبد وربه، أو بين العبد وغيره من الناس.

إن العهد كان مسؤولا: السؤال: ما يسأله السائل، والمسؤول: اسم مفعول بمعنى مطالب ومحاسب.. والمراد: يسأل الله جلا جلاله العباد عن الوفاء بالعهد، ويحاسب من ينكثه أو ينقصه، وقيل: أن العاهد مطالب بأن يفي بالعهد ولا يضيعه.

وأوفوا الكيل إذا كلتم: الكيل: تعيين الكمية ومقدارها بالمكيال، والجمع: أكيال، والمكيال: آلة معدة للكيل، مثل: الصاع أو الذراع ونحوهما، والجمع: مكاييل، والمكيل والمكيول: ما يكال، وكال: أعطى الكيل، واكتال: أخذ الكيل وتولى الكيل بنفسه، وتكايلا: كال كل واحد لصاحبه، وكايله وتكايلا: قال له مثل قوله أو فعل كفعله وشاتمه وزاد عليه، وكايل الفرس الفرس: باراه، وكايلناهم: كافأناهم، والكيلة: المرة من الكيل، والجمع: كيلات، والكيال: من يقوم بالكيل، والكيالة: حرفة الكيال وأجرته.. والمراد: الأمر بإتمام الكيل والنهي عن إنقاصه.

وزنوا بالقسطاس المستقيم: يزن: يعادل، والوزن: تقدير الشيء بواسطة الميزان أو رفعه باليد لمعرفة ثقله وخفته أو امتحانه بما يعادله لمعرف وزنه، والجمع: أوزان، والميزان: آلة يوزن بها الشيء ليعرف مقداره، والجمع: موازين، ووزن: ساوى وعادل، والوازن: راجح العقل والرأي، وأوزن نفسه: وطنها، ووازنه: كافأه على أعماله وساواه في الوزن، ووازن بين شيأين: نظر أيهما أوزن، وشيء موزون: جرى

على وزن أو مقدار معلوم، ووزن: أعطى الوزن، واتزن: أخذ الوزن، والأوزن: الأقوى والأمكن والأرجح عقلا ورأيا، والوزنة: المرة من الوزن والمرأة راجحة العقل والرأي، ولا نقيم لهم وزنا: لا نجعل لهم قدرا واعتبارا (كناية عن الاحتقار) والقسط: العدل والحصة والنصيب، وقسط الشيء: جعله أجزاء، مثل: تقسيط الدين، وقسط النفقة: قترها، والجمع: أقساط، والقسطاس: أضبط الموازين وأقومها والميزان نفسه، وقيل: أنه مركب من كلمة القسط وهو العدل، وطاس وهو كفة الميزان، والمقسط: من أسماء الله الحسنى، ومعناه: العادل، والاستقامة: الاعتدال، والمستقيم: الشيء القويم (المعتدل).. والمراد: زنوا بالميزان الصحيح الذي يحفظ العدل كاملا.

ذلك خير وأحسن تأويلا: الخير: النعم والمال الكثير الطيب وصلاح الحال وما يجب أن يختاره الإنسان إذا تردد الأمر بينه وبين غيره وضد الشر، وخار الشيء: انتقاه واصطفاه، وخر لي: اختر لي أصلح الأمرين، والاستخارة: طلب الخير، والخيرة: الفاضلة من كل شيء، والجمع: خيرات، والتأويل: تفسير الكلام وإرجاعه إلى أصله والحقيقة التي ينتهي إليها الأمر، وتأويل الأحاديث: تفسير الأحلام، وآل الرجل: أهله وعياله وأتباعه، ولا تستعمل كلمة (آل) إلا لمن لهم شأن وشرف.. والمراد: إيفاء الكيل والوزن بالميزان العادل، هو خير للعباد في الدنيا، لأنه:

- من الأمانة التي توجب الرغبة في المعاملة والذكر الجميل بين الناس.
- ويحفظ حقوق الناس ويمنع سرقة أموالهم.
- ويؤدي إلى حفظ الأمن واستقرار الأوضاع.
- وأحسن مآلا وعاقبة ومرجعا في الدنيا والآخرة، لأن عليه ترتكز استقامة ونظام معاش العباد وسعادتهم في الدنيا والآخرة.

ولا تقف ماليس لك به علم: وقف: قام فهو واقف، والجمع: وقوف، ووقف عليه: أطلع عليه وفهمه وتبينه، ووقف في المسألة: تريث وارتاب فيها، وتوقف عن: كف وامتنع،

وأوقفه عليه: أطلعه عليه وعلق الحكم بحضوره ونحوه، وواقفه: وافقه، واستوقفه: سأله الوقوف والثبات وحمله عليه، والوقفة: المرة، والموقف: موضع الوقوف، والوقف: حبس الانتفاع بالشيء على وجه معين، وقفوهم: احبسوهم في الموقف، وقفوته: اتبعت أثره، وقافية كل شيء: آخره.. والمراد: لا تتبع مالا تعلم في العقائد والأعمال، فهو قبيح عقلا وشرعا.

إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا: الفؤاد: العقل والقلب، والجمع: أفئدة، وفأده: أصاب فؤاده، وفأده الخوف: صيره جبانا، والفئيد: الجبان، وفارغ الفؤاد: سيء الحال لا يحزن ولا يغتم لشيء من الحق والخير.. والمراد: أن الإنسان مسؤول أمام الله عز وجل عن نعمة السمع والبصر والعقل، كيف استخدمها في الحياة وأفاد واستفاد منها، وأنه تعالى يسأله عنها يوم القيامة، ويعاقبه إذا اساء استخدامها.

ولا تمشي في الأرض مرحا: المشي: الانتقال من مكان إلى مكان بإراده، ومشى: اهتدى، والمشاء: الذي يمشي بالنميمة (نقل الحديث على وجه الإفساد) بين الناس، والماشية: المال من الإبل والبقر والغنم، والجمع: مواشي، والمشيئة: الإرادة، والمرح: الخفة والعجب والاختيال وشدة الفرح والنشاط بالباطل، فهو مرح، والجمع: مرحى، وأمرحه: حمله على المرح، ومرحى: كلمة تعجب تقال للرامي إذا أصاب ونحوه، والمروح: الخمر والفرس النشيط والقوس حسن الارسال للسهم، والتمراحة. كثير النشاط والمزاح واللعب والخفة، والممراح: النشيط.. والمراد: النهي عما يلزم المرح من التكبر والخيلاء في المشي، واستعظام الإنسان لنفسه بأكثر مما هو عليه وتجاوز قدره.

يقول العلامة السيد الطباطبائي: « ولعل التقييد بالباطل للدلالة على خروجه عن حد الاعتدال، فإن الفرح الحق هو ما يكون ابتهاجا بنعمة من نعم الله شكرا له، وهو لا يتعدى حد الاعتدال، واما إذا فرح واشتد منه ذلك حتى خف عقله

وظهر آثاره في أفعاله وأقواله وقيامه وقعوده وخاصة في مشيه، فهو من الباطل »[1].

إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا: خرق: ثقب، وخرق الأرض: جابها، واخترقت الرياح: مرت وعصفت واشتد هبوبها، وأخرقه: أدهشه، والتخرق: تخلق الكذب واختلاقه، والأخرق: الاحمق وسيء التصرف وضعيف الرأي، والمؤنث: خرقاء، والخارق: ما يخرق العادة ويخالف مقتضاها، والجمع: خوارق، والجبل: ما ارتفع من الأرض إذا جاوز التل، والجمع: جبال، وأجبل: صار إلى الجبل، وفلان جبل: ثابت، والطول: العلو والارتفاع والامتداد والفضل والاحسان والغنى واليسر ونقيض القصر، وطال عليه: انعم وتفضل، ولا طائل فيه: لا غناء فيه ولا مزية، ولن تبلغ الجبال طولا: لاتقدر أن تحاذي الجبال شموخا مهما تطاولت.. والمراد: لن تشق الأرض بكبرك حتى تبلغ آخرها، ولن تبلغ بتطاولك طول الجبال، فاعرف قدك، والزم قدرك، ولا تختال في مشيك.

كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها: سبق بيان معنى السيء، والكره: الإباء والمشقة والبغض، الكريه والمكروه: المبغوض، وأكرهه: قهره، وكرهه: صيره كريها وبغيضا، واستكره فلانة: أكرهها على الفجور، والمكره: ما يكرهه الإنسان ويشق عليه، والجمع: مكاره.. والمراد: كل المذكور المنهي عنه مبغوضا عند الله عز وجل.

ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة: أوحى: أشار وأومأ وأرسل وبعث وكتب وأمر، وأوحى إليه: كلمه بكلام يخفى على غيره وألهمه وبعثه وأرسله، والوحي: ما يلقى إلى الغير ليعلمه وما يوحيه الله تعالى إلى أنبيائه عليهم السلام وأحكم: أتقن، واستحكم: تمكن وصار محكما ومتقنا، والحكمة: العلم مع العمل وصواب الأمر وسداده، والحكيم: صاحب الحكمة واسم من أسماء الله الحسنى، ومعناه: ذو الحكمة البالغة المنطوية على إتقان التدبير وإحسان التقدير، وآيات محكمات: بينات

---

(١) الميزان. ج١٣. ٩٦.

واضحات الدلالة.. والمراد: كل ما ذكر من الموعظة، هو كلام موحى من الله تعالى ومحكم لا يدخله الفساد.

ولا تجعل مع الله إلاها ءاخر: الله: علم على الذات العلية الواجبة الوجود، وأله يأله: تحير واستغرق في عظمة الله سبحانه وتعالى، والألوهية والتأله: العبادة والتعبد والتنسك، والإله: المعبود، والجمع: آلهة، والآخر: الغير واسم من أسماء الله الحسنى، ومعناه: الذي لا نهاية ولا انتهاء له لأنه منزه عن الزمان والباقي بعد فناء كل شيء، والجمع: آخرون، وآخر الشيء: نهايته.. والمراد: أن التوحيد هو رأس الحكمة وملاك السعادة للإنسان في الدنيا والآخرة.

فتلقى في جهنم ملوما مدحورا: ألقى: طرح وقذف، وألقى القرآن: أنزله، وألقى القول: قاله وأملاه، وألقى السمع: أصغى، وجهنم: مكان العذاب الأبدي في يوم القيامة، ومعناه: وادي البكاء والأنين والعذاب، واللوم: المآخذة على إتيان ما هو غير لائق، والمليم: من أتي بما يلام عليه، والمللوم: من يستحق اللوم، واللوام: الكثير المحاسبة والمراقبة واللوم، والنفس اللوامة: النادمة على الشر إذا فعلته وعلى الخير إذا تركته، ودحر: دفع وأبعد وطرد، والمدحور: المطرود.. والمراد: يقذف في نار جهنم وهو لائما لنفسه، مطرودا من رحمة الله عز وجل.

فبما رحمة من الله: بسبب رحمة عظيمة كائنة من الله تبارك وتعالى للمسلمين الذين اتبعوك وآمنوا بك، وتتمثل فيما أودعه الله جل جلاله في شخصيتك الرسالية من:

- مكارم الأخلاق.
- رباطة الجأش.
- المحبة للمسلمين والرفق بهم.
- الانفتاح عليهم والاحساس بقضاياهم ومشاكلهم.

لنت لهم: اللين: الرفق والرقة والسهولة في المعاملة.. والمرادا: كنت الرقيق في أسلوبك وكلامك معهم وخطابك إليهم، والرقيق في الاحساس بهم وبآلامهم وأحزانهم وأفراحهم وأحلامهم ومشاكلهم وقضاياهم، وعاملتهم برفق وتلطف ولين، وسهلت أخلاقك لهم بعدما كان منهم من مخالفة أمرك وإسلامك للعدو، وقبلت أعذارهم وتسامحت معهم، وضممتهم إليك، ولم تفرط فيهم قيد شعرة أو أدنى من ذلك.

فظا: خشن الكلام، سيء الخلق، ضيق العقل، جافيا في المعاشرة.

غليظ القلب: الغلظة ضد الرقة.. والمراد: قاسي القلب، وهو القلب الذي لا تلمس منه رحمة ولا لين في المعاملة والسلوك، حيث أنه لا يتأثر إيجابيا لأحوال الناس وأوضاعهم التي تثير الرحمة والشفقة.

لانفضوا من حولك: الانفضاض: التفرق، وحول الشيء: ما يحيط به.. والمراد: لنفروا منك، ولم تتعلق قلوبهم ومشاعرهم بك، ولم يسكنوا إليك، ولتفرقوا عنك، وترددوا في مهاوي الردى والهلكة ولم يهتدوا، لأن الناس - بحسب فطرتهم - يبتعدون عن أي شخص يقسو عليهم في المعاملة ويغلق قلبه عنهم، ويضغط على مشاعرهم الإنسانية بالخلق السيء، بدلا من أن يداوي جراحهم ويهدء من روعهم وإضطراب أنفسهم.

فاعفوا عنهم: العفو: الصفح وترك العقوبة، والعاف: التارك عقوبة من ظلمه وأساء إليه، والجمع: عافون وعفاة، والعفوّ: الكثير العفو ومن أسماء الله الحسنى، والعفو من المال: ما زاد عن الحاجة وما يتيسر إخراجه للصدقة، وخذ العفو: خذ الميسور من أخلاق الرجال واقبل ما تيسر ومالا مشقة فيه ولا إرهاق على الناس.. والمراد: تجاوز عما يبدر منهم من أخطاء فيما يتعلق بحقوقك الخاصة كشخص وكقائد وحاكم.

واستغفر لهم: الغفر: الستر والتغطية، وغفر ذنبه: ستره وغطاه وعفا عنه، فهو غافر، وللمبالغة: غفور وغفار، والجمع: غفر، واستغفر الله: طلب منه أن يغفر له ذنوبه.. والمراد: أطلب لهم من الله تبارك وتعالى المغفرة لذنوبهم (أي فيما يتعلق بحقوق الله تبارك وتعالى عليهم) حتى يغفرها لهم، إكمالا للبر بهم والشفقة عليهم، ولكي يستقيم لهم طريق الهداية وتتحرك الطاعة في حياتهم من جديد.

وشاورهم في الأمر: أشار: أومأ، وأشار عليه: نصحه ودله وأعلمه ما في الأمر من محاسن وصواب، وشاوره: طلب رأيه، والشورى: **التشاور**، وأمرهم شورى بينهم: أن المشورة لازمة لهم في كافة أمورهم من أجل تحري الصواب في الآراء والمواقف، والأمر: الحال والشأن، والجمع: أمور، والإئتمار: التشاور في الأمر، والأمير: المشاور، والجمع: أمراء، والمؤتمر: اجتماع قوم للنظر والتشاور في أمور تهمهم، والجمع: مؤتمرات، وأولوا الأمر: الرؤساء والحكام والعلماء.. والمراد: تبادل الرأي معهم (تطلب ما عندهم وتقدم ما عندك من الرأي) وذلك فيما يعود إليهم من شؤون الحياة: السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية وغيرها مما يصح فيه التشاور من أمور الدنيا وشؤون الدولة، لا فيما لا يصح فيه التشاور مما يعود إلى الله عز وجل من أمور الدين كالأحكام الشرعية، لأن أمور الدين ليس لأحد فيها رأي، حتى الرسول الأعظم الأكرم ﷺ فإنه يقوم بالتبليغ عن الله عز وجل ولا يتقول عليه برأيه.

قال الله تعالى: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾[1].

وقال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴾[2].

---

(١) آل عمران: ١٢٨.

(٢) الحاقة: ٤٤ – ٤٧.

فإذا عزمت: العزم: الثبات والصبر والجد وعقد النية والتصميم على الشيء الذي يريد الإنسان أن يفعله، فإذا عزم الأمر: كان الأمر في نفسه جد، ومن عزم الأمور: من الأمور التي يجب العزم والثبات فيها، وأولوا العزم: أهل العزيمة الصادقة.. والمراد: إذا اطمأنت نفسك إلى استفراغ الوسع، ووطنتها على إمضاء أمر على أنه الأصلح بعد المشاورة.

فتوكل على الله: وكل إليه الأمر: سلمه وفوضه إليه واكتفى به، والتوكل: تفويض الأمر إلى الوكيل والثقة بحسن تدبيره، والوكيل: الكفيل الذي يوكل إليه عمل غيره بتفويضه إليه وينوب عنه فيه، وهو اسم من أسماء الله الحسنى، ومعناه: الكفيل بأرزاق العباد وتصريف أقدارهم وكفايتهم أمورهم، واتكل على الله: استسلم إليه وفوض إليه أموره ووثق به واعتمد عليه واكتفى به عن غيره.. والمراد: ثق بالله عز وجل واعتمد عليه وحده لا شريك له في إمضاء الأمر الذي عزمت عليه بعد المشاورة، واطلب منه العون والتوفيق والتسديد والظفر والنجاح، وسر على بركته سبحانه وتعالى، ولا تنسوه في الوقت الذي تهيئون فيه الأسباب المادية والواسائل العادية للنصر، وهذا مما يؤكد الحقيقة الكبرى ويرسخها في عقول المؤمنين وقلوبهم، وهي: أن مرد الأمر كله لله وحده لا شريك له، وأنه فعال لما يريد، وأن النصر بيده وحده لا شريك له لا بيد غيره.

إن الله يحب المتوكلين: الحب: الوداد والرغبة في الشيء ونقيض البغض، والمحبة: الميل إلى الشيء السار أو النافع أو الجميل، والغرض منه إرضاء الحاجات المادية والروحية، وهو مترتب على تخيل كمال في الشيء يفضي إلى انجذاب الإرادة إليه، وتحبب إليه: تودد، واستحبه: آثره واختاره، وتحابوا: أحب بعضهم بعضا، ومحبة الله للعبد: رضاه عنه وتوفيقه وتسديده، ومحبة العبد لربه: تعظيمه وطاعته وطلب رضاه والزلفى لديه.. والمراد: أنه من حيث يحبهم يكون لهم وليا وناصرا وهاديا ومرشدا إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم غير خاذلا لهم في

سعيهم وعملهم.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[1].

مضامين الآية الشريفة المباركة

هذه الآيات الشريفة المباركة قبس من نور الذكر الحكيم، تدلنا على أنها وحي منزل من الله العزيز، فلا يمكن لرجل أمي نشأ وعاش في الجزيرة العربية في ذلك الوقت في ظل بيئة جاهلية كل همها الفتك والقتل والسلب والنهب وغيرها من الموبقات الاجتماعية والأخلاقية، أن يأتي بهذه الكنوز والدرر من المقومات العظيمة لنظام أخلاقي واجتماعي شامل دقيق في غاية السمو والرفعة، ويؤسس لمجتمع صالح ولحركة عمران وحضارة، ويؤدي إلى العزة والكرامة، والفضل والنبل، ويحفظ المصالح العامة والخاصة للأفراد والجماعات، ويؤدي إلى سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، مما يدل على أن الإسلام:

- عقيدة وعمل.
- ونظام ودولة.

وليس مجرد عقيدة جوفاء لا علاقة لها بالحياة والمجتمع والدولة كما يريد له العلمانيون من ملحدين وغير ملحدين.

والمقومات الأساسية للمجتمع الإسلامي المذكورة في الآيات موضوع البحث، هي:

---

(١) العنكبوت:٦٩.

المقوم (١) التوحيد

قول الله تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾[١].

وقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾ [٢].

الآيات تدعو إلى التوحيد والإخلاص في العبادة لله ذي الجلال والإكرام، وهو أعظم الأوامر الدينية واوجب الواجبات الشرعية، وتنهى عن الشرك بالله سبحانه وتعالى الذي هو أكبر الكبائر الموبقة في العقيدة والعمل، قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾[٣] وذلك لأن الله تبارك وتعالى، هو:

- الخالق الرازق القاهر فوق العباد.
- الخبير البصير بما فيه مصلحتهم.
- الرؤوف الرحيم بهم.
- وإليه مرجعهم ومآبهم يوم القيامة وعليه حسابهم.

فهو وحده الذي يجب أن يعبد ويطاع ولا يعبد غيره ولا يطاع غيره إلا بأمره.

هذه هي القاعدة الذهبية العامة التي تقوم عليها العقيدة والأخلاق والشريعة وكافة الأنشطة والأعمال الحسنة في الحياة وفق الرؤية الإسلامية، فهي:

- تربط العباد بالله ذي الجلال والإكرام في جميع شؤون حياتهم.

---

(١) الإسراء:٢٣.

(٢) الإسراء:٣٩.

(٣) النساء: ٤٨.

- وتوحد المنهج الفكري والأخلاقي والتشريعي.
- وتخلق الانسجام بين النظرية والتطبيق، فتمنع الفكر من الانحراف، والسلوك والمواقف من الزلل، والأهداف من الضياع.
- وتتحقق للإنسان سعادته في الدنيا والآخرة.

يقول العلامة السيد قطب: « والأمر عام، ولكنه وجه إلى المفرد ليحس كل واحد أنه أمر خاص به، وصادر إلى شخصه. فالاعتقاد مسألة شخصية مسؤول عنها كل فرد بذاته، والعاقبة التي تنتظر كل فرد يحيد عن التوحيد أن "يقعد" "مذموما" بالفعلة الذميمة التي أقدم عليها، "مخذولا" لا ناصر له، ومن لا ينصره الله فهو مخذول وإن كثر ناصروه »[1].

وليس المراد بالعبادة: مجرد الصلاة والصيام، وإنما الطاعة المطلقة لله ذي الجلال والإكرام في كل شيء، والتمرد على كل طاعة لغير الله سبحانه وتعالى كالطاعة للهوى والنفس الأمارة بالسوء والشيطان، والطاعة للطواغيت والحكام المستبدين وقوى الاستكبار العالمي وغيرهم.

قال الله تعالى: ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[2].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: « من أصغى إلى ناطق فقد عبده، فإن كان الناطق عن الله فقد عبد الله، وإن كان الناطق عن إبليس فقد عبد إبليس »[3].

---

(١) الظلال. ج٤ . ص٢٢٢٠.

(٢) البقرة: ٢٥٦ .

(٣) البحار. ج٧٢. ص٢٦٤ .

نتائج مهمة بينها القرآن الكريم

وقد بين القرآن الكريم النتائج المهمة التالية:

النتيجة (١): أن التوحيد هو مبدأ الأمر ومنتهاه، ورأس الحكمة وملاكها:

- فمن لا قصد له بطل عمله.

- ومن قصد غير الله عز وجل خاب ظنه وضاع عمله.

- والتوحيد يمثل الأساس الفكري لجميع الأحكام الشرعية والتكاليف القانونية: الفردية والمجتمعية، فلا حلال إلا ما حلل الله سبحانه وتعالى، ولا حرام إلا ما حرم جل جلاله.

- والتوحيد يمثل الأساس للبنيان الاجتماعي والحضاري برمته في المجتمع الإسلامي، فكل مؤسسات المجتمع والدولة تمارس عملها على ضوء عقيدة التوحيد والأحكام التشريعية والقيم الأخلاقية المنبثقة عنها.

- ومن شأن التوحيد أن يوحد البواعث والاهداف لجميع الأفراد والمؤسسات المجتمعية في الدولة والمجتمع الإسلامي.

النتيجة (٢): أن الشرك هو أساس جميع الإنحرافات والجرائم والذنوب، فلولا طاعة غير الله من شياطين الجن والإنس وهوى النفس، لم يقدم الإنسان على معصية ربه عز وجل فيما أمره به ونهاه عنه.

النتيجة (٣): أن الشرك يؤدي إلى الضعف والخسران والمذلة في الدنيا والآخرة.

النتيجة (٤): أن المشرك يكون مذموما من الله جبار السماوات والأرض ومن الملائكة ومن العقلاء من الناس أجمعين، لأنه خالف منطق العقل والفطرة، وأنكر الجميل، وكفر بالنعم الإلهية العظيمة عليه.

النتيجة (٥): أن المشرك يكون مخذولا من الله عز وجل ومن الشريك، لأن الله عز وجل يمنع عنه حمايته ويتركه لسوء اختياره، والشريك لا يملك نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا لنفسه ولا لغيره، فيكون المشرك مخذولا لا ناصر له ولا معين في الدنيا والاخرة.

قال الله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾[1].

النتيجة (٦): أن عاقبة المشرك إلى نار جهنم وبئس المصير.

وفي الآية الشريفة المباركة: تحذير شديد لكل من يترك الإخلاص لله عز وجل في جميع الأقوال والأفعال.

والخلاصة: هناك خطان في الحياة:

- خط الله تبارك وتعالى.
- وخط الشيطان.

فإذا ابتعد الإنسان عن خط الله عز وجل فإنه يرتبط تلقائيا بخط الشيطان في أية جزئية أو شأن من شؤون الحياة، الأمر الذي يفرض على الإنسان المؤمن التدقيق في خطواته العملية ليعرف بصدق إلى أي الخطين تنتمي؟!

المقوم (٢) بر الوالدين

قول الله تعالى: ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا

(١) العنكبوت: ٤١.

كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴾[1].

لقد جمع القرآن الكريم بين الأمر بعبادة الله ذي الجلال والإكرام والأمر بالاحسان إلى الوالدين، وقد تكرر ذلك في خمس سور قرآنية.

قول الله تبارك تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾[2].

وقول الله تعالى: ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾[3].

وقول الله تعالى: ﴿ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾[4].

وقول الله تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾[5].

وقال الله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾[6].

مما يدل على:

- وجوب الاحسان إلى الوالدين وأكرامهما ورعاية الأدب التام في معاشرتهما والقيام بواجبات حياتهما التي يعجزان عن القيام بها، وهو من أوجب

---

(١) الإسراء: ٢٣ – ٢٥.

(٢) البقرة: ٨٣.

(٣) النساء: ٣٦.

(٤) الانعام: ١٥١.

(٥) الإسراء: ٢٣.

(٦) لقمان: ١٤.

الواجبات الشرعية، وأهم مصاديق العبادة لله تبارك وتعالى، وهو من دعائم الدين الإسلامي الحنيف، ومن مقومات المجتمع الإسلامي وأركانه التي لا غنى له عنها.

- التحذير من عقوق الوالدين (مسلمين كانا أو كافرين) فهو أكبر الكبائر بعد الشرك بالله عز وجل.

قال الرسول الأعظم الأكرم ﷺ: « إياك وعقوق الوالدين فإن ريح الجنة توجد من مسيرة ألف عام ولا يجدها عاق »[١].

والخلاصة: أن الرؤية الإسلامية تولي الإحسان إلى الوالدين والبر بهما أهمية استثنائية خاصة، ولا يسمح الإسلام الحنيف بأدنى إهانة أو عقوق للوالدين، وذلك:

- لأنهما السبب الظاهر لوجود الأولاد وتنشأتهم ورزقهم وتربيتهم.

- ولأن القرآن الكريم يؤكد على المبادىء والقيم الرفيعة في التربية الروحية والأخلاقية للإنسان، ومنها: مقابلة الاحسان بالاحسان.

قال الله تعالى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾[٢].

وقال الإمام الرضا عليه السلام: « من لم يشكر المنعم من المخلوقين لم يشكر الله عز وجل »[٣].

وقد أشارت الآية الشريفة المباركة - التي نحن بصدد البحث فيها- إلى جوانب مهمة وهي تأمر ببر الوالدين والاحسان إليهما والتعامل الأخلاقي الرفيع معهما، منها:

---

(١) جامع السعادات.النراقي.ج٢.ص٢٥٧.

(٢) الرحمن: ٦٠.

(٣) البحار. ج٧١. ص٤٤.

- الإشارة إلى فترة الشيخوخة، قول الله تعالى: ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا ﴾[1] فمن الممكن أن يصل الوالدان أو أحدهما إلى مرحلة العجز وانعدام الحركة دون مساعدة الآخرين، ويكونا في أمس الحاجة إلى الحب والاحترام والتقدير، مما يوقع الأبناء في الاختبار الروحي والأخلاقي والشرعي العظيم، فإما يرتفع الأبناء إلى الأعلى من خلال البر والاحسان إلى الوالدين في هذه الحالة، وإما يهبطوا إلى الحضيض من خلال إيذاء الوالدين والإساءة إليهما.

- النهي عن زجرهما والنفور منهما، وضرورة التحدث إليهما بالقول اللين الحسن الجميل، قول الله تعالى: ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ﴾[2].

- الأمر بالتواضع لهما، الأمر الذي يدل على المحبة والمودة والاحترام والتقدير لهما، قول الله تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾[3].

- الأمر بالدعاء وطلب الرحمة الربانية لهما، قول الله تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا ﴾[4].

- تذكير الأولاد بسلوك الوالدين معهم في مرحلة الطفولة لكي يدركوا ما يجمعه قلبي الوالدين لهم من الرحمة والشفقة والحنو والعناية والاهتمام بهم، فيقابلوا الاحسان بالاحسان والجميل بالجميل، قول الله تعالى: ﴿ كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾[5].

---

(١) الإسراء:٢٣.

(٢) الإسراء:٢٣.

(٣) الإسراء:٢٤.

(٤) الإسراء:٢٤.

(٥) الإسراء:٢٤.

يقول العلامة السيد قطب: « إن الوالدين يندفعان بالفطرة إلى رعاية الأولاد. إلى التضحية بكل شيء حتى بالذات. وكما تمتص النابتة الخضراء كل غذاء في الحبة فإذا هي فتات، ويمتص الفرخ كل غذاء في البيضة فإذا هي قشرة، كذلك يمتص الأولاد كل رحيق وكل عافية وكل جهد وكل اهتمام من الوالدين فإذا هما شيخوخة فانية - إن أمهلهما الأجل - وهما مع ذلك سعيدين! فأما الأولاد فسرعان ما ينسون هذا كله، ويندفعون بدورهم إلى الأمام. إلى الزوجات والذرية.. وهكذا تندفع الحياة. ومن ثم لا يحتاج الآباء إلى توصية بالأبناء. إنما يحتاج هؤلاء إلى استجاشة وجدانهم بقوة ليذكروا واجب الجيل الذي أنفق رحيقه كله حتى أدركه الجفاف! وهنا يجيء الأمر بالاحسان إلى الوالدين في صورة قضاء من الله يحمل معنى الأمر المؤكد، بعد الأمر المؤكد بعبادة الله »[1].

وتدل الآية الشريفة المباركة على:

- أهمية الرابطة الإسرية في الرؤية الاجتماعية الإسلامية.
- أهمية بر الوالدين في المحافظة على الرابطة الأسرية.

وقد سبق البحث بالتفصيل في بر الوالدين.

المقوم (٣) حفظ الحقوق وصلة الأرحام

قول الله تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾[2].

---

(١) الظلال. ج٤. ص٢٢٢١.

(٢) الإسراء: ٢٦ - ٢٨.

لقد أمر الله تبارك وتعالى في هذه الآيات بعدة أمور:

- صلة الأرحام ومواساتهم بالمال بما تبلغ إليه قدرة الإنسان، والتعاطف معهم شعوريا في الأفراح والاحزان.

- الاعتذار المقبول إليهم إذا كانوا في حاجة ولم يجد الإنسان ما يقدمه إليهم من المساعدة، والوعد الحسن بالمساعدة إذا تحسن الحال، والدعاء إليهم بأن يغنهم الله تعالى من فضله.

وفي هذه الآيات الشريفة المباركة: معالجة أخلاقية وعملية للحالات الصعبة التي قد تواجه الإنسان النبيل مع الأناس المحتاجين، حيث لا يملك ما يقدمه إليهم، فتأمره بالمواساة لهم والمشاركة الشعورية معهم، ولهذا الموقف النبيل قيمته الروحية والأخلاقية في المحافظة على الأخوة والمحبة والتماسك في المجتمع ومنع الجريمة.

قال الرسول الأعظم الأكرم ﷺ: « إن لم تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم »[١].

وتحقق هذه المعالجة مجموعة أهداف إسلامية هامة:

- تنمية المشاعر الروحية الطاهرة لدى الإنسان المؤمن.

- الانفتاح على مشاكل الآخرين والسعي لمعالجتها المعالجة الصحيحة بأساليب راقية.

- المحافظة على سلامة المجتمع وتماسكه ودفعه بلطف نحو تحقيق أهدافه الإسلامية السامية.

والخلاصة: أن القرآن الكريم يجعل لذي القربى والمساكين وابن السبيل حقا في أعناق المؤمنين (النفقة الواجبة والزكاة) وهو حق ثابت فرضه الله جل

---

(١) الكاشف. مغنية. ج٥. ص٤٠.

جلاله عليهم، فهم يؤدونه كفرض وليس تفضلا منهم على المستحقين، فمن أداه منهم برأة ذمته، ومن امتنع استحق الذم والعقاب من الله جل جلاله في يوم القيامة.

يقول العلامة السيد فضل الله: « وهكذا يركز التشريع الإسلامي قاعدة التكافل الاجتماعي في المجتمع المسلم، من موقع المفهوم الإسلامي الذي يفرض العطاء كمسؤولية، ويؤكد على الاحسان كحالة روحية إنسانية في أجواء الآخرة بعيدا عن الشعور بالشفقة المذلة التي ترهق كرامة الإنسان »[1].

المقوم (٤) القصد في الانفاق والنهي عن التبذير

قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ۝ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾[2].

وقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾[3].

أمر الله تبارك وتعالى بالقصد في الانفاق والتوسط في المعيشة وهو الجود والكرم ووضع المال في موضعه الصحيح بالانفاق في الطاعات والحقوق وبالمقدار المناسب الذي يستحقه مورد الإنفاق، ونهى عن الاسراف والتبذير من خلال الانفاق غير المسؤول، مثل: الانفاق فيما يعود على الإنسان بالضرر كالتدخين وشرب الخمر أو الانفاق فيما لا يعود عليه بمنفعة معتبرة عقلا وشرعا أو تجاوز الحد

---

(١) من وحي القران. ج١٤. ص٩٢.

(٢) الإسراء: ٢٩ - ٣٠.

(٣) الإسراء: ٢٦ - ٢٧.

المناسب الذي يستحقه المورد في الانفاق.

ويعتبر القصد في الانفاق وعدم الاسراف والتبذير من الحكمة، وذلك:

- لأن الاسراف والتبذير من الأخلاق السيئة.
- ومن أجل المحافظ على الثروة الشخصية والوطنية والقومية.
- وقيام المال بوظيفته الطبيعية في الحياة.
- وللاستمرار في التنمية الوطنية والقومية المستدامة.
- ولأن نتيجة البخل والإسراف هو الحسرة والندامة في الدنيا والآخرة.

والنتيجة: البخل والاسراف مذمومين في الرؤية الإسلامية: الأخلاقية والتشريعية.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴾[1].

ويمثل الاسراف والتبذير: حالة مزاجية تنطلق من هوى النفس والمؤثرات المرضية الذاتية:

- وتدل على ضعف النفس وانغماسها في الشهوات والملذات الحسية بعيدا عن السمو الروحي والأخلاقي.
- وتؤدي إلى الفساد في المجتمع بعيدا عن أية مصلحة حقيقية معقولة في الحياة.

وقد وصف الله سبحانه وتعالى المبذرين بإخوان الشياطين:

---

(١) الفرقان:٦٧.

– لأن التبذير مكروه عند الله عز وجل، وكل ما هو مكروه عنده فهو محبوب عند الشيطان الرجيم.

– ولأن المبذرين يشتركون مع الشياطين في اتباع الهوى ومخالفة العقل والدين والكفر بالنعمة من خلال الانفاق غير المسؤول على الباطل والشر والمعصية وتحريك طاقاتهم ومواهبهم في التمرد على الله عز وجل وإغواء الناس وحملهم على المعصية ودعوتهم إلى الخطيئة وإبعادهم عن الصراط المستقيم في الحياة.

– ولأنهم قرناء معه، قول الله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾(١).

– ولأنهم جلساء للشياطين في جهنم، قول الله تعالى: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾(٢).

وقد بين الله تبارك وتعالى لعباده: بأن مرجع الغنى والفقر إلى الله عز وجل مالك الملك الذي بيده الموت والحياة وشؤون الرزق وغيره، قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾(٣). وقد شاءت حكمته، وقضت إرادته، أن يجري الأمور بأسبابها الكونية التي خلقها ووضعها سبيلا لإدارة الحياة وقيادتها وتطويرها:

– فليس على الإنسان إلا السعي والعمل.

– وعلى الله تبارك وتعالى التوفيق والتسديد والرزق بحسب الحكمة البالغة ومقتضى المصلحة للإنسان.

---

(١) الزخرف: ٣٦.

(٢) الزخرف: ٣٩.

(٣) الإسراء: ٣٠.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾[1].

وفي الحديث القدسي: « إن من عبادي المؤمنين عبادا لا يصلح لهم أمر دينهم إلا بالغنى والسعة والصحة في البدن، فأبلوهم بالغنى والسعة وصحة البدن فيصلح عليهم أمر دينهم، وإن من عبادي المؤمنين لعبادا لا يصلح أمر دينهم إلا بالفاقة والمسكنة والسقم في أبدانهم، فأبلوهم بالفاقة والمسكنة والسقم فيصلح عليهم أمر دينهم، وأنا أعلم بما يصلح عليه أمر دين عبادي المؤمنين »[2].

المقوم (٥) تحريم قتل الأولاد خشية الفقر

قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾ [3].

من عادات الجاهلية التي حاربها الإسلام الحنيف:

- وأد البنات منعا للعار.
- وقتل الأولاد خشية الفقر والجوع.

وقد بين الله تبارك وتعالى:

- بأنه الرازق لعباده.
- وأنه لا علاقة بين النسل والفقر.

---

(١) الشورى: ٢٧.

(٢) الكافي. ج٢. ص٦٠. الحديث: ٤.

(٣) الإسراء: ٣١.

- وأن القتل للأولاد ذنبا كبيرا وإثما عظيما.

وفيه إشعار بـ :

- أن الله تبارك وتعالى يبارك للآباء في أرزاقهم بسبب الأبناء.
- النهي عن التعويل على الظاهر بالعجز عن النفقة للتخلص من الأولاد.

وفي الآيات الشريفة المباركة: معالجة روحية لبعض المشاكل العملية التي تواجه الإنسان في الحياة، فقد ينتحر الانسان بسبب تعرضه لأزمة مالية أو اجتماعية، وقد يبخل بالمال ويمتنع عن الانجاب خشية الفقر.. وغيره، وكله نتيجة الابتعاد عن الله تبارك وتعالى وعدم الثقة به جل جلاله، فتقوم الآيات الشريفة المباركة بالعمل على تعميق الاحساس بحضور الله ذي الجلال والإكرام الغالب والقاهر فوق الأسباب المادية في عقل الإنسان وشعوره لمعالجة هذه المشاكل الناتجة عن الفراغ الروحي والمخاوف الوهمية.

المقوم (٦) تحريم الزنى

قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [١].

يتنافى الزنى مع فطرة الإنسان السوي، ولم يقره شرع سماوي أبدا، وفيه:

- وضع النطفة في غير موضعها الصحيح.
- وهتك الأعراض والحرمات الدينية والقيم الإنسانية النبيلة.
- وفقدان الغيرة وضعف الروح المعنوية.

---

(١) الإسراء: ٣٢.

- وتهديد الاستقرار الفكري والروحي للإنسان.
- وخلق العقد والأمراض النفسية.
- والاهتزاز في العواطف النبيلة للإنسان مثل المحبة.
- وإثارة عناصر الجريمة في المجتمع.
- وانتهاك كرامة الإنسان وتجاهل الخصائص الإنسانية في العلاقة الجنسية.
- واختلاط الانساب وإضعاف الروابط الأسرية.
- ونشر الأمراض المعدية مثل الايدز والسفلس.
- والرغبة في التخلص من الجنين قبل مولده أو بعده.
- وتعريض حياة الطفل للمهانة والحياة الشريرة.
- والتسبب في انتشار الأمراض.
- وإضعاف الثقة في العرض والولد وتقويض الحياة الأسرية.
- وإضعاف الروابط المجتمعية وتهديد وجود المجتمعات.
- وسوء العاقبة في الآخرة والعذاب العظيم.

قال الرسول الأعظم الأكرم ﷺ: « في الزنا ست خصال: ثلاث منها في الدنيا، وثلاث في الآخرة، فأما التي في الدنيا فيذهب بالبهاء ويعجل الفناء ويقطع الرزق، وأما التي في الآخرة فسوء الحساب وسخط الرحمن والخلود في النار »[1].

وقد حدد الله تبارك وتعالى العلاقة الجنسية المشروعة في نطاق دائرة

---

(١) الخصال. ص٣٢٠ - ٣٢١. الحديث: ٣.

الزواج، ولم يرخص به في خارج هذه الدائرة، وذلك:

- لأن الزنا يسيء إلى الطهارة الروحية للإنسان.

- ولأنه يضر بمصلحة الإنسان في الدنيا والآخرة.

- ولأن الله تبارك وتعالى يريد أن يعمق الشعور بالحالة الإنسانية في العلاقة بين البشر، وهي حالة تسمو فوق الإشباع الغرائزي المحض الذي يمثل حالة حيوانية بحتة.

- ولأن الله تبارك وتعالى يريد أن ينشأ نظام الأسرة الذي يمثل المحضن الأول للإنسان، وتلتقي فيه المادة بالروح، وتلتقي فيه الغريزة بالمسؤولية، وتلتقي فيه الدنيا بالآخرة، ويشعر فيه الإنسان بالهدوء والاستقرار والطمأنينة، وتكون الأسرة النواة الأولى للمجتمع الصالح، والمدرسة الأولى في حمل المسؤولية العامة والخاصة في المجتمع.

وقد لجا الإسلام الحنيف إلى مجموعة من الاجراءات للوقاية من الزنا وعلاجه في سبيل حماية المجتمعات الإسلامية من شره وأضراره، منها:

- تحريم الخلوة.

- تحريم التبرج والسفور.

- تحريم الدخول إلى أماكن الفجور والفساد.

- تحريم النظر إلى الأفلام والصور الخليعة.

- الحث على الزواج وتسهيل أمره.

- النهي عن المغالاة في المهور.

- النهي عن الخوف من الفقر بسبب الأولاد.

- الحث على مساعدة الراغبين في الزواج.
- إنزال أشد العقوبة على الزنا لاسيما في حالة التحصين.
- إنزال أشد العقوبة على رمي المحصنات الغافلات دون برهان.
- الوصية بالصبر والصيام لمن لا يستطيع الزواج.

وتختلف الرؤية الإسلامية عن الرؤية الغربية التي تبيح الزنى إذا كانت الزانية بالغة، وكان الزنى برضاها، على أساس أن ذلك يدخل ضمن الحرية الشخصية لها، متجاهلة أخطار الزنى على المجتمع والأفراد.

المقوم (٧) تحريم القتل بغير حق

قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾[١].

لقد نهى الإسلام الحنيف عن قتل النفس بغير حق، واعتبر قتلها بغير حق ذنبا كبيرا لا يغتفر.

قال الله تعالى: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾[٢].

وقال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ

---

(١) الإسراء: ٣٣.

(٢) المائدة: ٣٢.

عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾[1].

فالله واهب الحياة، وللحياة حرمتها وقدسيتها، فلا يحق لأحد غير الله عز وجل أن يسلبها إلا بحق، وفي الحدود التي يرسمها الله جل جلاله، وعليه:

- لا يجوز أن يقتل الإنسان نفسه، ومن قتل نفسه فهو آثم ويستحق العذاب والخلود في النار في الآخرة.

- ولا يجوز أن يقتل الإنسان غيره بغير حق.

فلا يباح القتل إلا في حالات محددة، منها:

- من يقتل متعمدا نفسا معصومة، وذلك لحماية النفوس ومنع الثأر والقتل خارج القانون.

- من يزني وهو محصن، وذلك لمنع انتشار الفاحشة وصيانة المجتمع من التحلل والفساد.

- من ارتد عن الإسلام، وذلك لمنع الفساد الروحي وحماية الجماعة المؤمنة من الفوضى والاضطراب الذي يهدد وجودها، وهو أمر في غاية الأهمية، لأنه يتصل بالحياة الروحية والمعنوية للإنسانية كافة، وهو أمر يفوق في أهميته حياة الأفراد، وقد ضمن الإسلام حرية العقيدة للآخرين، ولم يكره أحدا على دخول الإسلام.

- من اعتدى على الآخرين بهدف قتلهم أو نهب أموالهم أو هتك أعراضهم فقتلوه في حالة الدفاع.

وهذه الحرمة للدم لا تختص بالمسلمين، وإنما تشمل غير المحاربين من غير المسلمين، الذين يعيشون مع المسلمين في سلام ووئام.

---

(١) النساء: ٩٣.

حق القصاص من القاتل

وكل من قتل بدون أن يأتي بجناية تستوجب القتل أو يبيحه للقاتل، فقد قتل ظلما، وقد جعل الله جل جلاله لأوليائه الذين لهم الحق في المطالبة بدمه (وهم أقربائه من أبيه، والحاكم الشرعي في حال عدم وجودهم) سلطانا على القاتل:

- بقتله.
- أو العفو وأخذ الدية.
- أو العفو من غير دية.

وذلك من أجل:

- تلبية للفطرة البشرية من الرغبة العميقة في القصاص.
- وتهدئة للغليان الذي تستشعره نفس الولي. والذي قد يدفعه للطغيان تحت حمى الغضب والانفعال بالاسراف في القتل وتجاوز الحد العادل في القصاص.
- وحماية الأنفس والمجتمع من الاضطراب والفوضى.

وقد الزم الإسلام الحنيف الولي بالاعتدال ونهاه عن الاسراف في القتل:

- فلا يقتل غير القاتل من أقاربه أو غيرهم.
- أو يقتل إثنين أو أكثر مقابل شخص واحد.
- أو يزيد على القتل المثلة بالمقتول.
- أو يقتل القاتل في موارد الدية.

وهذا يدل على واقعية الإسلام، حيث:

- استجاب إلى الفطرة بإعطاء حق القصاص.

- ونهى عن الاسراف بتجاوز حد القصاص العادل.
- وندب إلى العفو ولم يفرضه.

المقوم (٨) تحريم أكل مال اليتيم

قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾[١].

لقد نهانا الله تبارك وتعالى عن أن نقترب من مال اليتيم إلا بالطريقة الحسنى التي تحفظه وتصونه من الضياع وتنميه وتعود على اليتيم بالمصلحة والفائدة: المادية والمعنوية، واعتبر أكل مال اليتيم من الكبائر التي أوعد الله عز وجل عليها النار.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾[٢].

فاليتيم ضعيف عن تدبير ماله والذود عنه، والفطرة الإنسانية تدعو لرعاية الأيتام من قبل الخيرين والمحسنين في المجتمع، والجماعة المسلمة مكلفة إسلاميا برعاية مال المسلم وحماية الضعفاء في المجتمع والدولة وحفظ حقوقهم العامة والخاصة، مع ملاحظة التحفظات الشرعية التفصيلية في هذا الجانب، منها:

- أن يكون المتصرف في مال اليتيم وليا خاصا أو عاما (الفقيه العادل أو عدول المؤمنين) عند فقدان الولي الخاص.
- إذا كبر اليتيم وبلغ أشده وأصبح قادرا على المحافظة على ماله واستثماره وحسن التصرف فيه، أن نسليم ماله إليه، ولا يجوز منعه منه، لأنه

---

(١) الإسراء: ٣٤.

(٢) النساء: ١٠.

صاحب السلطة الوحيدة على ماله بعد ارتفاع المانع.

وهذا مما يؤدي إلى:

- غرس الأمانة والمثل العليا في المسلمين.
- ويعزز الثقة والتضامن والوحدة بين المسلمين ويحفظ تماسك المجتمع.
- ويحفظ حقوق الضعفاء ويحميهم من كل اعتداء.
- ويقوده إلى شاطيء الأمان والتقدم والازدهار والرخاء في المجتمع.

المقوم (٩) الوفاء بالعهد

قول الله تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولاً ﴾[١].

أكد الإسلام الحنيف على الوفاء بالعهد سواء كان العهد بين العبد وربه (كل ما أمر الله تبارك وتعالى به أو نهى عنه فهو عهد يجب الوفاء به) أو بين العبد وغيره من الناس، مثل:

- البيعة بين الحاكم والمحكوم.
- المعاهدات بين الدول.
- عقود العمل والبيع والاجار.
- الزواج.
- وغيرها.

ولم يجعل الله جل جلاله لأحد من الناس فيه رخصة للبر والفاجر، وذلك:

---

(١) الإسراء: ٣٤.

- لأن العلاقات الاجتماعية والنظم السياسية والاقتصادية وغيرها قائمة على العهود والمواثيق، ومع انهيارها سوف تنهار كافة الانظمة، وتحل محلها الفوضى والخراب في المجتمع والدولة والعلاقات الدولية.

- ولأن الله تبارك وتعالى يريد للإنسان ان يحترم كلمته والتزاماته، ويحترم الآخرين الذين يرتبط بهم بميثاق معين في أي جانب من جوانب الحياة العامة أو الخاصة.

فالوفاء بالعهد:

- من الفضائل العليا.

- وهو مناط الاستقامة والأمانة والثقة والأمن والاستقرار.

- وهو مناط السمو الروحي والأخلاقي.

ونكث العهد أو انتقاصه:

- من الرذائل الشنيعة.
- وهو من الأخلاق المميزة للمنافقين.
- ويؤدي إلى الإضطراب وتهديد الأمن والاستقار في النفس والمجتمع.
- وهو دليل على السقوط الروحي والأخلاقي.. فيجب الانتهاء عنه.

وقد أكد القرآن الكريم: بأن الإنسان سوف يسأل يوم القيامة عن العهد:

- فيما يشتمل عليه من مضمون شرعي أو غير شرعي.

- وكيف تعاطى معه: بالوفاء أو النكث والانتقاص.

حدود الالتزام بالعهد: وللحقيقة فإن الإنسان مسؤول عن الوفاء بالعهد إذا كان مضمونه شرعيا، أما إذا كان المضمون غير شرعي، فلا يجوز له الوفاء به، لأن الالتزام أمام الله جل جلاله مقدم على الالتزام أمام غيره، وكل التزام مخالف

للالتزام أمام الله سبحانه وتعالى فهو باطل محض لا يجوز الوفاء به.

المقوم (١٠) الوفاء في الكيل والميزان

قول الله تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾[١].

لقد أمرنا الله تبارك وتعالى بأن نوفي الكيل والميزان في البيع والشراء، وقد وصفه الله تبارك وتعالى بأنه: ﴿ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾[٢] أي مآلا.

وهو واجب عقلا وشرعا، لأنه:

- من الأمانة الواجبة.
- ودليل على سلامة القلب.
- وبه يستقيم التعامل بين الناس وتستقر الأوضاع والأمن العام وتحفظ الحقوق وتتوافر الثقة وتتم البركة.

والنقص في الكيل والميزان قبيح عقلا وشرعا، وقد نهانا الله جل جلاله عن البخس والتطفيف في الميزان، وذلك لأنه:

- قذارة في القلب.
- وصغار في النفس.
- وغش وخيانة في التعامل.

---

(١) الإسراء: ٣٥.

(٢) الإسراء: ٣٥.

- وبه تتزعزع الثقة، وتتفكك العلاقات، ويحل الكساد، وتقل البركة.

وقد حث القرآن الكريم على الوفاء في الكيل والميزان بأساليب عديدة.

قال الله تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[1].

وقال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾[2].

وقال الله تعالى: ﴿ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾[3].

وقال الله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴾[4].

فالوفاء بالميزان ليست مسألة عادية، وإنما هي مسألة كبيرة جدا، وتدخل في صميم العدالة وحفظ النظام الاجتماعي، وقد عد القرآن الكريم الميزان حافظا لنظام الوجود بأسره، قول الله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴾[5] فالاخلال بالميزان يؤدي ليس لفساد النظام الاجتماعي فحسب، وإنما لفساد الوجود بأسره.

---

(١) الأعراف:٨٥.

(٢) هود: ٨٤.

(٣) الشعراء: ١٨١ - ١٨٣.

(٤) الرحمن: ٧ - ٩.

(٥) الرحمن: ٧.

وقد ثبت بالتجربة:

- أن الوفاء بالكيل يؤدي إلى كسب الثقة وبالتالي الزيادة في الربح.
- وأن تطفيف الكيل يؤدي إلى عدم الثقة وبالتالي الخسارة، وهي نتيجة يدركها بعيدو النظر في عالم التجارة.

يقول العلامة السيد قطب: « والفارق بين من يلتزم إيفاء الكيل والميزان تجارة، ومن يلتزمه اعتقادا.. أن هذا يحقق أهداف ذاك، ويزيد عليه نظافة القلب والتطلع في نشاطه العملي إلى آفاق أعلى من الأرض، وأوسع تصور الحياة وتذوقها. وهكذا يحقق الإسلام دائما أهداف الحياة العملية وهو ماض في طريقه إلى آفاقه الوضيئة وآماده البعيدة، ومجالاته الرحبة »[1].

والدعوة إلى الوفاء بالميزان: دعوة إلى العدل في كل شيء، لأن العدل هو الوجه العملي للحق، فمن ركن إلى الظلم فقد ركن إلى الباطل وإلى غير الله عز وجل وسلك طريق الفساد في الحياة.. مع ملاحظة: أن البخس والتطفيف قد يشمل جميع أشكال التقصير المتعمد، فهو يشمل التقصير في العمل، والتقصير في أداء الحقوق لأصحابها، سواء كانت حقوق مادية أو معنوية: سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو غيرها، وقد ترتبت على ذلك نتائج مهمة، منها:

- أن العدل وإقامة القسط مثل الغاية من بعث الأنبياء عليهم السلام وإنزال الكتب.

قال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾[2].

- النهي عن الركون إلى الظالمين.

---

(١) الظلال. ج٤. ص٢٢٢٧.

(٢) الحديد: ٢٥.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾[1].

– كل من يخل بالميزان ويبخس الناس حقوقهم فهو مسؤول مسؤولية حقوقية أمام الذين بخسهم حقهم، ويجب عليه رد الحقوق المغصوبة إلى أهلها، ولا تتم توبته إلا بذلك، فإذا تعذر عليه رد الحقوق إلى أهلها: يجب عليه إعطاء ما يساويها إلى الفقراء والمحتاجين بعنوان رد المظالم، فإن لم يستطع فعليه الاستغفار.

المقوم (١١) النهي عن القول والعمل بغير علم

قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾[2].

لقد نهانا الإسلام الحنيف عن الاتباع بغير علم في الاعتقاد والأقوال والأعمال، فلا نتبع الظنون والشبهات والإشاعات المغرضة، وإنما يجب علينا أن ندقق ونمحص ونتريث ونبحث حتى يحصل لنا العلم واليقين قبل أن نتصرف.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾[3].

وقال الله تعالى: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾[4].

---

(١) هود: ١١٣.

(٢) الإسراء: ٣٦.

(٣) يونس: ٣٦.

(٤) الأنعام: ١١٦.

والخراص: الافتراء، وقد ساوى الله سبحانه وتعالى بينه وبين الظن.

فلا يصح للإنسان:

- أن يعتقد بغير دليل.
- أو يصدق بأي خبر أو رواية أو إدعاء بدون تثبت أو تمحيص.
- أو يصدر أحكاما على الأشخاص والمواقف بدون يقين أو مستند شرعي.
- أو يتبع في المسائل العملية التي تخرج عن اختصاصه من لا يطمئن إلى معرفته وخبرته.
- أو يتبع طريقا أو منهجا في السياسة والاقتصاد والحياة الاجتماعية لا يعلم أنه يوصله إلى تحقيق أهدافه الإسلامية.
- أو يفسر ظاهرة علمية (طبيعية أو اجتماعية) بدون مستند علمي صحيح.
- أو يذم أحدا من الناس أو يقذفه بدون حجة أو برهان أو مستند شرعي.
- أو أن يقول ما لا يعلم.
- أو يعمل بما لا يعلم.

والخلاصة: يحرم على الإنسان الاعتقاد بغير دليل والعمل بغير حجة شرعية، ولا يصح منه تخطى العلم في مسيرة حياته بحسب ما تهتدي إليه فطرته السليمة.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: « إن من حقيقة الإيمان أن لا يجوز منطقك

علمك »[1].

وهذا ما تقتضيه ماهية الإنسان (حيوان عاقل) فلا يتصرف بما هو إنسان بخلاف العلم والعقل، وما تقتضيه فطرته التي تدفعه إلى طلب الحقيقة وإصابة الواقع.

واتباع الظن داء في العقل والروح والأخلاق، وهو يدل على ضعف النفس، وعدم صفائها، وانغماسها في المادة والشهوات، ويؤدي إلى سلبيات خطيرة، منها:

- الفوضى والاضطراب والتخلف في المجتمعات.
- ضياع الحقوق وانتهاك كرامة الإنسان.
- كبح المخلصين وتهميش دورهم في المجتمع.
- انتشار سوء الظن وإضعاف روح المودة والعلائق الروحية بين الناس.
- يهدد البحث العلمي ويقضي على نتائجه الايجابية.
- يقضي على الاستقلال الفكري ويجعل الإنسان أسير الشائعات والافكار والتوجهات الفاسدة في المجتمع.

وقد حرم الإسلام الحنيف:

- التقليد على الكفؤ القادر على استنباط الاحكام من مصادرها.
- العمل بالقياس والاستحسان وفق مدرسة أهل البيت عليهم السلام.
- التصدي للافتاء والقضاء بدون كفاءة.
- الحكم بدون بينة شرعية.
- شهادة الزور.

---

(١) الوسائل. العاملي. ج١٨. ص١٦.

- الغيبة والنميمة والتكلم في الناس وقذفهم بالظن.

- تتبع عورات الناس.

وأكد على المسؤولية الدينية عن السمع والبصر والتفكير.

قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولاً ﴾[1].

فهي الوسائل التي يستعملها الإنسان في تحصيل العلم، وقد أنعم الله تبارك وتعالى بها على الإنسان، ليشخص بها الحق ويصيب بها الواقع فيعتقد به ويبني عليه عمله، فيسأل الإنسان في يوم القيامة عن أمرين:

الأمر (١): هل استعمل تلك الوسائل استعمالا علميا؟

الأمر (٢): هل اتبع العلم الذي حصل عليه بواسطة تلك الوسائل أم خالفه.

فيسأل مثلا:

- لم سمعت ما لا يحل لك سماعه؟

- ولم نظرت إلى ما لا يحل لك النظر إليه؟

- ولم اعتقدت بغير دليل ولا برهان ما لا يحل لك الاعتقاد به؟

- ولم عزمت على ما لا يحل لك العزم عليه؟

- ولم تسرعت في القول من غير تثبت ولا روية؟

- وغيره.

وسوف تجيب جوارحه الداخلية والخارجية بالحق الحقيق وتشهد بالواقع الذي هو عليه في حياته، وتتحدد طبقا لذلك مسؤوليته وجزاؤه في الآخرة، ولن

---

(١) الإسراء:٣٦.

يقبل له عذر.

والخلاصة: يجب على الإنسان العاقل أن يتحرز عن اتباع ما ليس له به علم، لأن الأعضاء ووسائل العلم التي أنعم الله تبارك وتعالى بها عليه، سوف تسأل وتجيب بالحق وتشهد بالواقع، ولن يقبل منه حينئذ عذر.

يقول العلامة السيد قطب: « إنها أمانة الجوارح والحواس والعقل والقلب. أمانة يسأل عنها صاحبها، وتسأل عنها الجوارح والحواس والعقل والقلب جميعا. أمانة يرتعش الوجدان لدقتها وجسامتها كلما نطق اللسان بكلمة، وكلما روى الإنسان رواية، وكلما أصدر حكما على شخص أو أمر أو حادثة »[١].

وقد أنكر القرآن الكريم العلم على الملحدين والمشركين والمنكرين للنبوة والمعاد، لأنهم لم يرتكزوا في إنكارهم على الحجة البالغة، وإنما اعتمدوا في ذلك على بعض الأساليب التي لا تمثل شيئا في حساب القيمة العلمية، مثل:

- الاستناد إلى عقائد الآباء والأجداد الذين لا يعقلون شيئا ولا يهتدون.

- الاستبعاد لبعض الأفكار التي لم يألفوها أو التي لا تدخل في نطاق الحس في الوقت الذي تؤكدها المعادلات العقلية الصحيحة.

- التوقف عن القبول ببعض الأفكار الجديدة التي يثيرها الأنبياء في نطاق العقيدة والأخلاق والتشريع ورفضها ومواجهتها بدون أن يدرسوا البراهين والحجج التي يقدمها الأنبياء عليهم السلام عليها[٢].

---

(١) الظلال. ج٤. ص٢٢٢٧.

(٢) من وحي القرآن. ج١٤. ص١١٦ - ١١٧.

المقوم (١٢) النهي عن الكبر والخيلاء

قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾[1].

تشير الآية الشريفة المباركة: إلى سلوك المتكبرين والمغرورين الذين يضربون الأرض بعنف أثناء مشيهم لكي يلتفت الناس إليهم، ويرفعون رؤسهم في السماء ليوحوا بعلوهم وأفضليتهم المزعومة بين الناس.

وقد أمرنا الإسلام الحنيف بالتواضع ونهانا عن التكبر والخيلاء، لأنهما:

- حماقة مجردة لا جدوى منهما ولا فائدة.
- وهما مرض نفسي ينشأ عن الأنانية والشعور بالنقص والعجز.
- وهما دليل على فراغ العقل والقلب وصغر النفس ودناءة الاهتمام.
- أن صاحبهما مذموم وفاشل.
- وأنه يعيش الغربة عن الله ذي الجلال والإكرام وعن كل حقيقة وفضيلة.
- وأن لديه القابلية للوقوع في الخطأ والمعصية والسير على خطى الشيطان.

ولأن الإنسان:

- ضئيل في جسمه لا يقاس بالأجسام الضخمة التي خلقها الله

(١) الإسراء:٣٧.

تبارك وتعالى.

- وإذا كانت له قوة أو سلطة فهما من الله جل جلاله، وهو ضعيف أمام حول الله عز وجل وقوته.

- وأن ما به من نعمة فهي من الله وحده لا شريك له لا من نفسه ولا من غيره.

- وأنه كريم بروحه التي يحلق بها في عالم الملكوت، وليس بغرائزه التي تلصقه بالتراب وتدعوه إلى عالم الحيوان.

- وأنه لا يكبر إلا بعقله المستنير وأخلاقه الجميلة وعمله الصالح واحترامه للآخرين وحفظ حقوقهم وحسن معاملتهم.

نتائج مهمة

ونتوصل مما سبق إلى النتائج المهمة التالية:

النتيجة (١): أن الله تبارك وتعالى يريد للقيم الروحية أن تبرز في السلوك والمظهر الخارجي للإنسان، لكي تبرز القيمة العملية لهذه القيم، ويتحول الإنسان المؤمن إلى قدوة حسنة للناس في السير إلى الله ذي الجلال والإكرام والاستقامة في الحياة.

النتيجة (٢): أن التكبر والخيلاء دليل على الجهل والغرور وعدم الواقعية، فلا يتكبر ولا يختال إنسان عاقل سوي بأي حال من الأحوال.

النتيجة (٣): أن المؤمن العارف بالله وبنفسه لا يختال ولا يتكبر، فلا يتكبر الإنسان لقوة أو مال أو جمال حسي أو سلطان أو غيرها، إلا حين يخلو قلبه من الشعور بالخالق القاهر فوق عباده العزيز الجبار.

المقوم (١٣) القيادة الرحيمة الكفأة

قول الله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾(١).

لقد كان الرسول الأعظم الأكرم ﷺ القدوة الحسنة والمثل الأعلى لرئيس الدولة والقائد الإسلامي الحكيم والناجح، وكان يتمتع بالصفات التالية:

- الانفتاح الروحي والقلبي على الاتباع، والسهولة وحسن الخلق في معاملتهم، والرحمة بهم والشفقة عليهم ومعاملتهم بعاطفة حميمية صادقة تدخل إلى القلوب بكل عفوية وبساطة وتخاطبها بلغتها التي تفهمها وتغسل كافة ما يعلق بها من أوساخ وأدران، وليس الظهور لهم بالبسمة التجارية الجوفاء.

- التحاور معهم ومناقشتهم والتشاور معهم في كل خطوة من خطوات العمل، وفي كل شأن من شؤون الحياة والدولة الجزئية والكلية في حالتي: السلم والحرب، والابتعاد عن الاستبداد بالرأي في اتخاذ القرارات لاسيما في المواقف الحاسمة والقضايا المصيرية.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: « من استبد برأيه هلك، ومن شاور الرجال شاركهم عقولهم »(٢).

وقال عليه السلام: « الاستشارة عين الهداية، وقد خاطر من استغنى برأيه »(٣).

- التفهم الواعي لظروفهم الموضوعية ولمشاكلهم الحقيقية ولنوازعهم الذاتية وتحمل اخطائهم والصبر عليهم، وذلك من أجل ترسيخ أقدامهم في طريق

---

(١) آل عمران:١٥٩.

(٢) النهج. الحكمة: ١٦١.

(٣) النهج. الحكمة: ٢١١.

الهداية والطاعة، وإفساح المجال لهم للتراجع عن الخطأ، وجعل الطريق مفتوحا أمامهم من أجل التصحيح والاستقامة واستعادة المعنويات وتجديد الشخصية والبناء الروحي والعودة المحمودة إلى الله سبحانه وتعالى، وعدم الايحاء بأن المعصية عقدة مستعصية على الحل، وجريمة غير خاضعة للعفو.

- الابتعاد عن فرض مزاجه الشخصي ونوازعه الذاتية على الرسالة أو الأمة أو الجماعة بأي حال من الأحوال وفي أي موقف من المواقف.

وهذه الصفات للقائد من مقومات المجتمع الإسلامي الرئيسية، وهي دليل على:

- الحب والصدق والاخلاص.
- كمال العقل وبعد النظر.
- الروح الإنسانية الصافية.
- الثقة بالله عز وجل وبالناس.
- حسن الخلق.
- رباطة الجأش.
- العدالة التامة وعدم انتقاص أي شيء من حقوق الناس تحت أي مبرر من المبرارات الذاتية وغير الواقعية.
- الحكمة في النظر إلى الأشياء من موقع المسؤولية الدينية والاجتماعية.
- حسن السياسة والتدبير.

يقول العلامة ناصر مكارم الشيرازي: « ومن البديهي أن الذي يتصدى للقيادة لو خلى عن هذه الخصلة (يعني العفو واللين) وافتقر إلى روح السماحة، وافتقد صفة اللين، وعامل من حوله بالخشونة والعنف والفظاظة سرعان ما واجه الهزيمة، وسرعان ما أصيبت مشاريعه وبرامجه بنكسات ماحقة، تبدد جهوده، وتذري مساعيه أدراج الرياح، إذ يتفرق الناس من حوله، فلا يمكنه القيام

بمهام القيادة، ومسؤولياتها الجسيمة »[1].

نتائج مهمة

ونتوصل مما سبق إلى النتائج المهمة التالية:

النتيجة (١): أن الحكومة والجماعة الإسلامية، أنسانية دستورية شورية عادلة، وليست مادية أو مستبدة أو ظالمة.

النتيجة (٢): ضرورة أن يكون القائد الإسلامي على درجة عالية من حسن الخلق، ولا يكفي لنجاحه في تحقيق أهداف الرسالة، أن يكون على درجة عالية من العلم والكفاءة المهنية أو يمتلك الأسباب المادية للقوة وفرض السيطرة. والدرجة العالية في الأخلاق الحسنة لدى القيادة الإسلامية، هي:

- مما تقضيه أمانة الرسالة وحقيقتها التي هي رحمة للعالمين.
- ولكي تصل الرسالة إلى عقول الناس وقلوبهم كما هي من غير حوجز ولا قيود.
- ولترسيخ روح الإنتماء الصادق للرسالة والأمة والقيادة في قلوب المؤمنين ونفوسهم وتجديد البناء الروحي للشخصية واستعادة معنوياتها من أجل مواجهة الأحداث في المستقبل وترسيخ أقدام المؤمنين في مواقع الصراع المختلفة وتحمل المسؤوليات العامة والخاصة في الحياة دون الخوف من مفاجآت الغيب المجهول.

النتيجة (٣): أن الشورى هي الوسيلة لرفع الروح المعنوية لدى القاعدة الجماهيرية الواسعة وتساهم في خلق الاستقرار النفسي والبصيرة لديها، وحملها

---

(١) الأمثل. ج٢. ص٥٨٠.

على التفكير الجدي والمسؤول والواعي مع القيادة فيما تريد القيادة القيام به من خطط ومشاريع وتتخذه من قرارات، وتأهيل القاعدة الجماهيرية الواسعة لممارسة المراقبة والمحاسبة اللازمة للقيادة غير المعصومة لكي لا تنحرف ولا تغفل ولا تخون، وهذا مما:

- يقهر الصعاب والمشاق والأهوال ويحفظ المسيرة على طريق الاستقامة والتقدم نحو تحقيق الأهداف.
- تعميق العلاقة بين القيادة والقاعدة الجماهيرية على أساس المسؤولية المشتركة في اتخاذ القرار والتنفيذ.
- ويعطي القيادة الشعور بالثقة والقوة ويمنحها الصلابة اللازمة في اتخاذ القرارات وتنفيذها من دون ضعف أو وهن أو خوف.
- ويقطع الطريق على القيادات المنحرفة والمزاجية من أن تفرض نفسها على الساحة، وتمارس حريتها في التلاعب بمقدرات الأمة ومشاعرها من خلال كلمات مبهمة لا نور لها ولا حقيقة عليها.
- ترسيخ حالة الممانعة لدى الأمة وتحصينها ضد اختراقات الاعداء.

النتيجة (٤): أن الشورى مبدأ أساسي وثابت في إدارة الدولة والجماعة الإسلامية لاسيما في القضايا المصيرية، ولا يجوز للقيادة تعطيله أو إبطاله بحجة وجود القيادة الأمينة والكفأة ووجود الأخطار المحيطة أو غيرها، أو بذريعة الخطأ في بعض المواقف التي قامت على الشورى، مهما كان حجم الخطأ وتأثيره ومرارة نتائجه، وذلك لأن:

- إقرار المبدأ وإنشاء الأمة الراشدة المدربة المدركة لمسؤلياتها والقادرة على تحملها، أكثر أهمية من تجنب خسائر وقتية في مرحلة من المراحل في التاريخ الطويل للأمة.
- أن النتائج الايجابية المفيدة الحاصلة من تطبيق مبدأ الشورى والعمل

به، لو قيست إلى النتائج السلبية لرجحت عليها كثيرا.

- أن لتطبيق مبدأ الشورى والعمل به أثرا كبيرا في صياغة الأفراد والجماعات وإظهر قدراتها ومواهبها وتفعيلها، وهو أكثر أهمية من الخسائر الناتجة عن الأخطاء في تطبيق المبدأ، ويغطي على نقاط الضعف فيه. وتعتبر نقاط الضعف والخسائر من الأمور الطبيعة التي لا يخلو منها أي نظام اجتماعي مهما كان نوعه ومصدره، وهذه خاصية من خواص الحياة الاجتماعية للإنسان على وجه الأرض.

يقول العلامة السيد فضل الله: « وتلك هي عظمة التربية الإسلامية التي توحي للقادة، وإن كانوا في مستوى رسول الله ﷺ الذي لا يحتاج إلى فكر أحد، بأن يبحثوا عن القاعدة التي تفكر وتقتنع لتطيع من خلال ذلك، لا عن القاعدة التي تطيع من دون فهم ووعي »[1].

وأقول: وهذا مما تفرضه كرامة الإنسان وماهية وجوده.

سؤال وجواب

السؤال: هل الشورى ملزمة للقيادة الإسلامية العليا أوغير ملزمة؟

الجواب: هناك رأيان، وهما:

أنها غير ملزمة، والهدف منها استظهار الرأي وتطييب النفوس، وهي الحالة التي تفرضها العلاقة الروحية والإنسانية التي تربط بين الرسول الأعظم الأكرم ﷺ وبين أصحابه رضي الله عنهم.

- أنها ملزمة لأنها في الأمور التي تعود إلى الناس فيما هو تدبير بشري،

---

(١) من وحي القران. ج٦. ص٣٤٤.

وليست في الأمور التي تعود إلى الله سبحانه وتعالى فيما هو تكليف شرعي، فالناس مسلطون على أنفسهم، دون أن يمس ذلك الصلاحيات الشرعية (الدستورية) للقيادة أو ينتقص منها.

قول الله تعالى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾[1].

أما قول الله تعالى: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾[2] فلا يدل على الاستحباب، وإنما هو:

- إشارة إلى أمر تنظيمي حيث أن الرسول الأعظم الأكرم ﷺ كقائد عام، هو المسؤول عن تنظيم الشورى وإدارتها، وعليه تقع مسؤولية اتخاذ القرار الأخير بحسم وصرامة - وفق الآليات المقررة - وإعلانه، وبدون الإرادة الواحدة المنظمة لاتخاذ القرار وإعلانه، يظهر الهرج والمرج وتدب الفوضى في الأمة أو الشعب أو الجماعة.

- الزامية القرار بعد صدوره رسميا عن القيادة، والمضي قدما في تنفيذه بعزم وإرادة وثبات وبدون تردد، وذلك بعد استكمال مراحل المشاورة واتضاح نتائجها بصورة تامة، وعدم المطالبة بالعودة إلى تقليب الرأي من جديد قبل انضاج التجربة وظهور الخطأ، فمن شأن التردد أن يؤدي إلى الوهن والضعف وشلل الحركة والفشل في تحقيق الأهداف.

- ويكشف عن أهمية حكمة القيادة وقوة عزمها في إدارة الاختلاف واتخاذ القرارات وتنفيذها وعن تأثيرها على الروح المعنوية للجماهير، مما ينعكس إيجابيا على النجاح في تحقيق الأهداف والتقدم الدائم والمستمر في المسيرة.

وكان الرسول الأعظم الأكرم ﷺ دائم الاستشارة لأصحابه في كافة

---

(١) الشورى: ٣٨.

(٢) آل عمران: ١٥٩.

الأمور التي تخصهم، حتى قال عنه المنافقون بأنه أذن لكثرة ما يستمع لأصحابه، ورد القرآن الكريم عليهم بقول الله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1].

خاتمة: قيمة الأمر والنهي الإلهي

قول الله تعالى: ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ﴾[2].

يؤكد القرآن الكريم على أمرين:

- كل ما نهي عنه في الآيات الشريفة المباركة من الخصال السيئة وهي اثنتا عشرة خصلة، هي خصال قبيحة تثقل روح الإنسان وتفسده وتضر حياته بنتائجها السلبية، وهي مكروهة عند الله تبارك وتعالى وعند العقلاء من الناس، وصاحبها ممقوت مبغوضا عند الله جل جلاله، ويستحق العقاب في يوم القيامة، ومآله إلى نار جهنم وبئس المصير.
- أن الأمر والنهي في جميع الآيات الشريفة المباركة صادران عن الحكمة الربانية البالغة (في العلم بالحق والعمل به) فهما من الأمور المحكمة التي يعرف بها موازين الأشياء ومناسباتها، وبالطريقة التي تقرب الإنسان من الصواب وتبعده عن الخطأ في النظرية والتطبيق، ولا يدخلها الخطأ والفساد بأي حال من الأحوال، ومن شأنهما تعميق الرؤية الواقعية الواضحة لدى الإنسان، وكل من أخذ بهما فقد أخذ

---

(١) التوبة: ٦١.

(٢) الإسراء: ٣٨ - ٣٩.

بالحق والعدل والخير والفضيلة ووافق العقل والوحي، وسار في طريق الاستقامة والصلاح والسعادة في الدنيا والآخرة.

نتائج مهمة

ونتوصل مما سبق إلى النتائج المهمة التالية:

النتيجة (١): أن الإسلام الحنيف: عقيدة وعمل، ونظام ودولة، ويؤسس إلى حركة إنسانية: اجتماعية وعمرانية وحضارية متميزة.

النتيجة (٢): أن الإسلام الحنيف يقوم على الوضوح في العقيدة، والنصاعة في الأخلاق، والاستقامة في السلوك والمواقف، ويريد للحياة في أبعادها الفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغيرها، أن تتحرك على أساس العلم والروحية السامية والأخلاق العالية، فلا يقوم شيء فيها على الظن أو الوهم أو الخرافة أو الشبهة أو الدوافع الشريرة.

النتيجة (٣): أن صحة العقيدة يؤدي إلى صحة المشاعر وسلامتها، وإلى سلامة المواقف واستقامتها، وإلى سلامة العلاقات الاجتماعية ومتانتها. وأن انحراف العقيدة يؤدي إلى فساد المشاعر وخبثها، وإلى انحراف المواقف وضعفها، وإلى انحلال العلاقات الاجتماعية وفناء المجتمعات وزوالها.

النتيجة (٤): أن الإسلام الحنيف يربي الإنسان المسلم على السمو الفكري والروحي والقيم الأخلاقية الفاضلة العليا، ويحارب المادية والانانية ومساوىء الأخلاق، ويعمل على تعميق الاحساس بحضور الله ذي الجلال والإكرام في داخل الإنسان.

النتيجة (٥): أن التوازن والعدل هما القاعدة الكبرى في المنهج الإسلامي

على صعيد الشريعة والأخلاق والبنى الفكرية والاجتماعية.

النتيجة (٦): أن الإسلام الحنيف يؤكد على الروابط الإنسانية بين كافة البشر والوفاء لهم بكافة حقوقهم.

النتيجة (٧): أن الخلق والتشريع مبنيان على تقدير محكم دقيق، ونظام موافق للحكمة والمصلحة، فلا إفراط ولا تفريط، ولا جزاف ولا خلل:

- فالتشريع الإسلامي أمر واقعي موافق للخلق، قول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾[1].

- ولكل شيء حد محدود يجب على الإنسان أن يقف عنده ولا يتعداه ولا يخل به.

---

(١) الأعلى: ٢ – ٣.

الفصل الخامس

غاية خلق الإنسان

المبحث (١): مفهوم الغاية

الغاية في اللغة

المدى والمنتهى، فيقال: غايتك أن تفعل كذا، أي نهاية طاقتك أو فعلك، ويقال: للشيء غاية في الجمال أو غاية في القيمة: أي بلغ الحد الأقصى فيهما. والمغيا: ذو الغاية.

الغاية في الاصطلاح

لها معنيان:

المعنى (١): نهاية الفعل أو الأمر: فتطلق على:

- ما لأجله وجود الشيء.
- والحد النهائي الذي يقف عنده العقل.
- والتمام أو الكمال المقصود تحقيقه.

- والمصير المراد بلوغه.

المعنى (٢): الغرض والفائدة: فتطلق على:

- ما لأجله أقدم الفاعل على الفعل، وتسمى غرض، وتنقسم إلى: قريبة وبعيدة وقصوى، وهي ثابتة لكل فاعل يفعل عن قصد واختيار.
- والمصلحة أو الحكمة المقصودة في الشيء، وتسمى فائدة.

الفرق بين الغرض والفائدة

أن الغرض لا يكون إلا في الأفعال الاختيارية، أما الفائدة: فتكون في الأفعال الاختيارية وغير الاختيارية، فيقال: غاية الأسنان قضم الطعام، وغاية المعدة هضمه.

الغاية المطلقة والغاية الفردية

تنقسم الغاية إلى قسمين:

- غاية مطلقة: وهي غاية ضرورية ثابتة.
- وغاية فردية: وهي غاية نسبية ومتغيرة.

فالإنسان بما هو إنسان له في وجوده غاية مطلقة واحدة، وتسمى بغاية الغايات، وله في كل فعل من أفعاله غاية فردية، فغاياته الفردية متعددة ومتغيرة، أما غايته المطلقة فواحدة وثابتة، ويجب أن تكون غاياته الفردية كلها مرتبطة بغايته المطلقة.

الغائي والغائية

الغائي: هو المنسوب إلى الغاية، فتقول العلة الغائية، أي العلة التي من أجلها وجد الشيء وبها يعلل وجوده.

والغائية: أسم لكون الشيء ذا غاية، فالإنسان له غاية يجب عليه أن يكون عارفا بها وفاعلا على ضوئها، والأعضاء والآلات لها غايات تعمل على تحقيقها بدون أن تكون عالمة بها، وهكذا.

البحث (٢): الغاية والطريق

قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾[١].

بيان المفردات

عليكم أنفسكم: على: حرف جر، يكون اسما وفعلا وحرفا، وتقلب الألف مع الضمير إلى ياء، فتقول: عليك وعليه، وعليك زيدا: أي خذه، وعليّ زيدا: أي اعطني زيدا، والنفس: الروح والدم، ونفس الشيء: عينه وذاته، والجمع: نفوس وأنفس، وفي نفسي أن أفعل كذا: أي مرادي وقصدي.. والمراد: انتبهوا إلى أنفسكم واعتنوا بها كثيرا، فطهروها وألزموا أمر صلاحها وهدايتها، واحفظوها من التردي والهلكة، وذلك بترك الذنوب والمعاصي، وتزكيتها بالعلم والعمل الصالح، والتمسك بسنن الأنبياء والأوصياء عليهم السلام والزموا إمامكم وجماعتكم وتواصوا بينكم بالحق وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة لكي تحصلوا على خير الدنيا وخير الآخرة، فأنتم خير أمة متضامنة أخرجت للناس، ولا يوحشكم ضلال من ضل من الناس، فإن الله سبحانه وتعالى هو المرجع الحاكم على الجميع بحسب أعمالهم.

وقيل: الزموا أنفسكم ولا تتجاوزوها إلى غيركم ما لم تصلحوها، فإن الاشتغال بالغير قبل إصلاح النفس: سفاهة (السفة: ضد العلم والحلم والتعقل

---

(١) المائدة: ١٠٥.

وأصله الخفة، والسفاهة: خفة في النفس لقلة التعقل في أمور الدنيا والدين) وسببا لفساد آخر مقتبس من الغير.

وهذا القول غير مقبول:

- لأن لا أحد من الناس العاديين خالي من الفساد في نفسه.

قول الله تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾(١).

وحتى الأنبياء عليهم السلام درجات.

قال الله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ﴾(٢).

وقال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾(٣).

- أن العمل بهذا القول يؤدي إلى تعطيل الكثير من الفرائض الإسلامية، مثل: الجهاد في سبيل الله تعالى، والدعوة إلى سبيله سبحانه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

يقول الإمام الخميني قدس سره: « لا يشترط في الآمر والناهي (يعني الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر) العدالة أو كونه آتيا بما أمر به وتاركا لما نهى عنه، ولو كان تاركا لواجب وجب عليه الأمر به مع اجتماع الشرائط كما يجب عليه أن يعمل به، ولو كان فاعلا لحرام يجب عليه النهي عن ارتكابه كما يحرم عليه ارتكابه »(٤).

---

(١) يوسف: ١٠٦.

(٢) البقرة: ٢٥٣.

(٣) الإسراء: ٥٥.

(٤) تحرير الوسيلة. ج١. ص٤٧٥. المسألة: ٢٠.

ويقول السيد الخوئي تتُّل: « لا يختص وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بصنف من الناس دون صنف، بل يجب عند اجتماع الشرائط المذكورة على العلماء وغيرهم، والعدول والفساق، والسلطان والرعية، والأغنياء والفقراء، وقد تقدم أنه إن قام به واحد سقط الوجوب عن غيره وإن لم يقم به أحد أثم الجميع، واستحقوا العقاب »[1].

وقد اختلف الفقهاء في مدرسة الخلفاء حول شرط العدالة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى قولين:

- من اشترط العدالة وقال: ليس للفاسق أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، واستدلوا على ذلك بقول الله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾[3].

- ومن لم يشترط العدالة، فقال سعيد بن جبير: « إذا لم يأمر بالمعروف وينه عن المنكر إلا من لا يكون فيه شيء لم يأمر أحد بشيء »[4].

لا يضركم من ضل إذا اهتديتم: الضرر: الهزال والشدة والضيق وسوء الحال والنقص في الأنفس والأموال وضد النفع، والضراء: ما يصيب الإنسان في نفسه، مثل: المرض والفقر، والضار: المؤذي، والضرير: الأعمى وذو الحاجة، وضره وضاره: ضايقه وخالفه وأوقع به الأذى والضيم والمكروه، والضرار: الفعل على سبيل المضارة والإيذاء، والضرة: زوجة الزوج، والجمع: ضرائر، والضلال: الضياع والهلاك والغياب والنسيان والباطل والعدول عن الطريق المستقيم: عمدا أو

---

(١) منهاج الصالحين. ج١. ص٣٥٢. المسألة: ١٢٧٢.

(٢) البقرة: ٤٤.

(٣) الصف:٢- ٣.

(٤) الموسوعة الفقهية. وزارة الأوقاف - الكويت. ج٦. ص٢٤٩.

سهوا، قليلا أو كثيرا، وضد الهدى والرشاد، وضل: ضاع وهلك، وضل سعيه: فشل فيه، وأضله الشيطان: أعماه وأبعده عن الصواب، وأضل أعمالهم: أبطلها وأذهب فائدتها، والضال: كل من ينحرف عن الدين الحق: قولا وعملا، والجمع: ضلال، والضالة: كل ما ضل أو ضاع أو فقد من المحسوسات والمعقولات، والجمع: ضوال، والضليل: كثير الضلال، والمضل: المبعد عن الحق والصواب، والجمع: مضلون، والهدى: الرشاد والدلالة بلطف إلى ما يوصل إلى المطلوب، وهداه الطريق: عرفه وبينه وساقه إليه، والهادي: المرشد والدليل إلى الخير، وهو اسم من أسماء الله الحسنى، ومعناه: الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ما خلق لما أراد منه في دينه ودنياه وجميع أمره، المبين للخلق طريق الحق، ولخواص عباده معرفة ذاته والحكمة والطريق إلى المرتبة التي يستحقونها، ولعموم عباده معرفة آياته وطريق صلاحهم في معاشهم ودينهم، وإلى المذنبين طريق التوبة والعودة إلى الحق والصراط المستقيم، والجمع: هداة، واهتدى: استرشد وقام على الهداية، واستهدى: طلب الهدى.. والمراد: إذا تركتم المحرمات، وأديتم الواجبات، وأمرتم بالمعروف، ونهيتم عن المنكر، فليس عليكم وزر أعمال غيركم وضلالهم، ولا يضروكم بشيء من ضلالهم ومكرهم وخدعهم وكيدهم، أما إذا لم تهتدوا فهم يضروكم قطعا لسنخيتكم لهم واقتباسكم الفساد منهم.

إلى الله مرجعكم جميعا: رجع: عاد، ورجع الكلام: رده، ورجع الصدى: مايرده عليك المكان الخالي إذا صوت فيه، والمراجعة: المعاودة، والرجعة: الرجوع إلى الدنيا بعد الموت، والرجيع: كل شيء يردد، والترجيع: ترديد الصوت في الحلق كقراءة أصحاب الألحان، وتراجع القوم الكلام: تداولوه، والرجع: المطر بعد المطر والسحاب الذي يرجع بالمطر إلى الأرض، والمرجع: الرجوع ومحل الرجع، والجميع: الجماعة كلها وضد المتفرق، وجامع الناس: المؤلف والمقرب بينهم، وأمر جامع: له خطر يجتمع لأجله الناس، وانجمع الشيء: انضمت أجزاؤه وتقاربت أفراده، وجمع المتفرق: ضم بعضه إلى بعض، والمجموع: الذي جمع.. والمراد: تعودون إلى الله

سبحانه وتعالى جميعا (ضالين ومهتدين) في يوم القيامة.

فينبئكم بما كنتم تعملون: النبأ: الخبر، والجمع: أنباء، والنبي: الذي يخبر عن الله تعالى بواسطة الوحي، والجمع: أنبياء، ونبأ: أخبر، واستنبأ: استخبر، ونابأه: أنبأ كل منهما صاحبه، وتنبأ: أدعى النبوة وأخبر بالأمر قبل حدوثه تكهنا، والنبوة: السفارة بين الله عز وجل وبين عباده من أصحاب العقول، والإخبار عن الأمور تخمينا، والعمل: المهنة والصنعة والفعل عن قصد، والجمع: أعمال، والعامل: الصانع وصاحب المهنة والذي يتولى تدبير أمور شخص من الأشخاص (ماله وعمله وملكه) والذي يأخذ الزكاة من أهلها، والجمع: عمال، وأعمله واستعمله: جعله عاملا، والمعمل: مكان يجمع العمال وآلات العمل للعمل، والجمع: معامل، والعميل: من يتعامل مع غيره، والجمع عملاء.. والمراد: يخبركم بما كنتم تعملون في الدنيا من أعمال الهداية والضلال، فيجازيكم كل بحسب عمله، وفيه وعد للمؤمنين، ووعيد للضالين.

مضامين الآية الشريفة المباركة

تتضمن الآية الشريفة المباركة حقائق أساسية، منها:

الحقيقة (١): أن غاية الانسان لا تنفصل عن الطريق الذي يسلكه، فكل سالك لطريق ينتهي إلى ما ينتهي إليه الطريق الذي سلكه، فيجب على كل إنسان:

- أن يدقق في الطريق الذي يسلكه، إذا أراد حسن العاقبة والوصول إلى السعادة الأبدية الخالدة.

- وأن يعلم علم اليقين بأن الطريق الذي يسلكه هو الطريق الواقعي الصحيح الذي يوصله إلى غاية وجوده في الحياة. فالعلاقة بين الطريق والغاية علاقة واقعية، فلا يجوز أن يخدع الإنسان نفسه بأن يطلب غاية من طريق غير

طريقها، فإن فعل ذلك فهو ضال كذاب وإن لبس لباس القديسين والأطهار ولن ينفعه ذلك بشيء.

قال الله تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾[1].

الحقيقة (٢): أن جميع الناس: (المؤمنون والكافرون، الطائعون والعاصون، المنتبهون والغافلون) سائرون إلى الله ذي الجلال والإكرام ومنتهون إليه لا مناص لأحد من ذلك، حيث توفى كل نفس ما عملت وفق ميزان الأعمال الذي لا يضيع عمل عامل ولو كان مثقال ذرة أو أقل. غير أن:

- بعضهم يسلك طريق الرشاد والفوز والفلاح والسعادة.
- وبعضهم يسلك طريق الضلال والخيبة والخسران والشقاء.

فمن يلزم الطريق الصحيح (وهم المهتدون) يصل إلى نهاية الطريق ويحقق الغاية المطلوبة من السلوك، ومن يخرج عن الطريق السوي ويسلك طريقا آخر (وهم الضالون) فإنه مهما يفعل فإنه لا يصل إلى الغاية، وليس له من نصيب إلا التعب والشقاء.

قال الله تعالى: ﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ ۝٣ تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ ۝٤ تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ ۝٥ لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ ۝٦ لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ ۝٧ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ ۝٨ لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ۝١٠ لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ ۝١١ فِيهَا عَيۡنٞ جَارِيَةٞ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٞ مَّرۡفُوعَةٞ ۝١٣ وَأَكۡوَابٞ مَّوۡضُوعَةٞ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصۡفُوفَةٞ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبۡثُوثَةٌ ﴾[2].

---

(١) الأنعام: ١٥٣.

(٢) الغاشية: ١ – ١٦.

الحقيقة (٣): أن التكليف الشرعي لكل مؤمن أن يتحمل مسؤوليته كاملة غير منقوصة في التزام سبيل الهداية والرشاد ومراقبة النفس ومحاسبتها بأن يشتغل:

- بتحصيل العقيدة الواقعية الصحيحة، حتى لا تشتبه عليه الأمور فيضل عن الهدى وينحرف عن الحق والصراط المستقيم.
- وإصلاح نفسه وتزكيتها بالعلم والعمل الصالح على هدي الشريعة الإسلامية السمحة، والالتزام المطلق بها فيما تأمره به وتنهاه عنه في جميع شؤون الحياة: الخاصة والعامة، الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها، وضبط كافة خطواته على هديها العظيم، فهذا زاده الذي أمر بأن يتزود به لآخرته.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾[1].

- أن يقوم بمراقبة النفس ومحاسبتها، فيقوم برصد كل حركة في داخل نفسه من أفكاره ومشاعره، وفي خارجها من أقواله وأفعاله، حتى تستقيم نفسه على الطريقة كما أمره الله تبارك وتعالى.

قول الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾[2].

- وأن يشتغل بإصلاح الناس وهدايتهم وإرشادهم ورعاية أمورهم وحفظ حقوقهم والدفاع عن قضاياهم العادلة: الخاصة والعامة، بقدر ما يستطيع وبقدر ما لديه من إمكانيات مادية ومعنوية، وذلك من خلال الدعوة إلى دين الله عز وجل

---

(١) البقرة: ١٩٧.

(٢) الحشر:١٨- ٢٠.

وإلى شريعته وإلى إقامة العدل بين الناس والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهذه كلها من أركان الدين الإسلامي الحنيف التي لا يمكن التغاضي عنها أو التساهل فيها، وهي من الأسس المتينة والمقومات الأساسية التي قام عليها بنيانه الروحي والاجتماعي، وقد اعتبر الالتزام بها استقامة، وإهمالها انحرافا، وتوعد التاركين لها بما لم يتوعد به على أية معصية غير الشرك بالله عز وجل، فلا تسقط إلا عند اليأس من تأثيرها أو النقص في توفر شروطها.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾[1].

والخلاصة:

- أن مسؤولية الإنسان المؤمن عن الآخرين هي جزء من مسؤوليته عن نفسه، ومما يعود عليه بالنفع في الدنيا والآخرة.

قال الله تعالى: ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾[2].

- أن المؤمنين محاسبون على التقصير في الجهاد وكفاح الشر والضلال ومقاومة الظلم والطغيان ورد المغتصبين لسلطان الله عز وجل، بالحسنى: حين يكون الضالون مجرد أفراد وحين يكون باب الحوار والعمل السلمي لإحقاق الحق وإقامة العدل مفتوحا، وبالقوة: حين تكون القوة الباغية هي التي تصد الناس عن الهدي وتمنع العدل والمعروف من أن يقام.

يقول العلامة السيد قطب: « إن كون الأمة المسلمة مسؤولة عن نفسها أمام الله لا يضيرها من ضل إذا اهتدت، لا يعني أنها غير محاسبة على التقصير في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيما بينها أولا، ثم في الأرض جميعا. وأول

---

(١) آل عمران: ١١٠.

(٢) الإسراء: ٧.

المعروف الإسلام لله وتحكيم شريعته، وأول المنكر الجاهلية والاعتداء على سلطان الله وشريعته. وحكم الجاهلية هو حكم الطاغوت، والطاغوت هو كل سلطان غير سلطان الله وحكمه.. والأمة المسلمة قوامة على نفسها أولا، وعلى البشرية كلها أخيرا »[١].

وقد بين السيد قطب بأن الهدف من قوامة الأمة المسلمة على البشرية:

- أن تقيم العدل بينهم.

- أن تحول بينهم وبين الضلال والجاهلية التي منها أخرجتهم[٢].

فيتحمل الإنسان المؤمن بما سبق: جميع مسؤولياته العينية تجاه نفسه وتجاه مجتمعه عن علم وبصيرة ويقين، وهذا هو طريق هدايته الفعلي الذي يجب عليه أن يسلكه إلى ربه ذي الجلال والإكرام والمنتهي إلى سعادته، فإذا أخذ به فقد أخذ بأسباب السعادة والفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة.

وقد أكد القرآن الكريم:

- بأن الإنسان الضال يكون ألعوبة في يد الشيطان الرجيم ويضره ضلال الضالين المضلين لسنخيته لهم واقتباسه الفساد منهم. أما الإنسان المؤمن فهو في عصمة من ذلك.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ۝ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾[٣].

---

(١) الظلال. ج٢. ص٩٩٢.

(٢) نفس المصدر.

(٣) الأعراف: ٢٠٠ - ٢٠٢.

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ (يعني الشيطان) لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[1].

- يجب على كل مؤمن أن يهتم بإصلاح نفسه فهذا تكليفه، ولا يذهب نفسه ولا يهلكها حسرة على الكافرين والضالين مهما كانت درجة قرابته منهم وعلاقته معهم، فهو غير مكلف بذلك وغير مسؤول عنه وفي غير استطاعته هداية الجميع، ولن يضروه بشيء في الدنيا والآخرة.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾[2].

- أن لا يتتبع عورات الناس ولا يقع فيهم بحجة إنحرافهم.

في الحديث عن علي بن إبراهيم قال: « أصلحوا أنفسكم ولا تتبعوا عورات الناس ولا تذكروهم فإنه لا يضركم ضلالهم إذا كنتم أنتم صالحين »[3].

- أن الجماعة المؤمنة التي تمارس مسؤولية الدعوة إلى الله تبارك وتعالى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يضرها إيذاء الأعداء، ما دامت متحدة متمسكة بدينها، داعية إلى الخير والصلاح بالحكمة والموعظة الحسنة، فلا يخافوهم.

قال الله تعالى: ﴿ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾[4].

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ

---

(١) النحل: ٩٩.

(٢) النحل: ٣٧.

(٣) تفسير البرهان.

(٤) المائدة: ١٠٥.

خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾[1].

وقال الله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ﴾[2].

وقال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[3].

- أن جهل الآخرين وكفرهم أو تقصيرهم وتقاعسهم عن المسؤولية لا ينتج عنه إسقاط المسؤولية العينية الخاصة أو العامة عن المؤمنين، وإن تطلب تحقيق أغراض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اجتماع المؤمنين وتكتلهم وجب ذلك عليهم، فهي دعوة ربانية للمؤمنين إلى التضامن فيما بينهم على الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال الإمام الخميني ﷺ: « لو توقف إقامة فريضة أو إقلاع منكر على اجتماع عدة في الأمر أو النهي لا يسقط الوجوب بقيام بعضهم، ويجب الاجتماع في ذلك بقدر الكفاية »[4].

وقد أثبتت التجارب التاريخية والمعاصرة: بأن العمل الجماعي المنظم، هو الأقدر من الجهود الفردية المبعثرة على تحقيق النتائج المرجوة في فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الصعيد العام، وإليه تتجه أنظار المؤمنين.

---

(١) الحج: ٣٨.

(٢) المائدة:٣.

(٣) آل عمران: ١٧٣ - ١٧٥.

(٤) تحرير الوسيلة. ج١. ص٤٦٤.

الحقيقة (٤): لا ينبغي للمؤمن أن يستوحش من ضلال من ضل من الناس أو قصر في عمله ومسؤولياته: الخاصة أو العامة من الأسلاف وغير الأسلاف حتى وإن كانوا قريبين قرب الأب أو الإبن أو الأخ أو غيرهم، فقد أدى ما عليه من واجب إصلاح نفسه وهدايتها، والسعي لإصلاح الآخرين وهدايتهم، وهذا تكليفه وما يستطيع أن يتحمله من المسؤولية تجاه الآخرين ويحاسب عليه أمام الله عز وجل في يوم القيامة، وهو غير مسؤول بعد ذلك عن تمرد وعدم استجابة الضالين والمقصرين له فيما يدعوهم إليه من الحق والعدل والفضيلة والصلاح، فلا يشغل نفسه بتمردهم، فهو لم يأمر بذلك.

قال الله تعالى: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾[1].

وقال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًاۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾[2].

وقال الرسول الأعظم الأكرم ﷺ: « بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحا مطاعا، وهوى متبعا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك، ودع عنك العوام، فإن من ورائك أياما الصابر فيهن مثل القابض على الجمر، للعامل فيهن أجر خمسين رجلا يعملون كعملكم »[3].

وقال العلامة السيد الطباطبائي: « فعلى المؤمن أن يدعو إلى الله على

---

(١) فاطر:٨.

(٢) الرعد: ٣١.

(٣) التفسير الواضح. تفسير القمي.

بصيرة وأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر في سبيل أداء الفريضة الإلهية وليس عليه أن يجيش ويهلك نفسه حزنا أو يبالغ في الجد في تأثير ذلك في نفوس أهل الضلال فذلك موضوع عنه »[1].

فليس على المؤمنين إلا استفراغ الوسع فيما يتعلق بالأساليب والأدوات وغيرها في الدعوة الصادقة إلى الله تبارك وتعالى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن تحققت الغاية فهو المطلوب، وإلا فقد أدى المؤمنون ما عليهم، وبقيت المسؤولية على غيرهم من الضالين والمقصرين.

قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾[2].

– فالعبرة ليست بالنتائج: استجابة هؤلاء الضالين أو المقصرين أو الفشل في تحصيل الاستجابة، وإنما العبرة بأداء التكليف.

– أن المؤمنين غير مسؤولين عن أعمال الضالين أو المقصرين ولن يحاسبوا عليها أمام الله جل جلاله في يوم القيامة، فلا يتحمل إنسان ذنب غيره، ولا يؤخذ المهتدي بضلال الضال، مهما كانت درجة قرابته به وعلاقته معه.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[3].

وقال الله تعالى: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[4].

---

(١) الميزان. ج٦. ص١٦٤.

(٢) الأعراف: ١٦٤.

(٣) الأنعام:١٦٤.

(٤) البقرة: ١٣٤.

نتائج مهمة

ونتوصل مما سبق إلى النتائج المهمة التالية:

النتيجة (١): تنقسم الهداية الإلهية إلى الناس في الحياة الدنيا إلى ثلاثة أقسام:

- الهداية التكوينية العامة لجميع المكلفين، وتشمل: العقل والفطرة والمعارف الضرورية.
- الهداية التشريعية العامة لجميع المكلفين، وتشمل: ما جاءت به الكتب السماوية المنزلة، وما جاء به الأنبياء والأوصياء عليهم السلام من أقوال وسنن، وما يبينه العلماء من تفاصيل على ضوء الكتاب والسنة وفق منهج علمي رصين.
- الهداية الخاصة للمؤمنين بالتوفيق للإيمان والحكمة والطاعة والأعمال الصالحة.

النتيجة (٢): أن الحق حق في نفسه، وأن العدل عدل في نفسه، وأن الاستجابة لهما أو عدم الاستجابة لا تغير شيئًا على صعيد هذه الحقيقة.

النتيجة (٣): أن الله جل جلاله مع الحق والعدل، وأنه غالب على أمره، وسوف ينتهي الأمر - بإرادة الله ونصره وتدبيره سبحانه - إلى انتصار الحق والعدل على أيدي المؤمنين المهتدي الحاملين للواء الحق والعدال والمضحين في سبيل إقامتهما بالنفس والنفيس، وأن عمل الضالين والمقصرين ومكرهم بالليل والنهار لن يغير النتيجة النهاية التي سوف تنتهي إليها المسيرة البشرية بصورة حتمية.

قول الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ

﴿ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾[1].

النتيجة (٤): أن للإنسان مبدأ ونهاية محددين، وأن بين المبدأ والنهاية طريق اضطراري يجب على الإنسان أن يسلكه ليصل إلى نهايته ويحقق غاية وجوده، وهذه حقيقة تكوينية ثابتة لا تتغير بالعلم أو الجهل بها، ولا بالالتفات إليها أو الغفلة عنها، ولكن التفات الإنسان إليها ومراعاته لها يؤثر في عمله تأثيرا إيجابيا بشكل واضح لا لبس ولا شك فيه.

قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ﴾[2].

وقال الله تعالى: ﴿ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[3].

وأن لهذا الطريق – بطبيعة الحال – زاد، وهي:

- أعمال القلب: الاعتقادات الصحيحة والباطلة.
- وأحوال النفس: الأخلاق الحسنة والقبيحة.
- وأعمال الجوارح: الصالحة والطالحة.

فمن سلك الطريق الصحيح: طريق الرشاد والفلاح (وهم المهتدون) فهو يحقق غاية وجوده ويفوز في الامتحان، ويحصل على رضا الرب الجليل والجنان.

ومن يسلك الطريق غير السوي: طريق الهلاك والبوار (وهم الضالون) فهو يفشل في تحقيق غاية وجوده، ويصاب بالخيبة والخسران المبين، وهو الفشل في امتحان الحياة، ويبوء بغضب الله عز وجل والنيران.

---

(١) التوبة: ٣٣.

(٢) الانشقاق: ٦.

(٣) الزمر: ٩.

فالمطلوب من الإنسان: هو أن يدقق بعناية فائقة في اختيار طريقه في الحياة، ولا يفرط في ذلك أو يقصر فيه قيد شعرة، فيكون من الهالكين.

قول الله تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾(١).

النتيجة (٥): أن المقصد النهائي والغاية الكبرى للإنسان في الحياة هو حسن العاقبة وتحقيق السعادة، وأن مرجع العباد جميعا: من اهتدى ومن ضل، هو إلى الله عز وجل وحده لا شريك له.

قول الله تعالى: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾(٢).

فيحكم بينهم بالحق، ويجازي كل واحد بحسب عمله.

قول الله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۝ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾(٣).

النتيجة (٦): أن حسن العاقبة وتحقيق السعادة (النجاح في امتحان الحياة) يكون من خلال سلوك طريق الهداية والحصول على رضا الرب الجليل وثوابه الجزيل في يوم القيامة وهو دخول الجنة، وأن سوء العاقبة وتحصيل الشقاء (الرسوب في امتحان الحياة) يكون من خلال سلوك طريق الضلال، فيبوء العبد بغضب الرب الجليل وعقابه العظيم في جهنم.

النتيجة (٧): أن الزاد المعنوي الذي يقوم الإنسان بتحصيله في طريقه إلى الله ذي الجلال والإكرام، يجب أن يكون مناسبا لتربية النفس الإنسانية وتزكيتها

---

(١) الأنعام: ١٥٣.

(٢) النجم: ٤٢.

(٣) النجم: ٣٩ – ٤١.

واستكمالها بما هي وفق حقيقة الصنع للنفس.

قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾[1].

وقال الله تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾[2].

وليس يكتفي بأي زاد كان أو يخترعه من عند نفسه.

قال الله تعالى: ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾[3].

فهو زاد واقعي مناسب لسنخ النفس وطبيعتها واستكمالها ومحقق لغاية وجود الإنسان في الحياة وموافق لأمر الله عز وجل ونهيه، فإذا كان الزاد كذلك حصلت النفس على سعادتها، وإلا كانت شقية خاسرة في سعيها.

قال الله تعالى: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ۝ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾[4].

والخلاصة:

- أن المنتهى في سير الإنسان هو إلى الله ذي الجلال والإكرام، فهو الغاية وعنده حسن الثواب.

---

(١) الأعلى: ٢ - ٣.

(٢) الشمس: ٧ - ١٠.

(٣) البقرة: ١٩٧.

(٤) طه: ١٢٣ - ١٢٧.

- أن مسؤولية الإنسان هو إصلاح نفسه.

- أن دعوة الإنسان الآخرين إلى الهداية، هي في الحقيقة والواقع من شؤون اشتغال الإنسان بإصلاح نفسه وسلوكه في سبيل ربه ذي الجلال والإكرام وتحصيل سعادته الأبدية الخالدة، وإلا لم يأمر به على الإطلاق، لأنه تضييع للعمر والجهد (رأس مال الإنسان في الحياة) وهو بخلاف العقل والحكمة، فليس من العقل والحكمة أن يشتغل الإنسان في الحياة بشيء ليس فيه خير نفسه وسعادته الحقيقية وبما يعود عليه إيجابيا في تقرير مصيره الوجودي في يوم القيامة ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾[1].

قال الله تعالى: ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾[2].

النتيجة (٨): ضرورة محافظة المؤمنين على استقرارهم النفسي واطمئنانهم الروحي إلى الحق والعدل أمام تعنت الضالين والمقصرين وما يقترفونه من معاصي وآثام، وما يرتكبونه من انتهاكات وجرائم فظيعة ضد حقوق الإنسان، مثل: القتل خارج القانون، والاعتقال التعسفي، والتعذيب، ونحوه، وما يحققونه من انتصارات ومكاسب على كافة الأصعدة والمستويات، فلا يهزهم ذلك ولا يقلقهم على الصعيد الشخصي والمجتمعي أو يضعف معنوياته في تمسكهم:

- بالدين الحنيف والتكليف الشرعي الخاص.
- وبالمواقف العادلة في الحياة.
- وبالحياة الروحية والمعنوية، بحجة أن الزمان والظروف لا تسمح بذلك، فتهتز مواقفهم الرسالية في الحياة.

---

(١) آل عمران: ١٠٦ – ١٠٧.

(٢) الإسراء: ٧.

قال الله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ﴾[1].وليعلموا:

- بأن الحق حق وإن ترك، والباطل باطل وإن أخذ به.

قال الله تعالى: ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[2].

- وأن مرجع الناس جميعا إلى الله عز وجل، وانه يحاسبهم بحسب أعماله يوم القيامة.

- أن القوة والنصر بيد الله عز وجل لا بيد غيره، وأن الأيام دول بين الناس.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[3].

النتيجة (٩): أن تنصب اهتمامات المؤمنين في علاقتهم مع الضالين والمقصرين على أداء تكليفهم الشرعي نحوهم، وهو دعوتهم إلى الهدى بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن لإبراء ذمتهم أمام الله جل جلاله والتاريخ وإقامة الحجة عليهم:

- فلا يشغلهم ذلك عن صلاح أنفسهم وتزكيتها بالعلم والعمل الصالح فينسوها فيصيروا مثلهم.

---

(١) القصص: ٥٧.

(٢) المائدة: ١٠٠.

(٣) آل عمران: ١٣٩ - ١٤١.

في الحديث عن علي بن إبراهيم قال: « أصلحوا أنفسكم ولا تتبعوا عورات الناس ولا تذكروهم فإنه لا يضركم ضلالهم إذا كنتم أنتم صالحين »[1].

- أن لا يدخلوا في أساليب متهورة بحجة هدايتهم فتنقلب عليهم، فليس من الحكمة والدين أن يهلك الإنسان نفسه على الصعيد الوجودي في سبيل إنقاذ الغير من الهلاك، فهذا السلوك هو بخلاف العقل والفطرة والدين.

- عدم حاجة المؤمنين إلى سلوك الطرق غير المشروعة لتحقيق الأهداف الإلهية العظيمة، أي عدم حاجتهم للعمل بقاعدة ميكيافلي: الغاية تبرر الوسيلة.

النتيجة (١٠): ضرورة التمييز بين الدعوة إلى الدين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبين محاسبة الضالين والمقصرين على أعمالهم، فالدعوة إلى الدين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الأمور الواجبة على المؤمنين، ولكن ليس للمؤمنين الحق في محاسبة الضالين والمقصرين على أعمالهم، لأن حاسبهم على الله لا على المؤمنين.

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾[2].

النتيجة (١١): ضرورة التمييز بين الموقف الفكري (الايديولوجي أو العقائدي) من الضالين والمقصرين والموقف الحقوقي والسياسي، فعلى الصعيد الفكري يرفض المؤمن الكفر والضلال والعصيان رفضا قاطعا، ولا يتسامح في ذلك قيد شعرة، ولكنه على الصعيد الحقوقي يحفظ لهم جميع حقوقهم في الحياة، ويمكنه التعاون معهم على الصعيد السياسي لتحقيق المشتركات.

---

(١) تفسير البرهان.

(٢) يونس: ١٠٨.

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[1].

فلا الموقف الفكري يلغي الموقف الحقوقي والسياسي، ولا الموقف السياسي والحقوقي يلغي الموقف الفكري، وأن الخلط بين الموقف الفكري وبين الموقف السياسي والحقوق يؤدي إلى كثير من الاضطراب والخطأ في المواقف، وقد يؤدي إلى الظلم المنهي عنه في القرآن الكريم.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[2].

البعد الاجتماعي للآية الشريفة المباركة

وقد ذهب بعض المفسرين إلى القول: بأن الخطاب في الآية الشريفة المباركة يتسع ليحمل على الخطاب الاجتماعي، فيكون المخاطب بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾[3] هو مجتمع المؤمنين، وذلك بإصلاح أنفسهم من خلال العمل بالكتاب والسنة الشريفة، والاهتداء بالهداية الإلهية قولا وعملا (على مستوى النظرية والتطبيق):

- بأن يحتفظوا بالمعارف الدينية الصحيحة.

---

(١) آل عمران: ٦٤.

(٢) المائدة: ٨.

(٣) المائدة:١٠٥.

- ويلتزموا بإقامة الأحكام الشرعية: الفردية والمجتمعية، وإقامة الشعائر في المجتمعات الإسلامية.

- ولا يذوبوا في المجتمعات الأخرى ولا ينخدعوا بمزايا العيش الباطلة في الشرق والغرب ولا يقلدوهم فيما هم فيه من الانهماك في الشهوات والتمتع بمزايا الحياة المادية وإهمال الحياة الروحية.

قول الله تعالى: ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾[1].

فإن فعلوا ما أمروا به:

- كانوا في حصن حصين وفي مأمن من أضرار المجتمعات الضالة: السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وتشوهاتها الفكرية والأخلاقية والسلوكية.

قول الله تعالى: ﴿ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾[2].

- ولن تستطيع المجتمعات الضالة تبديل المجتمعات الإسلامية إلى مجتمعات غير إسلامية حتى لو لجأوا إلى استخدام القوة ضد الدول والمجتمعات الإسلامية.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَـٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾[3].

---

(١) آل عمران: ١٩٦ - ١٩٧.

(٢) المائدة:١٠٥.

(٣) آل عمران: ١١١.

البحث (٣): معرفة النفس

النفس في اللغة

للنفس في اللغة معاني عديدة، منها:

- الروح، يقال خرجت نفسه، أي خرجت روحه.
- ذات الشيء وعينه، يقال: جاء بنفسه، أي: بعينه وشخصه.
- شخص الإنسان، قال الله تعالى: ﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾[1] أي: من قتل إنسانا أو أحي إنسانا.
- الدم، فيقال: ذا نفس سائلة، أي ذا دم سائل.

والجمع: نفوس وأنفس.

النفس في الاصطلاح

جوهر مجرد عن المادة وعوارضها - أي ليست جسما ولا حالة في الجسم - ولها حكم غير حكم التركيبات الجسمية، ولها اتصال تدبير بالجسم، ومن خواصها الشعور والإرادة وسائر الصفات الإدراكية، وهي حادثة بحدوث

---

(١) المائدة: ٣٢.

الجسم وليست سابقة عليه وحالة فيه، وبالموت ينقطع الاتصال بينهما .

حقائق تتعلق بالنفس الإنسانية

وهذه بعض الحقائق المهمة التي تتعلق بالنفس الإنسانية:

- أنها متحدة بالنوع، أي: فهي في جوهرها واحدة في النوع الإنساني، والناس بمجموعهم وحدة إنسانية واقعية واحدة، ويتمتعون بوجدان إنساني مشترك واحد، فوق الوجدان العائلي والطبقي والديني وغيرهم من الوجدانيات الخاصة.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾(١).

- وهي مبدأ الحياة والحركة والفكر والأخلاق، فكلما كانت النفس أكمل، كلما سمت درجة حياة الإنسان وروحيته، وكانت أخلاقه أثبت وأفضل، وفكره أعمق وأشمل.

- والنفس الإنسانية العاقلة، تتضمن جميع القوى الطبيعية والشعورية الموجودة في النبات والحيوان، مضافة إلى القوى الإنسانية الخاصة، مثل: العقل والإرادة والاختيار، بحيث يصنع الإنسان نفسه، ويبني لنفسه عددا من الابعاد الثانوية - بالاضافة إلى الابعاد الفطرية - ويحدد مصيره كيف يريد بواسطة الخصال والطباع والملكات الروحية والأخلاقية التي حصل عليها عن وعي وحرية الاختيار.

---

(١) النساء: ١.

- وهي باقية بعد مفارقتها للجسم، وبها يحشر الإنسان في يوم القيامة وعليها الجزاء، حيث أنها الحافظة لوحدة الإنسان وشخصيته، فيكون الإنسان بها في يوم القيامه هو نفسه الإنسان في الدنيا، ولكن بصورة ملكاته الروحية والأخلاقية.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾[1].

والخلاصة: أن الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي تصنعه العوامل التربوية، مثل: العلم والإرادة والاختيار والعمل، فهو ليس جامدا في كماله بحيث لا يتحرك صعودا وهبوطا، مثل: جنس الملائكة والحيوان، وإنما هو حامل لقابلية الإنسانية، ويسمو ويتكامل من الناحية الروحية والمعنوية، بحسب ما يريد أن يكون بواسطة العلم والعمل والخصال الروحية والأخلاقية المكتسبة التي يحصل عليها، ويصنع بذلك شخصيته الإنسانية المتميزة، ويحدد قيمته الجوهرية، قول الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[2] وعلى ذلك يحشر في يوم القيامة ويحاسب ويجزى.

يقول البروفسور محمد عبد الهادي أبو ريدة: « والإنسان في الحقيقة ليس كالكائنات الأخرى التي لها وجودها الواقع وليس لها مصير تحققه بفضل مجهودها، بل له غاية عليا ينتهي إليها، فيجب أن يعرفها ويعمل على تحقيقها »[3].

ويقول العلامة الشهيد المطهري: « فالإنسان هو الموجود الوحيد الذي يمكن الفصل بينه وبين ما هيته، أي بين الإنسان والإنسانية، وما أكثر الناس الذين

---

(١) آل عمران:١٦٩.

(٢) الحجرات: ١٣

(٣) مباديء الفلسفة والأخلاق. ص١٦٢.

لم يصلوا إلى الإنسانية ولا زالوا في المرحلة الحيوانية، كبعض الأشخاص البدويين المتوحشين، وما أكثر الناس الذين مسخوا وتحولوا إلى عدو الإنسان كأكثر المتظاهرين بالمدنية »[1].

ويقول صدر المتألهين الشيرازي: « ليس الإنسان نوعا، وإنما هو أنواع، بل إن كل فرد هو نوع في كل يوم غير نوع اليوم الآخر »[2].

وهذا ما تسميه المدرسة الوجودية بأصالة الوجود، ويقول أتباعها: بأن الإنسان وجود بلا ماهية، وهو الذي يهب لنفسه الماهية باختيار طريقه في الحياة.

فكل موجودات الكون يُعلم قبل أن تُوجد ما هي وما ستكون، إلا الإنسان فإنه يوجد ولا يُعرف ما سيكون، وأنه يصنع نفسه ويختار ماهيته بنفسه، بعشقه وما يكتسبه باختياره من أفكار وملكات، وما يقوم به بإرادته من أعمال، وما يتخذه من مواقف في الحياة.

معرفة النفس

قال الرسول الأعظم ﷺ في الحديث المشهور: « من عرف نفسه فقد عرف ربه »[3].

فالإنسان مطلع على نفسه وعلى العالم، ويسعى لمزيد من المعرفة عنهما، حيث أن جوهر ذات الإنسان المعرفة. فالإنسان يبحث عن الحقيقة ويتطلع إلى اليقين ويتعطش إلى الاطمئنان والارتواء في أحضان الحقيقة. وقد حث الدين الإسلامي الحنيف الإنسان على الانتباه إلى نفسه والسعي لمعرفتها كما هي، ومعرفة منزلته

---

(١) الإنسان في القران.ص٧٥- ٧٦.

(٢) نفس المصدر.

(٣) البحار. ج٢. ص٣٢.

الواقعية في عالم الوجود والخلقة، ومعرفة غاية وجوده، وعدم الغفلة عن نفسه، وأعطى الإسلام الحنيف لمعرفة النفس أهمية أكبر من المعرفة بالعالم، فهي السبيل الذي يوصل الإنسان إلى المنزلة السامية التي تليق به.

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: « المعرفة بالنفس أنفع المعرفتين »[1].

والمراد بالمعرفتين - بحسب الظاهر- :

- معرفة النفس.
- ومعرفة العالم.

ومعرفة النفس تعني معرفة حقيقتها، وهذا يؤدي إلى:

- معرفة عظمة الصنع الإلهي من خلال الوقوف على عجائب الخلقة في روح الإنسان وجسده، وإدراك كونها مفتقرة في وجودها إلى واجب الوجود، لأن وجود الممكن محال بدون وجود الواجب، والوقوف على صفاته الجمالية والجلالية المتجلية في وجودها وصفاتها، مثل: أنه حي لا يموت، وقادر لا يعجزه شيء، وعالم لا يغيب عن علمه شيء، وأنه المالك لها والغني عنها، وأنه سرمدي لا أول له وأزلي لا نهاية له، وإدراك تعلقها بساحة العظمة والكبرياء والجلال والجمال والكمال اللامتناهي والسير الاضطراري إليه، وإدراك أنها منقطعة عن كل شيء سواه.

قال الرسول الأعظم الأكرم صلى الله عليه وآله: « من عرف نفسه فقد عرف ربه »[2].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: « أعرفكم بنفسه أعرفكم بربه »[3].

---

(١) الميزان. ج٦. ص١٧٠.

(٢) البحار. ج٢. ص٣٢.

(٣) الميزان. ج٦. ص١٧٠.

والخلاصة: أن الإنسان يدرك بأن وجوده موصول بوجود الله جل جلاله، وأنه غير مستقل عنه بأي حال من الأحوال، وأن سعادته وصلاح حاله يكون في سلوك طريق عشق الله ذي الجلال والإكرام وطاعته في جميع أمره ونهيه وعدم الاستقلال عنه أو معصيته في أي أمر من أمور الحياة: صغيرا كان أو كبيرا، خاصا أو عاما، فالذات الإلهية المقدسة هي مصدر لكل الكمالات والفضائل لديه، وبدون الاتصال بها يهوي الإنسان إلى درك الحيوانية والشيطنة.

- معرفة المعاد حيث يدرك الإنسان من نفسه بأن الله جل جلاله خلقها لحكمة وغاية كريمة ولم يخلقها عبثا، ولا حكمة ولا غائية بدون البعث والحساب، فمرجعها إليه بعد موتها ومفارقتها هذه الحياة، وأنه محاسبها على أعمالها ومجازيها بالثواب أو العقاب.

قال الله تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾[1].

وقال الله تعالى: ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾[2].

- ومعرفة الأنبياء والأئمة عليهم السلام حيث أنهم الطريق إلى معرفة الله ذي الجلال والإكرام والساعون لربط الإنسان به جلا جلاله وتحقيق إرادته التشريعية في الواقع الإنساني وتحقيق غاية خلق الإنسان وسعادته فيس الآخرة.

- ومعرفة كرامة نفس الإنسان وقدسيته وشرف ذاته وعزتها، فيأبى إذلالها بالخضوع إلى الرذائل والشهوات والملذات الحسية أو لحكم الطاغوت وقوى الاستكبار العالمي وغيرها من قوى الشر والشيطان: الداخلية والخارجية.

---

(١) المؤمنون: ١١٥.

(٢) النجم:٣١.

- ومعرفة أهمية الروح الإنسانية التي هي نفخة ربانية، ومن ثم الاشتغال بتطهيرها من شوائب الأخلاق والملكات، وإصلاحها وتأييدها وتكميلها في شعورها وإرادتها وتزكيتها بالعلم والعمل الصالح، والطيران بها إلى عالم الملكوت والجلوس في محضر الإنس مع الملائكة المقربين، وعدم التفريط فيها باتباع الهوى والشيطان، والانهماك في الملذات الحسية والتمتعات الحيوانية، وحبسها في عالم المادة والجسد.

- وإدراك المنافع والمضار المادية والروحية للنفس، ومعرفة أعدائها من داخلها وخارجها، والتحرك في مواجهة الأخطار والأعداء، والسعي لجلب المنافع الحقيقية للنفس، والتعاون مع الأصدقاء الروحانيين، مثل: العقل من أجل كمالها وسعادتها في الدنيا والآخرة، وبدون هذا المعرفة يكون الإنسان عرضة للضياع والهلاك في الدنيا والآخرة بسوء اختياره.

- والاطلاع على خصائص النفس وقدراتها وطاقاتها وإمكاناتها ومواهبها واستعداداتها الجسمية والروحية، ليتسنى للإنسان تربيتها وتقويتها وتقويمها من أجل تحقيق كمالها وسعادتها في الدنيا والآخرة.

يقول العلامة الشيخ ناصر مكارم الشيرازي: « وحال الشخص الذي لا يتعامل مع ذاته من موقع المعرفة والوعي، كحال الذي دفن في بيته كنوزا وهو لا يعلم بها، وهو بأمس الحاجة إليها لفقره المدقع، فيموت جوعا بدون أن يجد في نفسه باعثا على الانتفاع بها في واقع الحياة »[1].

- ومعرفة أن الإنسان اجتماعي بطبعه، وأنه كلما كان الناس أكمل في إنسانيتهم، كلما تحققت فيهم القيم الإنسانية، وساد بينهم التعاون والتكاتف والتعاطف والتراحم وإجلال المجتمعات الإنسانية، والسعي لإقامة علاقات إنسانية:

---

(١) الأخلاق في القرآن. ج١. ص٢٧٥.

أسرية ووطنية ودولية، اجتماعية وسياسية واقتصادية وثقافية وغيرها، وفقا لقواعد واقعية ومضامين حقيقية تحافظ على كرامة الإنسان وحقوقه، ومال الإنسان - بقدر كماله الإنساني - إلى تحمل المسؤولية العامة تجاه أبناء النوع وحفظ مصالحهم العامة والخاصة. أما إذا كان الإنسان جاهلا بحقيقة نفسه، فإنه يكون أنانيا وتافها وحقيرا بلا هدف حقيقي ولا غاية واقعية، وتنخفض القيم الأخلاقية والمعنوية لديه، ويكون مقياس عمله الربح والخسارة المادية والشخصية، ويكون شعاره في الحياة: المنفعة لي، ولن أسعى لأن يكون لأحد من المنفعة مثل ما هي لي.

- وإدرك أن المسؤولية التي يتحملها الإنسان تجاه أبناء جنسه هي جزء من مسؤوليته تجاه نفسه، ويكون ألمه تجاه الآخرين - في الحقيقة - ألم باطني يعبر عن الشعور بحاجة فطرية في نفسه، فهو ألم الحب والذوبان في الحقيقة، أكثر منه ألم العلم والمعرفة بالحقيقة.

- وأنه يتحمل المسؤولية على ضوء هدي ربه ونوره وتعبيرا عن محبته له وخشيته، وبهدف الوصول والتقرب إليه، ولا يتحملها بصورة مستقلة عنه، لأن الله جل جلاله هو المالك والمربي للإنسان على الإطلاق: في صورته الفردية والمجتمعية، والعالم كله من مظاهر أسمائه وصفاته، فله الحكم وله الأمر والنهي في جميع الأمور والأحوال.

قال الله تعالى: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(1).

والخلاصة: أن غاية الإنسان العارف بنفسه، الصعود بنفسه وبالناس جميعا إلى الله رب الأرباب، ودفعهم نحو الكمال الإلهي المطلق، عن طريق التمسك بالحق والعدل والقيم الإنسانية الفاضلة على الصعيدين: الفردي والمجتمعي،

---

(١) يوسف: ٤٠.

وإيقاظ الطاقات البشرية الفطرية الكامنة، وإشعال نار الحب الكامن في وجودهم، والانتقال التدريجي بالقابليات الإنسانية من القوة إلى الفعلية، ليبدع عالما جديدا في تكامل المسيرة الإنسانية إلى الله ذي الجلال والإكرام. وبهذا يهتدي الإنسان من خلال معرفة بنفسه إلى:

- تكليفه الشرعي تجاه ربه رب الأرب ومسبب الأسباب: على المستوى الفردي والمجتمعي.

- التمسك بدين الله ذي الجلال والإكرام سبحانه وتعالى وبهدي النبوة والإمامة، من أجل إقامة حياة إنسانية صالحة: فردية ومجتمعية، وإسعاد نفسه ونوعه في الدنيا والآخرة.

نتيجة مهمة

ومما سبق نتوصل إلى النتيجة المهمة التالية، وهي: أن جهل الإنسان بنفسه، هو منشأ ظهور الفلسفات المادية والإلحادية والعبثية والتشاؤمية، والمسؤول عن انخفاض مستوى القيم والأخلاق لدى الإنسان على الصعيد الفردي والمجتمعي ونشوب الحروب والكوارث البشرية.

موانع معرفة النفس

ثمة موانع كثيرة تقف في وجه معرفة الإنسان لنفسه ينبغي معرفتها والوقوف عليها من أجل تجنب وقوع الإنسان في دائرة اللاوعي الأسود الذي يمنع النمو الحر لفطرة الإنسان، ويهدده بالضياع والشقاء والهلاك، حيث لا يفيده بعد علم ولا معرفة، منها:

- الغفلة عن الأمور الحقانية وإعمال العقل فيما لا ينبغي له من الأمور كالسحر والطلمسات وجمع الاصطلاحات وتكثير البراهين من أجل اللذة والشعور بالتفوق العلمي والشخصي، وعدم التفكر فيما يصلح حال الإنسان. وهذا من الجهل الذي هو أضر شيء بالإنسان، فهو منشأ الأفكار الضالة والسلوكيات الضارة في حياة الإنسان، حيث يشل الجهل حركة العقل والتفكير، ويجعل الإنسان يتخبط يمينا وشمالا ولا يدرك طريقه المستقيم الذي يؤدي به إلى الخير والكمال والسعادة وهو يحسب انه يحسن صنعا.

- الوساوس والأفكار الشيطانية الفاسدة، التي تنشأ من الوقوف خلف حجاب عالم الطبيعة والمحسوسات المادية، والتعلق بحب الدنيا ومظاهرها الذي هو رأس كل خطيئة. وقد ابتلي الإنسان المعاصر بأنظمة سياسية واقتصادية واجتماعية تتجاهل حقيقة الإنسان باعتباره ذاتا أصيلة خارجة عن المادة، وتتسابق على السلطة وزيادة الانتاج من أجل إشباع الحاجات المادية للإنسان، ليكون الإنسان غريبا عن نفسه، وغارقا في العنف والمادية والخطيئة.

- النرجسية والاستغراق في الذات، فلا تسمح له نرجسيته برؤية حقيقة ذاته ونوازعها ونواقصها وعيوبها، والتحرك على إصلاحها، حيث يجعل نفسه فوق النقص وفوق النقد، ويقوم بتغطية عيوبه وتشوهاته الفكرية والنفسية والروحية والأخلاقية والعملية وتبريرها وتحويلها إلى محاسن وفضائل.

- حالة الترف المادي في الحياة: حيث أنها تذيب الإنسان وتصهره حسيا وتحجبه عن رؤية نفسه، وتخلق له أفقا حسيا ضيقا، ومنظارا ماديا مشوها، وتؤثر تأثيرا سلبا على المقاييس والموازين التي تقاس وتوزن بها الأمور لديه، فتؤدي إلى إيجاد رؤية غير واقعية لنفسه والعالم، تبعده عن الهداية والرشاد، وتجعله يعيش الضياع والفساد والانحطاط والعبثية والتطفل على الحياة.

- الذنوب والمعاصي: حيث أنها تشكل حجابا يحجب الإنسان عن

مشاهدة أنوار الهداية ويجعله في معرض تسلط إبليس الرجيم وجنوده، ويصرفه عن النظر في نفسه والعالم. فلكل ذنب قفل يقفل بابا من أبواب المعرفة الإنسانية، ويحجب النفس عن رؤية الحقائق الموضوعية في النفس والعالم، وقد يصل الأمر إلى درجة عالية من التشويش بحيث يرى الإنسان الحقائق بشكل معكوس تماما، فيرى الحق باطلا والباطل حقا، والصدق كذبا والكذب صدقا، كإنعكاس للحالة الشعورية السوداوية التي يعاني منها أصحاب الذنوب.

البحث (٤): غايات خلق الإنسان

الغاية (١) معرفة الكون وتسخيره

سبق البحث في (الباب السابع. الفصل الأول. البحث الثامن) في علاقة الإنسان بالطبيعة، ولن أكرر ما جاء هناك، وما أريد قوله هنا: أن كشف أسرار الطبيعة وتسخيرها وإقامة حضارة إنسانية متميزة عليها هو أحد غايات وجود الإنسان.

نظريتان حول دور العلم والمعرفة

سوف نقف في بداية هذا البحث على نظريتين حول دور العلم والمعرفة، وهما:

النظرية (١) العلم في خدمة الحقيقة: يرى أصحاب هذه النظرية بأن العلم يُطلب لأنه يوصل الإنسان إلى الحقيقة، ولهذا فهو مقدس، وهو يسمو فوق المال والمنافع المادية، ولهذا فإن المعلم لا يقوم بالتدريس، والطالب لا يقوم بطلب العلم، من أجل الحصول على المال والمكانة الاجتماعية، فهو عيب ومخجل بحسب معايير أصحاب هذه النظرية، وإنما يكون طلب العلم من أجل معرفة الحقيقة وخدمتها.

النظرية (٢) العلم في خدمة الحياة: يرى أصحاب هذه النظرية بأن العلم يُطلب من أجل تحصيل القوة والسيطرة وخدمة الحياة، وأن العلم الأجود هو العلم الأنفع لحياة الإنسان، والذي يمنح الانسان القوة والقدرة والسيطرة، ويمكنه من

اكتشاف أسرار الطبيعة والسيطرة عليها وتسخيرها لمصالحه ومنافعه وتحقيق التقدم والرفاهية له في الحياة، واستنادا لهذه النظرية: فإن المعلم والطالب والمجتمع يسعون من وراء العلم إلى الرفاه والمكانة والتقدم في الحياة[1].

أضواء على النظريتين

وهذه بعض الملاحظات التي تسلط بعض الضوء على النظريتين، وسوف أجعلها في نقاط محددة من أجل الاختصار والمزيد من الوضوح، وهي:

النقطة (١): لقد أدت النظرية الثانية - عمليا - إلى فقدان العلم لقدسيته، وتحول العلم إلى أداة لكسب المال والثروة والوجاهة والسلطة لدى الأفراد، والقوة والسيطرة لدى المجتمعات والدول، وتخلى العلماء عن رسالتهم الإنسانية في خدمة الحقيقة والمصالح الإنسانية العليا، وأصبح العلم على الصعيد العام وسيلة إلى خدمة القوة وفرض السيطرة: الفردية والمجتمعية، ولهذا السبب:

- يوجه العلم من أجل صناعة الأسلحة الفتاكة والغايات الخبيثة مثل التجسس وانتهاك حقوق الإنسان.

- ويتم احتكار العلم والمعرفة والسعي لإخفاء الكثير من الاكتشافات العلمية وأسرار الاختراعات التكنولوجية واعتبارها من أسرار الدول لأنها من أدوات التنافس على القوة والسيطرة والمنافع المادية والمصالح الاقتصادية.

- التخلي عن القيم الإنسانية السامية في العلاقة مع الآخر، مثل: الصدق والمحبة والشرف والعدل والاحسان والعفو والتواضع والسلام وغيرها باعتبارها من أخلاق الضعفاء، وتمجيد القيم الهابطة، مثل: القسوة والظلم والخداع وغيرها

---

(١) الإنسان الكامل. المطهري. ص١٨٣.

من الأخلاق الاستعمارية والنازية والصهيونية باعتبارها الطريق إلى القوة والانتصار والتمتع بالحياة.

- وأدخل العلماء والشرفاء من الناس إلى السجون والزنزانات الضيقة بسبب مواقفهم الإنسانية النبيلة استنادا لما لديهم من العلم والمعرفة والتزامهم العملي بالحق والعدل.

النقطة (٢): إن نظرية العلم في خدمة الحقيقة، لا تعني تعطيل دور العلم في خدمة الحياة، وإنما تشجع ذلك وتدفع بالحياة للأمام ولكن على خط مستقيم يحفظ الحق ويصون العدل بين الناس.

فالمطلوب من الناس جميعا لاسيما العلماء على ضوء هذه النظرية بالإضافة إلى المعرفة بالكون والإنسان والحياة:

- السعي لمعرفة أسرار الطبيعة لأن الطبيعة سجل أسماء الله الحسنى، وهي مرآة تتجلى فيها صفات جماله وجلاله وتسبح بحمده، فالعالم - بحسب اللغة - هو علامة كبيرة تدل على ما وراءها، وهو الله ذي الجلال والإكرام وصفاته العليا لأنه صانعه. وباعتبار الحياة الدنيا مزرعة الآخرة، وأن الواجب على كل إنسان: تحمل المسؤولية الربانية (أداء التكليف: الفردي والمجتمعي) والسعي لعمارتها بالعلم والعمل الصالح.

- السعي لتحقيق التقدم التكنولوجي بهدف التغلب على صعوبات الطبيعة وتسخيرها لخدمة مصالح الإنسان، وإقامة حضارة إنسانية راقية وملتزمة بالقيم الإنسانية الرفيعة، والشريعة الإلهية المقدسة. وهذا ما تدل عليه آية الخلافة الإلهية للإنسان في الأرض - كما سبق بيانه في محله - والآيات التي تتحدث عن تسخير الطبيعة بكافة أشكالها للإنسان - كما سبق بيانه في محله أيضا.

الغاية (٢) العبادة

قول الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[1].

العبادة في اللغة

هي الطاعة والخشوع والتذلل والخضوع، يقال عبد الله عبادة: أي خضع له وانقاد، والتعبد: التنسك وأداء الشعائر، والتعبيد: التذليل، فيقال: طريق معبد، أي مذلل، والعابد: هو الموحد المخالف لهوى نفسه تعظيما لربه، ومن يقيم على العبادة، والجمع عبدة وعُباد، والعبد: الرقيق، والجمع: عبيد وعباد.

العبادة في الاصطلاح

هي الخضوع والتذلل والطاعة والطلب لأحد على سبيل التعظيم، وباعتقاد أنه إله أو رب يمتلك من نفسه النفع والضرر. وهي كل عمل يتقرب به العباد إلى الله سبحانه وتعالى، سواء كان العمل جسمانيا، مثل: الصلاة والحج، أو روحانيا، مثل: التفكر في الخلق. فلها نفس المعنى اللغوي تقريبا، إلا أنها تتخذ طابع الطقوس الخاصة كحقائق شرعية ثابتة في الدين، مثل: الصلاة والصيام والدعاء والحج والزكاة والوقف والعتق والجهاد، مع قصد القربة لله سبحانه وتعالى، مما يرسخ مفهوم الخشوع والخضوع والطاعة لله سبحانه وتعالى، ويرفع الإنسان العابد ويسمو به من عالم المادة الضيق ومشاعره السلبية المتقلبة وأخلاقه السيئة إلى عالم الروح والطهارة والنور والطمأنينة والخير والجمال والانفتاح والعطاء والمقامات الإنسانية العالية والنعيم المقيم. وتعتبر العبادة استجابة طبيعية لغريزة

---

(١) الذاريات: ٥٦.

التدين، التي هي غريزة متأصلة في النفس الإنسانية، مما يجعل من العبادة حاجة إنسانية ثابتة.

الأبعاد الثلاثة في الإنسان

ثمة أبعاد ثلاثة رئيسية في الإنسان ينبغي أن نقف عليها في بحث العبادة، وهي:

- البعد الجسمي.
- البعد العقلي (التفكير).
- البعد الروحي.

حيث يشترك الحيوان مع الإنسان في البعد الجسمي، ويختلف عنه في التفكير، إلا أن الإنسان الذي يحمل العلم والفكر قد يكون أسوء من الحيوان حينما يستخدم العلم والفكر في المكر والخداع والشر والفساد والتخريب والتدمير وتأجيج نيران الفتن والحروب وسوق البشرية نحو البهيمية والشيطانية والانحطاط. والذي ينجي الإنسان من هذا السقوط المروع هو البعد الروحي، إذ به يسيطر الإنسان على قوة الجسم والعقل ويوجههما نحو الخير والكمال والصالح العام. وقد زود الله تبارك وتعالى الإنسان بغريزة التدين لتكون حارسا للإنسان من السقوط والضياع، ولكي تسوقه نحو كماله الروحي، وجعل العبادة الصادقة الخالصة لله سبحانه وتعالى، هي الوسيلة التي تغذي هذا البعد وتنميه وتقويه وتفرض وجوده وسيطرته في حياة الإنسان.

والخلاصة: العبادة هي المصدر الوحيد لطمأنينة الإنسان وخيره وسعادته وراحته في الدنيا والاخرة، ولا يمكن لغيرها أن يكون سببا لذلك.

قول الله تبارك وتعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾[1] فالقلوب لا تطمئن إلا بذكر الله، أي: أن القلوب (حصريا) تطمئن بذكر الله عز وجل، ولا يمكن أن تطمئن بغيره.

أقسام العبادة

سبقت الإشارة إلى تنوع العبادات إلى جسمانية وروحانية، وتنقسم العبادات من جهة أثرها إلى قسمين:

- العبادات التي يعود أثرها المباشر على الفرد نفسه، مثل: الصلاة والصيام والحج والدعاء والتفكر، حيث تقوم بصقل روحه وتخليصها من حجب الظلمات وتهذيب نفسه وتزكيتها من رذائل الصفات وشحنه روحيا، وتساعده على ضبط سلوكه وتوجيه مواقفه على ضوء القيم الربانية والشريعة المقدسة.

- العبادات التي يعود أثرها ونفعها المباشر على عامة الناس، مثل: الزكاة والوقف والعتق والاحسان إلى الناس والجهاد في سبيل الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذه تساعد على التضامن وإقامة المجتمع الصالح.

مضامين الآية الشريفة المباركة

يقول العلامة السيد قطب: « وإن هذا النص الصغير ليحتوي حقيقة ضخمة هائلة، من أضخم الحقائق الكونية التي لا تستقيم حياة البشر في الأرض بدون إدراكها واستيقانها، سواء كانت حياة فرد أم جماعة أم حياة الإنسانية

---

(١) الرعد: ٢٨.

كلها في جميع أدوارها وأعصارها »[1].

وتتضمن الآية الشريفة المباركة حقائق عديدة، منها:

الحقيقة (١): أن هناك غاية معينة لوجود الجن والإنس، تتمثل في وظيفة محددة وهي العبادة، من عرفها وأداها فقد حقق غاية وجوده، ومن جهلها ولم يؤدها فقد نقض غاية وجوده، وأصبحت حياته فاقدة للقيمة وتنتهي إلى الضياع.

الحقيقة (٢): أن العبادة كغاية لوجود الإنسان، هي كون الناس عابدين لله سبحانه وتعالى﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[2] لا كونه معبودا، فلم يقل: لأعبد أو لأكون معبودا، وهذا يعني:

- أن العبادة كمال عائد إلى الإنسان ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾[3]وتترتب عليها مصلحته وسعادته في الدنيا والآخرة، وهذا من مقتضى الحكمة في الخلق.

- ليس في ذات الخالق سبحانه وتعالى حاجة لعبادة العباد، فلو كانت في ذاته سبحانه وتعالى حاجة لعبادتهم، لثبت بذلك نقصه وعدم أهليته للعبادة وبطلت قيمة العبادة نفسها، فقيمة العبادة أنها الوسيلة لتحقيق كمال العبد ورفع نواقصه من خلال السير نحو كمال المعبود، فإذا كان المعبود ناقصا فقدت العبادة قيمتها، والله سبحانه وتعالى كامل في ذاته من جميع الجهات، لا نقص فيه ولا حاجة له في شيء من الأشياء على الإطلاق، لأن الحاجة لأي شيء من الأشياء تعني الفقر إليه ليسد به صاحب الحاجة نقصا فيه، وحاجة المعبود إلى العبادة تعني شعوره بالنقص في ذاته، وأنه يجد في العبادة وخضوع الآخرين له لونا من ألوان التعويض، يشبع به نزعة الكبرياء الموهوم لديه في نفسه، وهو إشباع وهمي لأنه من

---

(١) الظلال.ج٦.ص٣٣٨٦ – ٣٣٨٧.

(٢) الذاريات: ٥٦.

(٣) الملك: ٢.

ناقص لناقص مثله، وهو لا يقدم شيئا حقيقيا للمعبود، وهي حالة ناقصة يترفع عنها الكاملين من البشر، والله سبحانه وتعالى كامل في ذاته غني مطلق لا نقص فيه ولا حاجة له إلى شيء على الإطلاق، فلا حاجة له يستكملها بعبادة العابدين أو بغيرها ﴿ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾[1].

والسؤال: إذا كانت الغاية من خلق الإنسان تكامله، ولا حاجة في ذات الله عز وجل للعبادة، فلماذا خلق الله جل جلاله الإنسان ناقصا فقيرا إلى العبادة، ولم يخلقه كاملا منذ البداية ويجعله في قربه وجواره؟

الجواب: كل موجود سوى الله عز وجل ناقص فقير ولا يمكن أن يكون غنيا في ذاته مستغنيا عن الله عز وجل، والموجودات:

- منها ما هو قريب بذاته من الله جل جلاله وفي جواره وهم الملائكة.
- ومنها ما هو بعيد بذاته عن الله عز وجل ومطرود من رحمته وهم الشياطين.
- ومنها ما هو مكلف (عاقل يمتلك الاختيار والقابلية للتكامل أو الانحدار) فهو يشق طريقه إما نحو القرب فيكون سعيد وإما نحو البعد فيكون شقيا وهو الإنسان.
- ومنها من لا يعقل وهو غير مكلف وهي الجمادات والنباتات والحيوانات .

الحقيقة (٣): أن العبادة وهي الغاية القصوى من خلق الجن والإنس، تعني انقطاع العبد إلى ربه وتوكله المطلق عليه والفناء فيه، قول الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا

---

(١) فاطر: ١٥.

تَعْمَلُونَ ﴾[1] بدون أن يشغله شيء عنه، فهي تعني:

- اليأس مما في أيدي الناس جميعا، واليقين العملي (وليس مجرد العلم والمعرفة النظرية) بأن لا ينفع ولا يضر إلا الله جل جلاله، والالتجاء إليه، والتسليم المطلق إلى أمره، وهو العشق والفناء فيه والبقاء به.

- أن يتحرر الإنسان من عبادة الإنسان، فلا يخضع لطاغوت أو لحاكم مستبد أو لقوة عظمى مستكبرة في الأرض أو لغيرهم.

- ولا يخضع للمال أو الجاه أو السلطان.

- ولا يتبع الهوى والشهوات.

- ولا يعيش اللهو واللعب اللذان يفقدان الحياة معناها وقيمتها، بل يجعل الحياة ساحة لتحمل المسؤولية العظمى، ليعبر بذلك عن ذاته المسؤولة الهادفة ذات المعنى والقيمة، فيجاهد في سبيل الله جل جلاله، سبيل الحق والعدل والفضيلة والخير للإنسانية جمعاء.

الحقيقة (٤): أن هذه الغاية ثابتة وغير قابلة للبطلان، فلا بد أن تتحقق في الواقع، ولا توجد أية قوة في العالم تستطيع إبطال هذه الغاية والحيلولة دون تحقيقها، فلا توجد قوة في العالم تستطيع أن تقضي على وجود العبادة على وجه الأرض، أو تمنع تحقق وجودها الكامل (عبادة الفرد الكامل، والمجتمع الكامل) كما سيوضح بعد قليل، وأن وجود بعض الأفراد خارج دائرة العبادة، أو تأخر تحقق وجودها الكامل بعض الوقت لا يعنى انتفائها، ما دام أصلها موجود، فوجود العبادة في الجملة يحقق الغرض ولا يضره تخلف البعض أو تأخر وجودها الكامل بعض الوقت، نعم لو ارتفعت العبادة عن جميع الأفراد لكان في ذلك بطلانها.

---

(١) هود: ١٢٣.

الحقيقة (٥): أن العبادة تتطلب حركة دءوبة ومستمرة من العبد نحو المعبود، قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ﴾[1].

- كلما خطى فيها خطوة للأمام تقدم نحو الكمال والسعادة حتى يبلغ قمة التكامل وأقصى دراجات القرب من المعبود.

- وكلما تخلف خطوة انحدر نحو الحضيض والهلاك والشقاء.

وحقيقة الأمر فيها: أنها تعني التخلق بأخلاق الله ذي الجلال والإكرام، واكتسب صفاته العليا، مثل: الحياة، والعلم، والقدرة، والعزة، وغيرها، وهذه:

- هي حقيقة الكدح في ذات الله ذي الجلال والإكرام.

- وما يخرج به الإنسان من النقص إلى الكمال.

- وما يعطي المبرر أبدا للعبادة، وبدون ذلك تفقد العبادة كل قيمتها، قول الله تعالى: ﴿ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ ﴾[2].

وتأتي صفة الحياة على رأس جميع الصفات ومبدأ لها، ولهذا سوف أخصها ببعض التفاصيل.

نحن نعرف أن الحياة درجات:

- فهناك حياة النبات.

- وهناك حياة الحيوان.

- وهناك حياة الإنسان.

والحياة الإنسانية تتميز بصفات أساسية، منها:

---

(١) الانشقاق: ٦.

(٢) العنكبوت: ٤٥.

- أنها حياة نوعية تقوم على العلم والعمل الصالح والأخلاق الفاضلة، فكلما كان الإنسان أكثر علما وعملا صالحا وأحسن أخلاقا، كلما كان أفضل وأكمل إنسانيا، قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[1].

- وأنها حياة باقية غير قابلة للفناء، فمكانها هي الحياة الآخرة التي عبر عنها القرآن الكريم بأنها الحيوان، قول الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾[2] أي الحياة الحقيقية الباقية، وليست كالحياة الدنيا الفانية، قول الله تعالى: ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴾[3].

نتائج مهمة

ونتوصل مما سبق إلى النتائج المهمة التالية:

النتيجة (١): أن العبادة تنتهي بالإنسان إلى الكمال والقرب والسعادة، والقرب من الله سبحانه وتعالى، هو قرب من الرحمة والكمال، ويتجلى ذلك بالسكن في مقعد صدق عند مليك مقتدر في جنة الخلد. وأن الابتعاد عن الله عز وجل، هو ابتعاد من الرحمة إلى العذاب، ومن الكمال والسعادة إلى النقص والشقاء، فهو يهبط بالإنسان إلى الحضيض والعذاب والهلاك، ويتجلى ذلك في السكن في جهنم وعذابها، قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾[4].

---

(١) الحجرات: ١٣،

(٢) العنكبوت: ٦٤.

(٣) العنكبوت: ٦٤.

(٤) الأعراف: ١٧٩.

فالعبادة تضع الإنسان على مفترق طريقين: طريق الكمال والسعادة، وطريق النكوص والشقاء.

- فالكمال والسعادة نتيجة طبيعة للعبادة، قول الله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[1].

- والنكوص والشقاء نتيجة طبيعة لمعصية الله عز وجل والابتعاد عنه، قول الله تعالى: ﴿ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[2].

والخلاصة: أن العبادة تكسب الإنسان الحياة الطيبة الدائمة الباقية في الدنيا والآخرة، والمعصية تكسبه الحياة الخبيثة والشقاء في الدنيا والآخرة.

قول الله تعالى: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾[3].

وعلينا كعباد لله عز وجل أن نلهم قلوبنا عشقه ومهابته، وأن نتخلق بأخلاقه، ونستودعه أرواحنا، ونسير في الطريق الذي يرتضيه ويوصلنا إليه.

قال الإمام موسى الكاظم عليه السلام: « إن الله عز وجل خلق الجن والإنس ليعبدوه ولم يخلقهم ليعصوه، وذلك قوله عز وجل ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا

---

(١) النحل: ٩٧.

(٢) السجدة: ١٤.

(٣) طه: ١٢٣- ١٢٤.

لِيَعْبُدُون ﴾[1] فيسير كلا لما خلق له، فويل لمن استحب العمى على الهدى »[2].

النتيجة (٢): أن كمال العبادة يتمثل في كمال الإخلاص، قول الله تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾[3] فكل ما يأتي به المكلف من الأعمال، إنما يأتي به لغرض المثول بين يدي الله ذي الجلال والإكرام على أساس العبودية المطلقة له سبحانه وتعالى وبرجاء الحصول على فيض من فيضه، وبهذا:

- تصبح الحياة كلها محراب للعبادة.

- ويصبح العمل والجهاد في سبيل الله جل جلاله (في الحقيقة) كالشعائر تماما لا يختلفان عنها في شيء.

- ويشعر المكلف بالرضا والاطمئنان، فلا يشغل نفسه بوجود العقبات والصعوبات وبالنتائج التي تحققها الأعمال أو بغيرها من الأمور، وإنما يشغل نفسه بأداء التكليف فقط، فيشتغل بمواجهة الصعوبات والتغلب على العقبات كتكليف ويبذل في ذلك أقصى ما يملك، ويترك النتائج إلى الرب الرحيم بالعباد، مما يخلص النفس من الأطماع ومن عوامل الضعف والميل والانحراف، ويقوي فيها عوامل القوة والثبات والاستقامة والنصر.

النتيجة (٣): أن العبادة وهي سير إلى الله ذي الجلال والإكرام والتخلق بأخلاقه واكتساب صفاته العليا: صفات الجمال والجلال، تحتاج حتما إلى العلم به سبحانه وتعالى والاتصال به والانتهاء إليه، وقد جاء في الحديث القدسي: « كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لكي أعرف »[4] فالمعرفة به سبحانه

---

(١) الذاريات: ٥٦.

(٢) الميزان. ج١٨. ص٤٢٣.

(٣) البينة: ٥.

(٤) بيان السعادة. ج٤. ص١١٦.

وتعالى مقدمة ضرورية لعبادته وهي وسيلة التكامل للخلق، فلا تتم العبادة ولا يحصل التكامل والقرب منه بدون المعرفة به.

قال الإمام زين العابدين عليه السلام: « إن الله عز وجل ما خلق العباد إلا ليعرفوه، فإذا عرفوه عبدوه، فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة من سواه »[١].

وقال الجنابذي: « فخلق الخلق لأن يتجلى عليهم فيألفوه، ولا يتجلى عليهم إلا إذا صاروا خارجين من أنانيتهم، ولا يخرجون من أنانيتهم إلا بارتياض النفوس بما قرره الله تعالى لذلك، وليس إلا العبادات الشرعية »[٢].

ومن جهة ثانية: فإن معرفته تنتج حتما طاعته وعبادته، قول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾[٣] وأنه لا قيمة للمعرفة بدون عمل وعبادة.

والخلاصة: أن ذاته سبحانه وتعالى منبع جميع الكمالات، والتكامل والقرب لا يكونان إلا عن طريق التخلق بأخلاقه، وهذا التخلق لا يكون إلا بالمعرفة به والاتصال به والانتهاء إليه، ولهذا علمهم سبيل معرفته ليسيروا نحو التكامل والقرب.

النتيجة (٤): أن العبادة تكون في جميع شؤون الحياة: الفردية والمجتمعية بحيث تستغرق وجود الإنسان كله، ويشعر بالذوبان الكامل في وجود المعبود والحاجة المطلقة إليه في كل شيء، والارتباط الكلي به، والتسليم المطلق لذاته المقدسة بلا قيد أو شرط، والامتثال لأمره ونهيه وعدم الانفصال أو الانقطاع عنه في شيء من الأشياء أو حال من الأحوال: الخاصة أو العامة، فكل من رضي بأن يحتكم إلى غير الله سبحانه وتعالى في شأن من الشؤون الخاصة والعامة، فقد عبد

---

(١) نفس المصدر.

(٢) بيان السعادة. ج٤. ص١١٦.

(٣) فاطر: ٢٨.

غير الله سبحانه وتعالى، وأعطى غيره ما هو خالص له. فتكون إرادة الإنسان تابعة لإرادة الله سبحانه وتعالى، لا يخالفه في شيء ولا يقصر في طاعته أو يضعف عنها ميلا إلى الدنيا أو إتباعا لهوى النفس وشهواتها أو غيره، وهذا هو الابتلاء الحقيقي للإنسان في هذه الحياة، قول الله تعالى: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾[1].

ونخلص من ذلك: أن الصلاة والصيام والحج والدعاء والزكاة وغيرها من الشعائر، هي من مفردات العبادة وليست كل العبادة، قول الله تعالى: ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾[2].

وقد جاء في أحاديث الرسول الأعظم الأكرم ﷺ وأهل بيته الطيبين الطاهرين عليهم السلام:

- أن التفكير عبادة.
- وطلب العلم عبادة.
- وطلب الرزق عبادة.
- وقضاء حوائج الناس عباده.
- ونصرة المظلوم عبادة.
- سوالإصلاح بين المتخاصمين عبادة.
- وعيادة المريض عبادة.
- وكل نشاط في أي ساحة من ساحات الحياة يأتي به العبد امتثالا لأمر الله سبحانه وتعالى فهو عبادة، حتى الأكل والشرب والنكاح.

---

(١) الملك: ٢.

(٢) العنكبوت:٤٥.

ونحن نعلم بأن الجن والإنس لا يقضون حياتهم في إقامة الشعائر، والله عز وجل لا يكلفهم بذلك وليس مطلوب منهم ذلك، وإنما هم مكلفون بألوان أخرى من النشاط تستغرق معظم حياتهم.

وقد جعل الله عز وجل الإنسان خليفته في الأرض، فهو مكلف بعمارتها والتعرف على ذخائرها وطاقاتها، وتحقيق إرادة الله عز وجل في إدارتها وتنميتها، وبهذا تكون العبادة أشمل من إقامة الشعائر، فهي حركة شاملة في الواقع كله، تؤكد الالتزام والخضوع لأمر الله عز وجل ونهيه في كل شأن من شؤون الحياة وتفاصيلها، لا يشد عن ذلك شيء من الأشياء، وكل ما شد فهو لإبليس وفي نار جهنم.

والخلاصة: على الإنسان أن يتوجه بإخلاص في فكره وضميره وسلوكه إلى الله ذي الجلال والإكرام ولا يشرك به شيء.

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾[1].

النتيجة (٥): وأن الغرض الأقصى للعبادة هو تحقيق العبادة الكاملة: الفردية والمجتمعية:

- أما العبادة الكاملة الفردية: فهي عبادة المعصومين عليهم السلام وعلى رأسهم سيد الخلق أجمعين الرسول الأعظم الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل بيته الطيبين الطاهرين عليهم السلام.

- وأما العبادة الكاملة المجتمعية: فهي العبادة التي تتمثل في إقامة الدولة الإسلامية التي تطبق الشريعة الإسلامية وتسعى لتحقيق أهداف الخلافة الإلهية في الأرض، وصورتها الكاملة هي دولة العدل الإلهي العالمية التي يقيمها الإمام

---

(١) الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣.

المهدي عليه السلام في آخر الزمان.

قول الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾[1].

النتيجة (٦): أن الله تبارك وتعالى قد هيأ للإنسان كل ما يحتاجه من وسائل تكوينية وتشريعية، وكل ما ينتفع به في سلوكه نحو الغاية التي خلق من أجلها في الحياة، من عقل وشعور وعواطف وقوى داخلية وخارجية، فجعله بذلك على أتم استعداد وأكمل تمكين لتحقيق هذه الغاية، وهو ما يعبر عنه بالنعم الظاهرة والباطنة، وهذا الأمر واحد لا يختلف بين المؤمن والكافر، إلا أن المؤمن استفاد من هذه النعم بينما ضيعها الكافر ولم يستفيد منها، والمطلوب من الإنسان:

- استعمال هذه النعم على النحو الصحيح الذي يرتضيه الله عز وجل ويحقق غاية وجود الإنسان في الأرض، وهي الطاعة. حيث أنها تثري إنسانية الإنسان، وتمنحه الراحة والطمأنينة والسعادة ورضا الرب الجليل في الدنيا والآخرة.

- والحذر من استعمال هذه النعم بصورة خاطئة بخلاف مرضاة الله عز وجل وبما لا يحقق غاية وجود الإنسان في الأرض، وهي المعصية. حيث أن المعصية تسلخ الإنسان من إنسانيته، وتدخله دائرة الشيطانية والحيوانية، وتعرض الإنسان العاصي إلى المساءلة والعقاب يوم القيامة، قول الله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾[2] فتتحول النعمة بالمعصية - في الحقيقة والواقع - إلى نقمة للإنسان العاصي، وإن كانت في نفسها نعمة ورحمة.. فالنعم: إنما تكون نعمة

---

(١) التوبة: ٣٣ - الصف: ٩.

(٢) التكاثر: ٨.

بالنسبة إلى المنعم عليه، إذا استعملها بحيث يسعد بها، وأما إذا استعملها على خلاف ذلك، فإنها تكون نقمة بالنسبة إليه، وإن كانت نعمة ورحمة في نفسها.

النتيجة (٧): أن الإنسان العابد بما هو عابد، لا يعيش الغفلة والجمود في الحياة، ولا يكون جاهلا ولا ضعيفا ولا يقبل بالذل والهوان، وإنما يعيش الوعي واليقظة والعمل الدءوب، ويكون عالما عاملا عزيزا كريما في حياته، فهو - دائما وأبدا - يأبي الذل والضيم، ويفضل الموت والسجن والهجرة وغيرها من صنوف المحن على أن يكون ذليلا مهنا، فهو كما قال الإمام الحسين عليه السلام: « إني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برما ».

النتيجة (٨): أن لا قيمة للعبادة كغاية بدون البعث والحساب والجزاء، وأن الحياة كلها تكون عبثا بدون ذلك، قول الله تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾[1] وهذا على خلاف رأي الماديين الذين يرون أن لا غاية لوجود الإنسان وراء هذه الحياة، وهنا يقف في وجههم إشكالان:

الإشكال (١): أننا نجد لكل شيء في الوجود غاية محددة يؤديها بدقة وإحكام، وأن العلماء يجهدون أنفسهم من أجل معرفتها، فكيف يكون لوجود الأجزاء أهدافها، ولا يكون لوجود المجموع هدف محدد؟!

الإشكال (٢): أن هؤلاء المنكرون لوجود الغاية يقومون بتنظيم جزئيات حياتهم ويتخذون لها أهدافا منظمة، فكيف تكون لتصرفاتهم في الحياة أهدافها والحياة ككل لا هدف لها؟

والخلاصة: إننا من خلال ملاحظتنا للهدفية في أجزاء الوجود، ومن خلال الفطرة التي تدفعنا للتخطيط لأعمالنا وتصرفاتنا في الحياة، نؤمن بأن لخلق الإنسان في هذه الحياة غاية، وأن هذه الغاية وراء حياتنا الدنيا المحدودة الفانية.

---

(١) المؤمنون: ١١٥.

النتيجة (٩): أن الله عز وجل لا يعبأ بمن لا يسير في طريق العبادة والكمال، قول الله تعالى: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ﴾[١] وذلك بسبب:

- خبث أنفسهم واستكبارهم.
- وجحودهم بالحق ظلما وعدوانا.
- واختيارهم للطريق الباطل بغير حجة ولا برهان.
- وعملهم السيء والإفساد في الأرض.

نظرة الإسلام لدور الإنسان في الحياة

نستطيع على ضوء ما سبق في بحث الخلافة وغاية خلق الإنسان، أن نحدد رؤية الإسلام لدور الإنسان ومهمته في الحياة بثلاث مسارات أساسية، وهي:

المسار (١) التكامل الفردي (تزكية النفس): الإنسان وفق الرؤية الإسلامية موجود ترابي نفخ الله تبارك وتعالى فيه من روحه، فهو يمثل المزيج العجيب الذي يصل المادي بالإلهي، حيث:

- يعتبر التراب مصدر الجانب المادي فيه، مثل: المأكل والمشرب والملبس والسكن والنكاح والصراع والتنافس وغيرها من أشكال السلوك المرتبط بجاذبية الأرض، وبه يتهيأ الإنسان للتفاعل مع الطبيعة وتسخيرها والحياة على وجه الأرض.
- وتعتبر الروح مصدر العلم والقدرة والإرادة والاختيار والفضائل، وبها

---

(١) الفرقان: ٧٧.

يتهيأ الإنسان للتفاعل مع أمر الله جل جلاله وملكوته.

الخطان التصاعدي والتنازلي في سير الإنسان

للإنسان في سير حياته خطان، وهما:

أولا: الخط التصاعدي

فالروح تمنح الإنسان العقل والاختيار وتحمل المسؤولية، ليأخذ لنفسه طابعا ملكوتيا، ويهب وجوده الازدهار والارتقاء الروحي المستمر من خلال العبادة الواعية (أي: الارتباط بالذات المقدسة المطلقة، والتخلق بأخلاق الإله) ليسمو من التراب إلى الصفاء الوجودي، ويحصل على السعادة الأبدية الخالدة.

ثانيا: الخط التنازلي

وإلى جانب الخط التصاعدي نحو الكمال المطلق، يوجد للإنسان خط تنازلي ينتهي به إلى الحضيض ﴿ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾[1].

وهذان الخطان: (التصاعدي والتنازلي) هما ميزة الإنسان الاستثنائية بين جميع الكائنات في عالم الوجود بأسره، والأساس في حركة الإنسان في الأرض وابتلائه في الحياة.

- فبعض الناس يصبحون عبيدا لشهواتهم إلى درجة الانسلاخ من الإنسانية والهبوط إلى حضيض الشيطانية والحيوانية، قول الله تعالى: ﴿ إِنۡ هُمۡ إِلَّا

---

(١) النساء: ١٤٥.

كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾[1].

- وبعض الناس يتعلق بالرغائب والمقدسات الروحية، ويسمو في وجوده الروحي والمعنوي إلى أعلى الدرجات، ويصبح إنسانا صالحا في نفسه ونافعا لمجتمعه، وذلك من خلال مجاهدة النفس الأمارة بالسوء، وكبح الشهوات، والتحلي بالصفات الجلالية والجمالية الحسنة، مثل: الحكمة والعدل والمحبة والعفة والشجاعة وغيرها.

فالتطلعات الروحية هي الوسيلة:

- لحفظ التوازن في نفس الإنسان والمجتمع والدولة.
- والارتقاء بالحياة من خلال الاتصال بالحقيقة الكبرى في الوجود، حيث تستلهم منها النور الذي لا تراه الحواس، وبهذا النور العلوي تستطيع أن تسمو وترتقي بالنفس والمجتمع والدولة.

ولهذا نجد أن الإسلام العظيم قد جاء برؤية كونية قوامها الإيمان بالله سبحانه وتعالى وتوحيده وبتشريع يروض الإنسان على أتباع الحق وفعل الخير والالتزام بالعدل، ويصفي نفسه من كدارة المادة ويشفيها من الأمراض الخطيرة كالبغض والحسد ويطهر قلبه من أدران الشهوات، ليجمع قلوب الناس على الحق والإيمان والمحبة والخير والعدل والتعاون، فيسلك الإنسان طريق السمو والارتقاء الفردي والمجتمعي في معارج الرفعة والكمال الروحي والمعنوي.

وإن ما تعانيه البشرية اليوم من مشاكل وجرائم يكشف عن حاجتها الماسة إلى الثقافة الروحية الراقية والعمل بها، حيث فشل التقدم المادي: (العلمي والتقني) في ظل ابتعاد الإنسان عن الثقافة الروحية والعمل الصالح في إسعاد الناس، وجلب لها بدلا من السعادة التعاسة والخراب من خلال الحروب الظالمة

---

(١) الفرقان: ٤٤.

والصراعات الدامية. فقوى الاستكبار العالمي الغاشمة وفي مقدمتها أمريكا - الشيطان الدموي الأكبر - تسعى لفرض هيمنتها بالقوة على الدول الصغيرة والمستضعفة وإثارة الحروب والنزاعات الداخلية من أجل إضعاف قوتها والتدخل في شؤونها الداخلية وسلب خيراتها وثرواتها بغير وجه حق، وكذلك تفعل الحكومات الدكتاتورية المستبدة ضد شعوبها، في ظل:

- الفلسفة المادية (البرجماتية).
- وغياب القيم الروحية.
- والرقابة الداخلية الفاعلة.
- والقوة الرادعة من الخارج.

المسار (٢) التكامل المجتمعي (إقامة الدولة): الإنسان كائن اجتماعي، والإسلام لا يهتم فقط بتزكية النفس، وإنما يطرح نفسه كمنهج كامل تام البناء شامل لجميع جوانب الحياة من أجل إقامة دولة، وصناعة أمة وحضارة إنسانية راقية، على أساس العقيدة والشريعة والقيم الروحية والقوانين العلمية والتاريخية.. ولهذا: فهو حاضر في الزمان والمكان، ويخوض صراعا مريرا ضد كل الإيديولوجيات والسياسات التي تعارض وجوده الشامل في الحياة: على المستوى المادي والمعنوي، الفردي والمجتمعي.

والعبادة التي يطرحها القرآن الكريم كغاية لخلق الإنسان، قول الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[1] هي عبادة الإنسان الكامل والمجتمع الكامل، وليست مجرد شعائر، مثل: الصلاة والصيام والدعاء والحج والزكاة، وإنما هي ممارسة وسلوك ومواقف في جميع شؤون الحياة المختلفة: المادية والمعنوية، الفردية والمجتمعية، بحيث تستغرق وجود الإنسان كله، ويشعر بالذوبان

---

(١) الذاريات: ٥٦.

الكامل في وجود المعبود، والارتباط الكلي به، والتسليم المطلق لذاته المقدسة بلا قيد أو شرط.

فالصلاة والصيام والحج والدعاء والزكاة وغيرها من الشعائر، ليست كل العبادة، وإنما هي بعض مفرداتها:

- فالتفكير عبادة.
- وطلب العلم وطلب الرزق عبادة.
- ومحبة الناس والسعي لقضاء حوائجهم عباده.
- والجهاد في سبيل الله عز وجل عبادة.
- وكل نشاط في أي ساحة من ساحات الحياة يأتي به العبد امتثالا لأمر الله سبحانه وتعالى فهو عبادة.

فالعبادة حركة شاملة في الواقع كله، تؤكد الالتزام والخضوع المطلق لأمر الله جل جلاله ونهيه في كل شأن من شؤون الحياة: الخاصة والعامة، لا يشد عن ذلك شيء من الأشياء، وكل ما شد فهو لإبليس وهو في نار جهنم.

والخلاصة: أن الإسلام العظيم يهدف لإقامة الدولة التي تسعى لتطبيق الشريعة وتحقيق أهداف الخلافة الإلهية في الأرض، وصناعة أمة مسلمة وحضارة إنسانية راقية، وهو تكليف إلهي قطعي للمؤمنين.

وأن الدولة الإسلامية الكاملة: هي دولة العدل الإلهي العالمية التي ينتظرها المؤمنون منذ اللحظة الأولى لخلق الإنسان على وجه الأرض، ويقيمها الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) في آخر الزمان، فهي هدف الأنبياء العظام جميعا عليهم السلام وطموح الإنسانية، ويزداد الشعور بالحاجة والتطلع إليها، كلما عصفت بالإنسانية أزمة أو كارثة إنسانية كبيرة، مثل: الحروب العالمية الطاحنة، والأزمات الاقتصادية الدولية، وغيرها.

قال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾[1].

المسار (٣) كشف أسرار الطبيعة وتسخيرها لخدمة الإنسان:

والمراد بالطبيعة:

كل ما هو موجود في الكون من مخلوقات.

- والقوة السارية في الأشياء.
- وما يتميز به الشيء من صفات وخواص نوعية.
- والنظام والقوانين الحاكمة للعالم المادي.

أما علم الطبيعة: فهو العلم الذي يبحث في طبائع الأشياء وخصائصها ويسعى للكشف عن القوانين التي تحكمها وتفسر ظواهرها.

وأن الله جل جلاله لما جعل الإنسان خليفته في الأرض، علمه الأسماء كلها، ومنها: أسماء الأشياء - كما سبق بيانه بالتفصيل - وسخر له جميع المخلوقات ليقوم بمهمة الخلافة.

قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[2].

وهذا يعني أن الطبيعة ليست عصية على الإنسان، ولكنها في نفس الوقت لا تمتثل لأمره بدون جهد يبذله، فلكي يستطيع الإنسان تسخير الطبيعة:

---

(١) التوبة: ٣٣ - الصف: ٩.

(٢) الجاثية: ١٢ - ١٣.

- يجب عليه أن يتعرف على طبائع الأشياء وخواصها والقوانين التي تحكمها.

- ثم يسعى للسيطرة عليها وتوظيفها لخدمته.

وقد نجح الإنسان فعلا في تطوير الزراعة والرعي والصيد، وسبر أغوار البحار والمحيطات واكتشاف الصحراء، وتفجير الذرة واكتشاف الهندسة الوراثية، وتطوير الصناعات والاتصالات والمواصلات، والنفاذ في أقطار السماء، وغيره، ولا زال يسير قدما في الكشف عن المزيد من خواص الطبيعة وأسرارها وقوانينها، ويتقدم تكنولوجيا وصناعيا بشكل مطرد وسريع للسيطرة عليها. ولعل المستقبل يكشف لنا عن الكثير من القدرات والإمكانيات الخارقة للإنسان في مجال علاقته بالطبيعة: (العلم بخواصها وأسرارها وقوانينها والتقدم التقني لتسخيرها والسيطرة عليها وتوظيفها لخدمة وجوده ومصالحته في الحياة) وكل ذلك حدث ولايزال يحدث بفضل سلطان العلم، الذي هو في الحقيقة من العلم بالأسماء الذي هو ملاك الخلافة في الأرض، قول الله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾[1].

الجدير بالذكر: أن صفات الخالق تتجلى في الإنسان من خلال تسخير الطبيعة، وهذا التجلي سر من أسرار الخلافة. ولما كانت العلاقة التسخيرية من خواص الإنسان التي لا يمكن أن توجد في غيره من المخلوقات، كان الإنسان خليفة الله جل جلاله في الأرض دون غيره من المخلوقات.

---

(١) البقرة:٣١.

المبحث (٥): إشكال وجود الاختلاف والكافرون

لقد تبينت لنا أبعاد العبادة كغاية لخلق الإنسان، وهناك بعض الإشكالات التي أثيرت حول هذه المسألة، أكتفي بذكر ومعالجة إشكالين، وهما:

الإشكال (١) وجود الاختلاف

قول الله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾(١).

بيان المفردات

ولو شاء ربك: شاء: أراد وقدر، والمشيئة: الإرادة والتقدير، وما شاء الله: عبارة تعجب واستحسان، والشيء: كل ما يصح أن يعلم أو يخبر عنه، والرب: المالك والسيد والمصلح والمنعم والمربي، والجمع: أرباب، وهو اسم من أسماء الله الحسنى ولا يقال لغيره إلا بالإضافة، مثل: رب الأسرة، وهو مأخوذ من التربية والتأديب والتولي والتعهد والسياسة والرعاية.. والمراد: لو شاء الله تعالى

---

(١) هود: ١١٨ – ١١٩.

مشيئة حتم وجبر.

لجعل الناس أمة واحدة: جعل: شرع وصير وبدل وأخذ وأقبل وبين وخلق وصنع وشرف وأقام، والجعالة: ما يجعل على العمل من أجر أو رشوة، والجمع: جعائل، والأمة: الجماعة من أصل واحد أو تجمعهم صفات موروثة أو مصالح وأماني واحدة أو دين أو زمان أو مكان واحد، وتأتي بمعنى: الطريقة والدين والحين أو المدة من الزمن والقرن من الناس والإنسان الجامع لخصال الخير والكمال الإنساني وغيره.. والمراد: يجعلهم أهل دين واحد (وهو الإسلام الحنيف والإيمان) برفع التفرق والاختلاف بينهم فيه، فهو سبحانه وتعالى قادر على أن يجعل تفكيرهم بطريقة واحدة لا تخطيء في قضايا الإسلام والإيمان والحياة، كقدرته على أصل خلقهم.

ولا يزالون مختلفين: زال: ذهب وتحول وتغير واضمحل وانتقل ونهض وقام وتحرك وتنحى وبعد وارتفع، وزاول: باشر ومارس، واستزاله: ترقب زواله، والزائلة: مؤنث الزائل ويطلق على كل متحرك وذي روح، والجمع: زوائل، والخلاف: ضد التوافق والاجتماع، فيقال: خالف فلان فلانا إذا تفرقا في رأي أو عمل، واختلف القوم: إذا خالف بعضهم بعضا، وتخالفوا واختلفوا: تفرقوا ولم يتفقوا. والاختلاف في الدين من المنكر الذي هو خلاف الطبع السليم، لما فيه من ستر الحق وبسط الظلم وإظهار الباطل وإماتت العدل، والتشتت والضعف والشقاق والذهاب بالأمن والاستقرار والفشل في تحقيق الأهداف، وسببه الابتعاد عن هدي الرسل والبغي والجهل والأنانية وحب الدنيا واتباع هوى النفس وقلة الاخلاص أو عدمه، ولا يزالون مختلفين: أي باقون على الاختلاف في الدين، وذلك بمقتضى:

- اختلافهم في طهارة النفس.
- وفي الاستعدادات البدنية والروحية.

- وفي قدرتهم على التفكير المتنوع.

- ولما يتمتعون به من حرية الاختيار.

فبعضهم يختار الحق ويتبعه، وبعضهم يختار الباطل ويتبعه.

إلا من رحم ربك: الرحمة: الرقة والتعطف والخير والنعمة، والرحوم: كثير الرحمة، والجمع: رحماء، والرحمة من الله سبحانه: الإحسان، والرحم: مستودع الجنين في أحشاء المرأة والقرابة وأسبابها، والجمع: أرحام، والأرحام: الأقارب، وصلة الرحم: البر بالأرحام، وضده قطع الرحم، والرحمن الرحيم: من أسماء الله الحسنى، ويختص اسم الرحمن بالله تعالى، فلا يجوز أن يسمى به غيره، وقد سبق بيان معنى الرب.. والمراد: أن الله تبارك وتعالى لطف بالمؤمنين لعلمه بأن اللطف ينفعهم، لأنهم يتوخون الحقيقة بصدق وإخلاص، وليسوا من أهل العناد والجحود، ولأنهم ساروا على هدي الفطرة وطريق العقل الواعي المستنير، الذي ينظر إلى الأمور بعمق واتزان، ومارسوا الحرية المسؤولة في التفكير وفي الاختيارات العملية، ولم يسمحوا للهوى والنوازع الذاتية المنحرفة أن تتدخل في مناهج التفكير وطريقة النظر ومعالجة القضايا وفي الاختيارات العملية، فأتفقوا على الدين الحق وتحكيم شريعة الله سبحانه وتعالى، ورجعوا إلى أئمة الهدى وأخذوا الدين الحق منهم، وخضعوا لإرشاداتهم وتوجيهاتهم وتعاليمهم، وخضوعوا لولايتهم الدينية والسياسية، ولم يتفرقوا عنهم، فهم - برحمة الله تبارك وتعالى وهدايته لهم - لا يزالون على الدين الحق والصراط المستقيم، لا يتفرقون عنه ولا يختلفون فيه، بإظهار أقوال باطلة تفرقهم عنه، أو يدخل الشك والريب إلى قلوبهم فيه.

قال الله تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ

يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ﴾[1].

وهذا لا يمنع من اختلاف وجهات نظرهم في بعض التفاصيل: النظرية والعملية وتفاوت مستوياتهم في معرفة الحق والقبول به والتسليم له، وهو شيء طبيعي لاختلاف قدراتهم وقابلياتهم واستعداداتهم: البدنية والروحية، واختلاف طبائعهم وأذواقهم ورغائبهم وأشواقهم، وهو شيء مفيد جدا في حركة الإنسان التكاملية: الفردية والمجتمعية وتحقيق غاية وجوده.. ولولا ذلك:

- لما قامت المجتمعات الإنسانية.
- ولما استمرت في البقاء.
- ولما تقدمت ماديا ومعنويا.

لأنه (أي الاختلاف) هو السبيل إلى الحراك والتقدم على كافة الأصعدة، وبدونه لا حراك ولا تقدم على أي صعيد، إلا أن ذلك يحتاج إلى التنظيم وحسن الإدارة قطعا، وليس منه الاختلاف في الدين الحق الذي هو دين الفطرة والصراط المستقيم كما سبق توضيحه.

ولذلك خلقهم: الخلق: الجدارة والابداع والايجاد عن تقدير وحكمة ومن غير أصل ولا مثال سابق، والخليقة: الطبيعة، والجمع: خلائق، وأعطى كل شيء خلقه: خلقه على صورة تحقق المنفعة المنوطة به، والخلقة: الفطرة، ومخلقة: تامة الخلق والتكوين، وخلق الأفك: افتراه واخترعه، والخالق: اسم من أسماء الله الحسنى، والخلاق: الحظ والنصيب.. والمراد: أن الله سبحانه وتعالى خلق أهل الإيمان ليفعلوا ما يستوجبون به رحمته فيرحمهم، فالغاية هي الرحمة والسعادة للناس وليس العذاب والشقاء، ولا تتحصل الرحمة والسعادة إلا بالإيمان والعمل الصالح، أما العذاب والشقاء فهو نتيجة طبيعية لسوء اختيار الإنسان واتباعه الهوى

---

(١) البقرة: ٢١٣.

وخضوعه للشهوات الحيوانية والشيطانية وبعده عن الله ذي الجلال والإكرام الذي هو مصدر الرحمة والسعادة والطمأنينة وعن هداية الأنبياء والرسل وأئمة الحق الذين هم مصدر النور والهداية في الأرض. فالعذاب والشقاء يرجعان إلى نفس الانسان واختياره، وقد حذره الله جل جلاله من ذلك الاختيار السيء وأقام عليه الحجة البالغة.

وقيل: خلقهم للاختلاف القائم على العقل وحرية الاختيار فلم يرفع عنهم الاختيار لأن الحرية هي قوام حقيقة الإنسان: فيكون بالاختلاف:

- منهم السعيد الذي يختار الدين الحق ويكون من أهل الجنة.
- ومنهم الشقي الذي يتبع الباطل والظلم ويكون من أهل النار.

وتمت كلمة ربك: تم الشيء: كملت أجزاؤه واشتد وصلب، وتم الأمر: نفذ وتحقق، وأتم العمل: جعله تاما، وتماما: إتماما للمراد وزيادة، وتمم على الجريح: أجهز عليه، وتتام القوم: جاءوا كلهم، والتتمة: ما يكون به تمام الشيء، وليلة التمام: ليلة أربع عشرة من الشهر القمري حين يستوي القمر فيصير بدرا، وليل التمام: أطول ليلة في السنة، والتمامة: البقية من كل شيء، والتمم: تام الخلقة، والكلمة: اللفظة الواحدة الدالة على معنى والقصيدة بطولها، والكليم: الذي يكلمك، وكلمة الله: حكمه وإرادته وقضاؤه ومخلوقاته، وكلمة التقوى: التوحيد والاخلاص، والجمع: كلمات، وتكلم: نطق بكلمات، وكلمه: وجه إليه الحديث، وكالمه: جاوبه، وتكالما: كانا متهاجرين فأصبحا يتكالمان، والكلام: الأصوات المفيدة لمعنى والمعنى القائم في النفس الذي يعبر عنه بألفاظ، والكلماني: المنطيق في الكلام، ويقال لعيسى بن مريم كلمة الله: لأنه يدل على الله وصفاته كما تدل الكلمات على المعاني، ولهذا فالمخلوقات والابتلاءات كلها من كلمات الله سبحانه وتعالى.. والمراد: تحققت إرادة الله سبحانه ومضت مشيأته وأخذت مصداقها في الواقع، ونفذ حكمه وقضاؤه وحق وعيده في المختلفين في الدين الحق.

لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين: ملأ الإناء: وضع فيه من الماء وغيره قدر ما يسع، والملأ: الجماعة أو أشراف القوم وساداتهم الذين يملأون القلوب مهابة، والملأ الأعلى: كبار الملائكة في السماء، وجهنم: مكان العذاب الأبدي في الآخرة، وقيل: اللفظ عبري ومعناه: وادي البكاء والعذاب، والجنة: جماعة الجن من الاجتنان وهو الاستتار حيث لا تراهم عيون البشر، ويطلق على الملائكة، والجن: مخلوقات عاقلة لا تدركها حواس الإنسان وهي مكلفة بالدين مثل الإنسان، والجنون: ذهاب العقل، والإنس: البشر والواحد أنسي، والإنسي: المنسوب إلى الإنس، والجمع: أناسي، والأناس: الناس، وهم بنو آدم عليه السلام وجمع الشيء: ضمه وألفه، وجمع المال: كنزه، وانجمع الشيء: انضمت أجزاؤه وتقاربت أفراده، وأجمع القوم: اتفقوا كلهم وانضم بعضهم إلى بعض، حيث يدل اللفظ في التوكيد على الشمول، فيقال: جاء القوم أجمعهم وبأجمعهم، أي: كلهم، والجمع: أجمعون.. والمراد: لأملأن جهنم من عصاة الجن والإنس وضلالهم الذين حقت عليهم كلمة الرب الجليل بأنهم لا يؤمنون.

مضامين الآيات الشريفة المباركة

تتضمن الآيات الشريفة المباركة حقائق مهمة عديدة، منها:

الحقيقة (١): لقد شاء الله عز وجل وقدر، بأن يكون للإنسان عقل وحرية في الاختيار، فيكون له بذلك اتجاهات مختلفة في قبول الدين الحق، ولذلك خلق الإنسان وميزه عن جميع المخلوقات في الوجود، ولو شاء الله جل جلاله لخلق الإنسان على فطرة قبول الدين الحق وعدم الاختلاف فيه كما هو شأن الملائكة، قول الله تعالى: ﴿ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾[١]

---

(١) التحريم: ٦.

ولكنه لم يشأ له ذلك، وشاء له الاختلاف، فقد زوده بمؤهلات التكليف، وأرسل له الرسل لإيقظه وإرشاده، وترك له حرية الاختيار، ليمثل نموذجا متميزا في الوجود لما عليه أفراده:

- من الاختلاف والتفاوت في القابليات والاستعدادات: البدنية والروحية والرغائب والأشواق والأذواق والطباع.

- وبما يمتلك من القدرة على التفكير المتنوع وحرية الاختيار.

- والقابلية للصعود والهبوط، فيكون بالصعود أفضل من الملائكة، ويكون بالهبوط أخس من البهائم.

الحقيقة (٢): أن الناس سوف يبقون مختلفين في الدين، وهذه إرادة الله التكوينية في الإنسان، ليميز الخبيث من الطيب، والسعيد من الشقي، وليس معنى ذلك أنه يريد لهم الاختلاف في التشريع، فهو خلاف الحكمة والرحمة، ولهذا كلف الله الإنسان من الناحية التشريعية باتباع الدين الحق الذي عليه أئمة الهدى، ووفر له كل الأسباب التي تجعل ذلك في مقدوره وفي متناول يده إذا أراد ذلك بمحض إرادته واختياره، ولم تكن مخالفته إلا عن عناد وجحود.

قال الله تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[١].

فمن خضع للدين الحق كان سعيدا ومن أهل الجنة، ومن خالفه كان شقيا ومن أهل النار وبئس القرار.

---

(١) البقرة: ٢١٣.

نتائج مهمة

ونتوصل مما سبق إلى النتائج المهمة التالية:

النتيجة (١): أن الله سبحانه وتعالى لم يشأ أن يكره الإنسان على الإيمان، ولو شاء لسلبه صفة الإنسانية وما تميز به في الوجود من حقيقة العقل والاختيار، وهي الحقيقة التي أعلت من مكانة الإنسان في الوجود، وجعلته فوق جميع المخلوقات حتى الملائكة الذين أمرهم الله جل جلاله بالسجود له وسخرهم لخدمته.

النتيجة (٢): أن الاختلاف على قسمين:

- الاختلاف الطبيعي المحمود: وهو الاختلاف في التفاصيل: (النظرية والعملية) وسببه الاختلاف في المواهب والقابليات والاستعدادات لدى الأفراد، والمطلوب على الصعيد العملي: حسن إدارة الاختلاف لكي يأتي بنتائج إيجابية، وأن سوء الإدارة يؤدي إلى نتائج سلبية، فالنتائج السلبية ليس سببها الاختلاف في نفسه، وإنما سببها سوء التصرف والإدارة. وحسن الإدارة يحتاج إلى الإخلاص والكفاءة المهنية، وهما عاملان لا يغني أحدهما عن الآخر.

- الاختلاف الشاذ المذموم: وهو الاختلاف في الدين الحق، وسببه البغي والظلم وحب الدنيا واتباع الهوى والشيطان.

النتيجة (٣): بأن مخالفة أئمة الهدى تؤدي قطعا إلى الاختلاف في الدين والانقسام إلى شيع وأحزاب، وأن السبيل الوحيد للاتفاق في الدين هو الرجوع إلى أئمة الهدى الذين هم صورة الرحمة وحقيقتها، وهم حجة الله تعالى على الخلق، وأخذ الدين الحق منهم والخضوع لولايتهم في الدين والسياسة.

النتيجة (٤): أن الرحمة الإلهية والهداية الربانية ليست خاصة بجماعة معينة وإنما هي عامة لجميع الناس، شريطة أن يحسنوا الاختيار، ويذعنوا لطاعة الله جبار السماوات والأرض، ويسلكوا الطريق المستقيم الذي بينه لهم في الحياة،

لتفتح لهم أبواب السعادة، ويكونوا من الخالدين في جنات النعيم.

النتيجة (٥): أن مخالفة الدين الحق تؤدي بالمكلف من الجن والإنس إلى النار كنتيجة طبيعة لما كان عليه في الحياة الدنيا من فكر وعمل، قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴾[1] وتمثل هذه النتيجة الطبيعية المكانة الوجودية التي صنعها المكلف لنفسه باختياره ومحض إرادته من خلال الفكر والعمل الذي كان عليه في الحياة الدنيا، وقد بيان هذه المسألة بالتفصيل فيما سبق من البحث.

الإشكال (٢) تعذيب الكافرين في النار

قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾[2].

بيان المفردات

ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس: ذرأ: خلق وأنشأ وأوجد وبث وكثر، وقد سبق بيان معنى الجن والإنس.. والمراد: أن الله جل جلاله قد خلق الكثير من الجن والانس، وبثهم في الأرض وكثرهم في الحياة، وهو يعلم مسبقا بأنهم لن

---

(١) النبأ: ٢١ - ٢٦.

(٢) الأعراف: ١٧٩.

يؤمنوا، وأنهم سوف يعملون باختيارهم أعمالا تؤدي بهم إلى جهنم والعذاب الأعظيم فيها.

لهم قلوب لا يفقهون بها: القلب: عضو عضلي صنوبري الشكل يقع عادة في الجانب الأيسر من الصدر، وهو يستقبل الدم من الأوردة ويدفعه في الشرايين. وقلب كل شيء: وسطه ولبه وباطنه ومحضه، وهو ضد الظاهر، وله عند الفلاسفة معاني عديدة، منها:

- النفس، والروح، والعقل، والضمير، والوجدان، ووظيفته إدراك العواطف والمشاعر، وإدراك الحقائق العقلية بطريق الحدس والإلهام، لا بطريق القياس والاستدلال.

يقول العلامة الغزالي: « إذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة، وأشرق النور في القلب، وانشرح الصدر، وتكشف له سر الملكوت، وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرة (الغفلة) بلطف الرحمة، وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية »[1].

- وهو عند بعض الفلاسفة مركز الشعور بالحب والعطف والرحمة والحنان.

- وهو عند أخرين: مركز القوة الغضبية وفضيلتها الشجاعة.

والفقه: الفهم الدقيق، قول الله تعالى: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾[2] أي فاقدة للكمال المعهود لها في الجنس البشري، فهي في غاية القسوة: فلا تعقل الحق والهدى والإيمان، ولا تبحث عن الكمال والسعادة، وكأنها خلقت غير قابلة لها رأسا، فقد عاش أصحاب هذه القلوب: غافلين لا يتدبرون في الآيات بحثا عن

---

(١) الاحياء. ج٣. ص١٨.

(٢) الأعراف: ١٧٩.

الحقيقة لكي يعرفوها، وإذا عرفوها عن أي طريق كان، فهم يضيعونها ولا يلتزمون بها في مقام العمل والتطبيق.

ولهم أعين لا يبصرون بها: العين: حاسة الابصار للإنسان وغيره، وينبوع الماء من الأرض، والجاسوس، وطليعة الجيش، وكبير القوم وشريفهم، والنفيس من كل شيء، والجمع: أعين وعيون، وعين الشيء: ذاته ونفسه، وأنت على عيني: كناية عن الإكرام والحفظ، ولتصنع على عيني: تربى محفوظا بعنايتي وحفظي، وقرة عين لي: فيه مسرة وفرح لي، وفعله على عين: تعمده بجد ويقين، والحور العين: النساء ذوات العيون الواسعة، والبصر: الرؤية بالعين والعين نفسها، والجمع: أبصار، وأبصره: رآه وعلمه وعرفه واستبانه، والمبصر: المشرف على الشيء المحافظ عليه، والبصير: الخبير وهو اسم من أسماء الله الحسنى وضد الأعمى أو الضرير، والتبصر: التفكير والتأمل، والتبصير: التعريف والايضاح، وقوة الإبصار: قوة الإدراك، والبصيرة: للقلب كالبصر للعين، وهي قوة العقل والإدراك والفطنة والحجة والعلم والخبرة، والجمع: بصائر، وفلان على بصيرة: على يقين وعقيدة صحيحة، وفعل عن بصيرة: عن عقيدة ويقين ورأي، واستبصر: اهتدى إلى الحق وكان ذا بصيرة في الدين، والآيات المبصرة: المضيئة الواضحة التي تبصرهم، وأولو الأبصار: أصحاب العقول المبصرة.. والمراد: نفي الابصار المختص بالعقلاء عنهم، مثل: إبصار الشواهد التكوينية الدالة على الحق، أي: ليس لهم بصر اعتبار.

ولهم آذان لا يسمعون بها: الأذن: حاسة السمع للإنسان وغيره، والجاسوس الذي يتسمع الأخبار، والذي يستمع جيدا لما يقال له ويقبله، والجمع: آذان، والإذن: العلم، وتأذن: أعلم وأقسم ونادى في الناس بتهديد أو نهي، وتأذن بالشر: أنذر به، والأذان: الإعلام، والمأذنة: المنارة (موضع الأذان) وأذن له: أباح له، واستأذن: طلب الإذن، والسمع: قوة إدراك الأصوات والأذن نفسها، والجمع: أسماع، وسمع: أدرك بحاسة الأذن، وسمع الكلام: فهم معناه وأطاعه وتقبله، وتسامع الناس:

تناقلوا الكلام بينهم، والسماعة والسامعة: مؤنث السامع والأذن وآلة يسمع بها الطبيب نبض القلب، والجمع: سوامع ومسامع، والمسمعة: المغنية، والسمعة: ما يسمع به في الناس من ذكر حسن أو سيء، يقال فعل ذلك سمعة: أي ليسمع به الناس، والسميع: اسم من أسماء الله الحسنى، بمعنى: المدرك لكل مسموع.. والمراد: نفي السمع المختص بالعقلاء عنهم، مثل: الآيات التنزيلية والمواعظ الداعية للهدى، أي: ليس لهم سماع اتعاظ وتذكر.

أولئك كالأنعام: الأنعام: جمع نعم، وهي البهائم الراعية كالإبل والبقر والغنم، وجمع الجمع: أناعيم.. والمراد: صفتهم وحقيقتهم كالأنعام في عدم التفقه في الدين وقضايا الحياة، وانغلاق عقولهم عن إدراك دلائل الحق وتحويل مفرداته إلى مناهج عمل وسلوك ومواقف صحيحة في الحياة، وعدم ابصار ما ينبغي للإنسان أن يبصره وهو الاعتبار، وعدم سماع ما ينبغي للإنسان أن يسمعه وهو الاتعاظ، فإنهم فقدوا ما يتميز به الإنسان في الحقيقة عن الحيوان، وهو التدبر والتأمل وتمييز الخير من الشر، والنافع للحياة الإنسانية السعيدة من الضار لها، فلديهم قلوب وأعين وآذان لكنهم أفسدوها وضيعوا أعمالها واستعملوها فقط فيما يستعملها الحيوان فيه، فلا تنفتح على دلائل الحق والخير والهدى والإيمان، وكل همهم مقصور على اشباع الغرائز وتحصيل اللذات الحيوانية والعمل من أجل الحياة الدنيا ومنافعها الفانية، فلا فرق بينهم وبين البهائم من هذه الجهة.

قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡ ﴾[١].

بل أضل: بل: حرف عطف بعد النفي والإثبات، وهو للإضراب عن الأول للثاني، مثل: ما جاءني زيد بل عمرو، والضلال والضلالة: هو العدول عن الطريق السوي،

---

(١) محمد: ١٢.

وهو ضد الهدى والرشاد، والمضل: هو المبعد عن الحق والصواب، وجمعه: مضلون، والتضليل: هو التضييع والابطال والتخسير، تقول ضل عنه الشيء: أي غاب أو ضاع أو ذهب عنه، وضل سعيه: فشل فيه، وأضل أعمالهم: أبطلها وأذهب فائدتها، وأضله الشيطان: أعماه وأبعده عن الخير والصواب، والضالون: هم الذين عرفوا الحق ولكنهم تركوه.

واعتبار الكافرين أضل من الأنعام:

- لأن الأنعام تعرف خالقها بالفطرة وتعرف صاحبها وتطيعه.

- ولأنها تمتلك هداية تكوينية وتؤدي الغرض المطلوب منها على أكمل وجه، وتطلب بفطرتها منافعها وتهرب من مضارها.

- ولأنها لا تمتلك الاستعدادات والملكات التي يمتلكها الإنسان، وليس لها ضلالا يخرجها عن مقام الحيوانية ويؤذي روحها ويؤلمها.

- ولأنها لا تملك خاصية التكامل والارتقاء.

- ولأنها لا تحاسب ولا تعاقب.

وأما الكافرون وعموم أصحاب النار:

- فقد عطلوا عقولهم وملكاتهم الإنسانية ولم يستعملوها فيما خلقت له.

- وجحدوا بآيات ربهم ونعمه ولم يذكروه ولم يطيعوه.

- ولم يسيروا في طريق السمو والتكامل والوقوف في مهب النفحات الربانية كما هو مطلوب منهم.

- وتركوا السعي للنعيم المقيم، وأقدموا باختيارهم - بسبب العناد - على الموارد التي توردهم الهلكة والعذاب الخالد في جهنتم، أي: أنهم اختاروا بأنفسهم سبل شقائهم.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: « أن الله ركب في الملائكة عقلا بلا شهوة، وركب في البهائم شهوة بلا عقل، وركب في بني آدم كلتيهما، فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة، ومن غلب شهوته عقله فهو شر من البهائم »(١).

أولئك هم الغافلون: الغفلة: السهو والاهمال وعدم اليقظة، وتغافل: أرى من نفسه أنه غافل وليس بغافل حقيقة، والغافل: الساهي، والجمع: غفول وغفل، والمغفل: قليل الفطنة، والغفل: من لا يرجى خيره ولا يخشى شره ومن لا حسب له، وتغفله: أتاه وهو غافل، واستغفله: ترقب غفلته، وأغفل قلبه: صيره غافلا، وحين غفلة: على غير انتباه.. والمراد: أوقعتهم شهواتهم وملذاتهم واتباع الهوى وحب الدنيا في غفلة مطبقة كاملة:

- عن حقيقة وجودهم ومصيرهم.
- وعن الدلائل والبراهين والآيات الباهرات.
- وعن الاستفادة من المواعظ والآيات المنزلة لينتبهوا من الغفلة ويهتدوا إلى الحق ويعملوا به، قول الله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾(٢).

فهم لا يملكون وعيا وفهما لحقائق الأمور وللأوضاع وغاياتها، وهذا هو سبب ضلالهم.

مضامين الآية الشريفة المباركة

تتضمن الآية الشريفة المباركة حقائق أساسية عديدة، منها:

---

(١) تفسير الصافي.ج٢.الكاشاني.ص٢٥٤.

(٢) الملك: ١٠.

الحقيقة (١): أن الله جل جلاله خلق الجن والانس (وهم المخلوقات المكلفة) وهو يعلم بأن الكثير منهم لن يؤمنوا، وسوف يأتوا بالأعمال التي تؤدي بهم إلى نار جهنم ويكون نصيبهم العذاب العظيم فيها.

الحقيقة (٢): أن الله جل جلاله قد زود الجميع بالمؤهلات اللازمة للتكليف، وأرسل الرسل لإيقاظهم وإرشادهم، وترك لهم حرية الاختيار:

- فمن آمن وعمل صالحا كان مصيره إلى الجنة وحس مآب.

- ومن كفر وارتكب المعاصي والذنوب الكبيرة كان مصيره إلى النار وبئس المصير.

- ومن كان قاصرا أو لم تصله دعوة الانبياء عليهم السلام فقد سقط عنه التكليف، قول الله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾[1].

الحقيقة (٣): أن حقيقة أهل النار، أنهم عطلوا ملكاتهم الإنسانية، وأصبحت حواسهم وعقولهم مادية، فأبطلوا بذلك ما لديهم من الاستعداد للوقوع في مجرى الرحمة الإلهية، وأفسدوا أعمال قلوبهم وحواسهم، وسلكوا غير طريق العبودية لله ذي الجلال والإكرام:

- فهم لا يعقلون الحق والهدى والإيمان.

- ولا يدركون معاني الحياة وأوضاعها وغاياتها.

- ولا يفقهون الحياة الروحية ولذاتها المعنوية الموصلة إلى السعادة الحقيقية للإنسان في الدنيا والاخرة.

- وأصبح همهم الأكل والشرب والنكاح والتلهي بالأمور التافهة وغير

---

(١) الإسراء: ١٥.

الصائبة، والحرص على تطوير الحياة المادية بواسطة تقدم العلوم الطبيعية والإدارية وغيرهما من العلوم والتكنولوجيا.

- وأصبحت علومهم وإن كانت كثيرة ودقيقة، إلا أنها غير باعثة على الكمال الروحي والمعنوي، وغير مفيدة في الآخرة.

قول الله تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ ﴾[1].

وقول الله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾[2].

الحقيقة (٤): أن أسباب ضلال أهل النار وهلاكهم عديدة، منها:

- غفلتهم عن أنفسهم ومصيرهم وعدم الإصغاء إلى نداء العقل والفطرة وما تلقياه إليهم من الحجج والبراهين.

- عدم التدبر في الآيات الأفقية والأنفسية والتنزيلية.

- عدم التدبر في الأحداث اليومية التي تظهر في إيقاعاتها وإيحاءاتها يد الله سبحانه وتعالى وقدرته وتدبيره.

- عدم التدبر في أخبار التاريخ والأمم السابقة لمعرفة سنة الله فيهم.

- عدم الاستماع إلى المواعظ الحقيقية من الأنبياء والأوصياء عليهم السلام والدعاة من أهل الحق.

نتائج مهمة

ونتوصل مما سبق إلى النتائج المهمة التالية:

---

(١) الروم:٧.

(٢) النور: ٤٠.

النتيجة (١): كل شيء لا يؤدي وظيفته ويحقق الغاية من وجوده، فوجوده وعدمه سواء، وقد ينقلب إلى ضده، فتتحول النعمة فيه إلى نقمة، والهدى إلى ضلال، وهذا يشمل التعاطي مع العقل والحواس والكتاب المنزل والرسول والإمام وغيرهم. وقد جاء في الدعاء: " اللهم إني أتوجه إليك بنبيك وآله، واقدهم بين يدي حاجتي، فاجعلني بهم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين. اللهم أرحمني بهم ولا تعذبني بهم، واهدني بهم ولا تضلني بهم، وارزقني بهم ولا تحرمني بهم، واقضي لي حائج الدنيا والاخرة إنك على كل شيء قدير وبكل شيء عليم "

النتيجة (٢): أن إثبات القلوب والأعين والآذان لأهل النار وتأكيد تعطيلهم لوظيفتها في حياتهم، هي شهادة ربانية حقيقية بسوء حالهم وكمال رسوخهم في الغي والجهل والبغي والضلال، وهذا يدل على:

- خبثهم وحقارتهم.
- وعلى قلة شأنهم.
- واستحقاقهم بجدارة للنار والعذاب العظيم فيها.

النتيجة (٣): يجب التمييز بين العاقل والذكي، فالعاقل يدرك حقيقة الأشياء ودلالتها على الله سبحانه وتعالى وينتفع بادراكه في دنياه وأخرته، والذكي يدرك الدلالة المادية للأشياء، وينتفع بها في دنياه، ولا ينتفع بشيء منها في إدراك الحقائق الملكوتية العظمى، ولا يعمل من أجل الآخرة، فكل عاقل ذكي، وليس كل ذكي عاقل.

النتيجة (٤): أن الغاية من خلق الإنسان هو إيجاد الإنسان الكامل الذي يتقدم في كماله وقربه من الله ذي الجلال والإكرام على الملائكة، وقوام ذلك العقل وحرية الاختيار، وهما أساس التكليف، وقد هيأ الله سبحانه وتعالى للإنسان أسباب السعادة والتكامل، وذلك هو غاية الكرم والجود والرحمة، وهو الهدف

الأصيل في خلق الإنسان، فغايته سبحانه وتعالى أن يشمل الإنسان برحمته ويدخله جنته. أما تعذيب الكافرين فهو النتيجة الوجودية الضرورية المقابلة لوجود الإنسان الكامل، وتتمخض عن سوء اختيار الإنسان وسوء تفكيره وعمله السيء في الحياة الدنيا بسبب العناد. فلا يوجد الإنسان الكامل إلا بالاختيار:

- فالاختيار كما ينتج الإنسان الكامل.
- فهو ينتج الأشقياء أيضا.

قول الله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾[1].

حيث أن الحياة الدنيا لا تترك كل إنسان يسلك سبيل النجاة والسعادة:

- فبعض الناس يسلكون باختيارهم طريق الهداية والتكامل والنجاة والسعادة فيفوزون بالجنة والرضوان.
- وبعضهم يسلك باختيارهم طريق الضلال والهبوط والخسران والشقاء فيبوؤوا بغضب الله جل جلاله وعذابه في نار جهنم.

والخلاصة: أن وجود الأشقياء وتعذيبهم، تبعي لوجود الإنسان الكامل وليس هدفا أصيلا لخلق الإنسان.

---

(١) هود: ١٠٥.

البحث (٦): حقيقة الحياة على الأرض وأهدافها

قول الله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾[١].

بيان المفردات

إنا جعلنا ما على الأرض: الجعل: الخلق والابداع، وما على الأرض: الأنهار والأشجار والحيوان والأولاد والجواهر والمعادن والأموال والأثاث وغيرها.

زينة لها: الزينة: الأمر الجميل الذي ينضم إلى الشيء فيكسبه جمالا وحسنا فترغب فيه النفوس وتميل إليه بفطرتها .. والمراد: أن الله تبارك وتعالى قد جعل ما على الأرض زينة للإنسان:

- يتمتع نظره بجمالها وتسر خاطره.
- وينتفع بها في حياته وخدمة مصالحه.
- ويستدل بها على خالقه وآخرته.
- ويتعظ بها في دنياه ومن أجل سعادته في الآخرة.

---

(١) الكهف: ٧ – ٨.

لنبلوهم: بلا يبلو بلوا وبلاء: اختبر وجرب وامتحن، ويكون بالخير والشر، وبلاه: اختبره وعرفه، وتبلو النفس ما أسلفت: تنكشف لها حقيقة عملها وتجد نتيجته: خيرا أو شرا، وأبلى في الحرب بلاء حسنا: أظهر فيها بأسه، وبلي الثوب: أدركه الفساد والتلف، والبلية والبلوى والبلاء بمعنى واحد، والجمع: بلايا.. والمراد: أن الله جل جلاله قد جعل الزينة على الأرض، وجعل تعلق النفوس بها - بحسب الفطرة - وسيلة لإمتحان الإنسان في ساحة الحياة التي تتنوع فيها المغريات والتحذيرات لتتأكد الإرادة الإنسانية الحرة في اختيار القرار الصائب في الاتجاه الصحيح لخدمة الحق والعدل والخير والإنسانية، لتظهر من خلال الامتحان حقيقة الإنسان وجوهره، ويتميز الطيب الكريم من الخبيث اللئيم، والسعيد من الشقي، فلا يمثل وجود الزينة والتعلق بها الرسالة الحقيقية لحياة الإنسان على وجه الأرض وهدفها، وإنما هو من أجل الامتحان والابتلاء:

- فمن عرف معنى الحياة وغايتها واستقام على طاعة الله سبحانه وتعالى والتزم بالحدود الشرعية، وانطلق في الاتجاه الصحيح، وعمل في الحياة من أجل الحق والخير والعدل والفضيلة، فهو الطيب الكريم والفائز السعيد في الدنيا والآخرة.

- ومن تعلق بزينة الأرض وزخارف الحياة، وعصى الرب الجليل فيما أمر به ونهى عنه، ودخل في الفتن والصراع غير الشريف على السلطة، والتنافس المحموم على الامتيازات والمناصب على حساب الحق والعدل والخير والفضيلة، وتعدى الحدود الشرعية، واستغرق في الشهوات والمنافع الحسية، فهو الخبيث اللئيم والخاسر الشقي في الدنيا والاخرة.

والخلاصة: أن الله سبحانه وتعالى يعامل الناس معاملة من يختبرهم من أجل أن يعرف أحوالهم، وتنكشف جواهر نفوسهم، وتظهر على حقيقتها الفعلية كما هي بغير ستار ولا حجاب، وهو العالم بما ينتهي إليه اختيارهم من الإيمان

والعمل الصالح أو الكفر والنفاق والعمل السيء، ليقيم الحجة البالغة عليهم، ويجازيهم بحسب فعليتهم ومراتب علومهم ودرجات أعملهم.

وما سبق يدل على أن الابتلاء يؤدي إلى:

- إظهار حقيقة الإنسان الفعلية وإبراز أعماله وتصرفاته التي يستحق عليها الثواب أو العقاب، وذلك ليعرف حقيقة نفسه وإقامة الحجة البالغة عليه، فإن الله سبحانه وتعالى لا يحاسب الناس على ما يعلمه منهم، وإنما يحاسبهم على ما يقع منهم من أعمال.

- إظهار قدرات الإنسان ومؤهلاته واستعداداته البدنية والروحية من القوة إلى الفعل، ولذلك أهمية كبيرة في المسيرة التكاملية للإنسان: الفردية والمجتمعية، وتحقيق غاية وجوده.

أيهم أحسن عملا: أي: اسم استفهام، تقول: أيهم أخوك، وتلحق بها الهاء للتنبيه، مثل: أيها الرجل، وتستعمل لنداء القريب والبعيد، تقول: أيا زيد، وللتفسير، تقول: هذا جميل أي حسن، والحسن: حالة تدعو إلى تقبل الشيء وحبه والابتهاج به والرغبة فيه وضده القبح، وحسن الشيء: صار جميلا: (حسا ومعنى) والأحسن: الأجمل والأفضل، وفعل الأحسن: فعل ما هو أحسن وأجمل وأفضل، والجمع: محاسن، وتعني مزايا ومواضع الجمال في الشيء، وضدها مساوى، ومؤنث الأحسن: الحسنى، وتعني: العاقبة والمنزلة الحسنة أو السعادة، والحسنة: النعمة وضد السيئة من قول أو فعل، والإحسان: الاتقان وإجادة الصنع والإخلاص في العمل، ومقابلة الجميل أو الخير بأحسن منه، والشر بالصفح والمغفرة، والمحسن: فاعل الإحسان، والمتقن لعمله، والمتصدق على الفقراء والمحتاجين، وأن يعبد الإنسان الله كأنه يراه، والأسماء الحسنى: هي الأسماء التي تدل على صفات الله ذي الجلال والإكرام، وعددها المأثور: (٩٩: اسما) والعمل: الفعل والصنع والسعي عن قصد والمهنة، والجمع: أعمال، والعامل: من يعمل في حرفة أو مهنة أو صنعة أو

يأخذ الزكاة من أهلها.. والمراد: اختبرهم لمعرفة أيهم أفضل معرفة بحقيقة الحياة وغاياتها، وأكثرهم إخلاصا والتزاما بأداء التكليف الإلهي والأسرع في الطاعة وأداء الواجبات، والورع عن محارم الله جل جلاله، والاكتفاء في التمتع بما شرع الله عز وجل من الحلال الطيب، والزهد في كل ما هو حرام وخبيث، فلم يغتر بالزينة الفانية، وقنع باليسير من الحلال الطيب، وأدى ما عليه من حق النعمة وشكر المنعم بها عليه، ويحسن التصرف فيما يؤتي من مواهب وطاقات ونعم مادية ومعنوية، ولم يتخذها وسيلة إلى الأغراض الفاسدة والمحرمة، وذلك هو حقيقة النزول على سلامة الفطرة، وحكم العقل الرشيد، والالتزام بالقيم الربانية والشريعة المقدسة.

قال الإمام زين العابدين عليه السلام: « وأعلموا أن الله لم يحب زهرة الدنيا وعاجلها لأحد من أوليائه ولم يرغبهم فيها وفي عاجل زهرتها وظاهر بهجتها، وإنما خلق الدنيا وخلق أهلها ليبلوهم فيها أيهم أحسن عملا لآخرته »[1].

وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا: جعل: صير وشرع وبدل، والصعيد: المستوي من الأرض أو الفتات، والجرز: الأرض اليابس التي قطع نباتها.. والمراد: أن الله سبحانه وتعالى سوف يصير الأرض الجميلة العامرة بالحياة ويبدلها - بعد انتهاء مدة الحياة المقررة عليها - من الزينة والجمال والعمران، إلى الخراب والموت، فيعيد ما كان عليها من المخلوقات وأشكال الزينة - التي وجدت من أجل التكليف - إلى مجرد تراب مستوي بالأرض، فتصبح الأرض كصعيد أملس لا نبات فيه ولا شيء عليه (لا زينة ولا حياة) وذلك تمهيدا لانتقال الإنسان من عالم الدنيا إلى عالم الآخرة من أجل الحساب والجزاء.

ويترتب على ذلك:

---

(١) الكافي. ج٨. ص٧٥.

- تسفيه عقول وأحلام المغترين بالحياة الدنيا وزينتها مهما كان نصيبهم من العلم بظاهر الحياة والمال والثروة والجاه والسلطة وغيرها من زخارف الحياة الدنيا، فإن كل هذه الزينة من الأموال والقصور والمناصب والأسرّة والملابس الفاخرة وغيرها تنتهي إلى الفناء، وينتهي مصيرهم إلى القبور الساكنة الموحشة، ثم النار وبئس القرار.

- مدح العاملين من أجل الله سبحانه وتعالى والآخرة الزاهدين في زخارف الحياة الدنيا وزينتها الفانية.

- التسلية للمؤمنين عما يصيبهم من الظلم والحرمان والعذاب على أيدي الكافرين والمنافقين والحكام المستبدين وغيرهم، لأن هؤلاء المجرمين غير سابقين ولا معجزين الله عز وجل بكفرهم وضلالهم، وإنما هو الامتحان والابتلاء من الله عز وجل لهم لتظهر حقيقة أنفسهم والأعمال التي يستحقون عليها العذاب لألا تكون لهم على الله سبحانه حجة، وهو الغالب عليهم في الدنيا والآخرة، وأنهم سوف يحصلون على نصيبهم كاملا غير منقوص من الخزي والعار في الحياة الدنيا والعذاب العظيم في الآخرة، بينما يشعر المؤمنون بالرضا في الحياة الدنيا، ويفوزون بالجنة والرضوان في الآخرة، وهو عين السعادة في الدارين.

مضامين الآية الشريفة المباركة

تبين الآية الشريفة المباركة حقيقة حياة الإنسان على الأرض وأهدافها، وتشير بما لا يدع مجالا للشك إلى الطريق الذي يجب على الإنسان العاقل أن يسلكه فيها.

لقد ذكرت في بحث حقيقة الإنسان أنه مؤلف من روح وجسد:

- والروح جوهرة علوية شريفة لا تميل في نفسها إلى الأرض والحياة

عليها، وإنما تميل إلى عالمها عالم الملكوت العلوي. وقد قدر الله سبحانه وتعالى لها أن تتطهر وتتكامل بالمعرفة والعمل الصالح في الحياة الدنيا، فألبسها لبوس الجسد، وأسكنها الأرض إلى أجل معلوم، وافتتنها بزينة الأرض وزخرفها.

- ولأن الروح تلبست بلبوس الجسد المادي، فقد أصبحت مرتبطة بما على الأرض من أمتعة الحياة، مثل: المال والأولاد والجاه والسلطة وأحبته وأطمأنت إلى الحياة على الأرض وأنست بها، مع ميلها في أصل تكوينها إلى عالم الملكوت الأعلى.

وبهذا يحصل الابتلاء ويتحقق التكليف لتتحقق أهداف وغايات عظيمة من خلال المزيج العجيب بين الروح والجسد.

وتتضمن الآيات الشريفة المباركة حقائق عديدة، منها:

الحقيقة (١): أن الهدف من وجود الإنسان على وجه الأرض هو تمييز الخبيث من الطيب من خلال الامتحان، وأن الغاية هو إظهار كمال إحسان المحسنين وظهور الإنسان الكامل للوجود، قول الله تعالى: ﴿ لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾[1] الذي يمثل خلاصة مسيرة الإنسان وخلاصة الوجود كله.

الحقيقة (٢): أن الحياة على وجه الأرض مؤقتة وليست دائمة، وأن ما عليها من زينة هو بهدف ربط النفس الإنسانية بها لكي تؤدي تكليفها، فإذا انتهى أجل الحياة على وجه الأرض، محى الله جل جلاله ما عليها من زينة وجمال، وسلب ما بين الإنسان و بينها من التعلق، ونودي برحيل الناس إلى الله عز وجل فرادى كما خلقهم أول مرة، قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ

---

(١) الكهف: ٧.

شُرَكَٰٓؤُاْۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴾[1] ليحاسب كل فرد على عمله ويجازى عليه.

نتائج مهمة

ومما سبق نتوصل إلى النتائج المهمة التالية:

النتيجة (١): أن الإنسان مكلف بتصفية نفسه وتطهيرها وذلك ببقاء تعلق الروح بخالقها ومربيها ذي الجلال والإكرام، وقطع رابطة التعلق بالحياة الدنيا وزخرفها وزينتها واعتبارها حالة عابرة وليست شيئا خالدا، فلا يعطيها أكثر من حقيقتها وحجمها:

- فلا يجعل النفس أسيرة إلى رغبات الجسد وشهواته المادية .

- أن يجعل همه في الآخرة، ولا يحزن على ما فاته من زينة الحياة الدنيا وزخرفها وزبرجها.

- أن لا يغتر بما لدى الكافرين والمنافقين من المال والقوة والسلطان، وأن لا يخشاهم.

- أن يكون هدفه في الحياة هو تحسين العمل (أي الاهتمام بنوعية العمل وحقيقته وكيفيته العالية) بحيث يؤتي أكله في تصفية النفس وتطهيرها، فهذا ما يحدد قيمته عند الله تبارك وتعالى، وليس الاكتفاء بالكم وتحسين الظاهر.

وهذا هو الامتحان الذي يمتحن به الإنسان على وجه الأرض، ليتميز من خلاله أهل السعادة من الأشقياء.

---

(١) الأنعام: ٩٤.

النتيجة (٢): أن الله جل جلاله لم يرد تكوينا الإيمان من الناس جميعا، ولو أراد ذلك لجبر الناس بقدرته على الإيمان، ولكنه أراد أن يبتليهم، ليتميز الطيب من الخبيث، والسعيد من الشقي، وهذه هي ميزة الإنسان: أعطاه الله عز وجل العقل والإرادة والاختيار، وابتلاه لتظهر من خلال الابتلاء حقيقة كل واحد منهم، وهذا يدل على أن الكافرين لم يغلبوا الله جل جلاله على أمره بكفرهم وضلالهم، فلو شاء لهدى الناس جميعا، ولكنهم كشفوا عن خبث أنفسهم، وساقوها بسوء اختيارهم ومحض أرادهم إلى الشقاء الأبدي في الآخرة، رغم كل ما يمكن أن يحصلوا عليه من المال والأولاد والجاه والسلطة في الحياة الدنيا، وهذا أيضا بكامل إرادته التكوينية، ولو شاء لحرمهم منه.

النتيجة (٣): أن الله جل جلاله لا يحاسب الناس على ما يعلمه منهم، وإنما يحاسبهم على ما يقع منهم من أعمال ويصدر منهم من أفعال، وأن لا حساب ولا عقاب للإنسان على ما هو كامن في نفسه، ما لم يظهر له أثر في أقواله وأفعاله.

البحث (٧): من خصائص الإنسان

قول الله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾[1].

وقول الله تعالى: ﴿ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[2].

وقول الله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾[3].

بيان المفردات

وإذا أنعمنا على الإنسان: النعمة: الرفاه وطيب العيش وحسن الحال، واليد والصنيعة والمنة وما أنعم به من رزق ومال وغيره، وجمعها: نعم، والنعماء: النعمة

---

(١) الإسراء:٨٣- ٨٤.

(٢) يونس: ١١ - ١٢.

(٣) هود: ٩ - ١١.

تظهر على صاحبها، والنُّعم (بالضم) خلاف البؤس، ونعم الشيء: لان ملمسه ونضر منظره، ونعم باله: هدأ واستراح، ونعم بالشيء: سر واستمتع به.. والمراد: أن الإنسان الكافر، إذا أعطيناه ووفرنا له الأمن والصحة والمال والأبناء والمنصب والسلطة والراحة والرفاهة والرخاء والسرور وطيب العيش وسهلنا له أمور الحياة، كان حاله.

أعرض: الإعراض: الصد، تقول: عرض عن الشيء: صد عنه وجانبه وعدل عنه، وعارضه: ناقضه وقاومه وقابله، واعترض الشيء: حال دونه، وصار عارضا كما تكون الصخور في النهر أو الطريق، والمعارض: ما اعترض، ويطلق على السحاب لأنه يعترض في الأفق فيسده، قول الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1] والمراد: أن حال الإنسان الكافر إذا جاءته النعمة، هو الصد عن ذكر الله عز وجل، وعدم الالتفات إلى الصلة الوجودية التي تربط كل شيء في الوجود به: وجودا واستمرارا، فلم يؤدي واجب الشكر والطاعة له استكبار وعنادا، ولم يؤدي حق النعمة إلى الناس، ومارس الظلم والطغيان والفساد في الأرض، مناقضا بذلك عقله وفطرته والفلسفة الواقعية للخلق والحياة، وذلك:

- لأن الإنسان مربوب وليس له استقلال وجودي في نفسه عن ربه.
- وأن النعمة والضر بيد ربه لا بيده.
- وأن الواجب على الإنسان أن يكون في النعمة شاكرا خائفا من زوالها، وفي الضر راجيا لرفعه عنه.
- أن عدم الشكر للنعمة، يؤدي إلى اضطراب الحياة وظهور الفساد في الأرض.

---

(١) الاحقاف: ٢٤

ونأى بجانبه: نأى: بعد، والجانب: أحد شقي الإنسان: اليمين أو اليسار.. والمراد: أن الإنسان الكافر تصيبه الغفلة والغرور في حال النعمة، فينسى واهب النعمة ولا يؤدي حقها عليه، فيميل عن الحق والعدل، وعن شكر المنعم وطاعته، ويلتزم المواقف المعادية للحق: تعظما وتبخترا وترفعا وتكبرا وعنادا واستبدادا، ويولي ظهره عن ربه وكأنه مستغن عنه، ويتخذ لنفسه جهة بعيدة أو موقفا بعيدا عنه وينقطع عن ذكره وطاعته.

وإذا مسه الشر كان يؤسا: مس الشيء: لمسه بيده، ومسه المرض أو العذاب أو الضراء: أصابه، ومس المرأة: باشرها، والمس: الجنون، ورحم ماسة: أي قرابة قريبة، وحاجة ماسة: أي مهمة، والشر: نقيض الخير، وهو اسم جامع للأذى والرذائل والخطايا، والشرير: كثير الشر، وجمعه: أشرار، وشر الناس: أكثرهم شرا، وكان شره مستطيرا: كان عذابه فاشيا منتشرا غاية الانتشار، واليأس: القنوط، وهو نقيض الرجاء، تقول يئس منه: أي انقطع أمله منه وانتفى طمعه فيه، فهو يائس ويؤوس، واستيأس: اشتد يأسه، وأيأسه: جعله ييأس.. والمراد: إذا أصابه الفقر أو المرض أو النازلة أو الشدة أو المصيبة أو غيرها من مظاهر السوء – ولو كانت إصابة خفيفة كالمس – فإنه يصاب باليأس الشديد والقنوط من روح الله تبارك وتعالى ورحمته، وينقطع رجاءه عن الخير، حيث يكون قد وضع اعتماده كله على الأسباب الظاهرة، وأخلد إليها، وقطع رجاءه من الله عز وجل خالق الأسباب والغالب عليها والقاهر لها.

وإسناد المساس إلى الشر ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ﴾[1] بعد اسناد الإنعام إلى ضمير الجلالة ﴿ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ ﴾ يدل على أمور، منها:

- أن الله جل جلاله منزه عن الشر، وأن الخير مراد منه بالذات

---

(١) الإسراء: ٨٣.

والشر ليس كذلك.

- أن أمور العالم منوطة بقوانين كلية، وأن أفعال الله عز وجل مربوطة بحكم ومصالح ظاهرة وباطنة، جلية وخفية.

- أن الشر أمر نسبي، فما يتحقق منه في الحياة، مثل: الفقر والمرض والخسارة والخوف والهزيمة والموت وغيرها، إنما هو شر في مورده الخاص بالنسبة إلى الشخص أو العائلة أو القبيلة أو الشعب، وهو غير مقصود بالذات في الإرادة والحكمة الإلهية، ولكنه خير لا مناص منه بالنسبة إلى النظام العام للإنسان والتدبير الكلي للحياة، وهو المقصود بالذات في الإرادة الإلهية، وهو موافق قطعا للحكمة الإلهية البالغة، وهذا واضح لكل متأمل ذي بصيرة في رؤية الكون والإنسان والحياة.

- أن ما يوجد من الشر هو نادر قليل إذا قيس إلى ما يوجد من الخير، وقد وجد الشر القليل كنتيجة تبعية إلى ما وجد من الخير الكثير.

قل كل يعمل على شاكلته: الشاكلة: من الشكل وهو تقييد الدابة، وتطلق على السجية والخلقة والطبيعة والطريقة والزمام والعادة والدين والنية، وذلك لتقييدها الإنسان بأن يجري على ما يناسبها وما تقتضيه.. والمراد: أن لكل إنسان طريقة تخصه وحده، وهي تمثل شخصيته الفعلية ومكوناته الحقيقية وجوهر روحه وحقيقة نفسه ومقامه، وقد تشكلت من خلال التفاعل بين مجموع العوامل الداخلية والخارجية الفاعلة فيه، في ظل ما يتمتع به من القدرة على التفكير وحرية الاختيار، فهي خلاصة عقيدته وتجاربه وصفاته الروحية ومشاعره ونيته، وتعطيه اتجاها وخطا معينا في الحياة، وأنه يعمل وفقا لها وبما يناسبها ويوافقها، فهي بمثابة الروح في البدن، حيث أن البدن بأعضائه وأعماله يمثل هيآت الروح المعنوية، وهكذا هي العلاقة بين الطريقة والعمل - كما أثبته العقل والنصوص الشريفة والتجارب - قول الله تعالى: ﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا

تَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًاۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾[1] وأن الإنسان في يوم القيامة يحاسب وفقا لهذه الطريقة ويثاب أو يعاقب بحسبها، فإن الله سبحانه وتعالى شاهد على العباد، وهو عالم بحقيقة كل عبد وعالم بحقيقة عمله.

والخلاصة: من كانت له شاكلة عادلة سهل اهتداؤه إلى الحق والعمل الصالح وكان من السعداء، ومن كانت له شاكلة ظالمة صعب عليه الاهتداء إلى الحق وتلبس بالباطل والعمل السيء وكان من الأشقياء.

وفي هذا تحذير شديد للإنسان يدعوه إلى الصدق والاخلاص:

- في اختيار الطريق والمنهج.
- وفي الكدح والعمل المستمر في الطريق إلى النهاية.

فربكم هو أعلم بمن هو أهدى سبيلا: الرب: المالك والسيد والمصلح والمنعم والمربي، والجمع: أرباب، ورب الشيء: جمعه وملكه، ورب الأمر: أصلحه، ورب النعمة: زادها، ورب الولد: رعاه وتعهده بما يغذيه وينميه ويؤدبه، والعلم: إدراك الشيء بحقيقته عن يقين، وعلم بالشيء: عرفه وشعر به فهو عالم، وجمعه: علماء، والعليم والعلامة: كثير العلم واسع المعرفة، وتعلم الأمر: عرفه وأتقنه، وعلمه: منحه العلم والمعرفة، والمعلوم: المعروف، والهدى: الرشاد أو الدلالة بلطف إلى ما يوصل إلى المطلوب، واهتدى: استرشد أو طلب الهداية أو قام عليها، والهادي: المرشد إلى الخير والصواب، وهو من أسماء الله الحسنى، وقد سبق معناه، والسبيل: الطريق (يذكر ويؤنث) والجمع سبل.. والمراد: أن الله جل جلاله أعلم بمن يبتغي الهداية ويسلك سبيلها وهو قائم عليها ويعلم نيته ودرجة صدقه وإخلاصه فيها، ويعلم من هو ضال: كافر أو منافق أو مرائي.

---

(١) الأعراف: ٥٨.

ولو يعجل الله للناس استعجالهم بالخير: عجل وتعجل: أسرع، واستعجله: استحثه، والعجل: التسرع في طلب الشيء قبل أوانه المضروب له، والعجول: المتسرع، والاستعجال: طلب حصول الشيء بسرعة، والخير: النعم والمال الكثير الطيب وصلاح الحال، وهو ضد الشر، وخيار الناس وأخيارهم: ضد أشرارهم، وخار: صار ذا خير، واستخار: طلب الخير، وخار الله لك في الأمر: جعل لك فيه خيرا، وخار الشيء على غيره: فضله وانتقاه واصطفاه واختاره من بينهم، وهي الخيرة، والجمع: خيرات، تقول محمد خيرة الله في خلقه: أي أفضلهم وأحسنهم.. والمراد: أن العجلة واحدة من غرائز الإنسان التي وجدت بوجوده، قول الله تعالى: ﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَـٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولاً ﴾[1] فهو بطبعه يتعجل الخير لأنه يحبه ولا يتعجل بالشر لأنه لا يحبه، إلا إنه في حال اليأس والغضب والطيش والحماقة والعناد يتعجل الشر خلافا لطبعه وغريزته:

- لأنه يعيش القضايا في هذه الأحوال من موقع الانفعال، وليس من موقع الدراسة الواعية للحقيقة والموقف.

- ولأنه يتوهم في هذه الأحوال الانفعالية والغفلة المطبقة بأن الشر خير له مما هو فيه من ضغوط المؤثرات.

إلا أن الله سبحانه وتعالى لا يستجيب لهم في هذه الأحوال بتعجيل الشر الذي يستحقوه كتعجيله لهم بالخير، لأن الله عز وجل يقدر الأمور على أساس الحكمة المرتبطة بالنظام المحكم الشامل للكون والإنسان والحياة ولمصلحة الإنسان الحقيقية، وليس تبعا لأهواء الإنسان وأفعاله، ولو تعجل الله سبحانه وتعالى لهم بالشر الذي يستحقونه كتعجله لهم بالخير، لم يبقوا في الدنيا متمتعين بخيراتها ونعيمها الذي جعله الله جل جلاله لهم فيها.

---

(١) الإسراء: ١١.

لقضي إليهم أجلهم: قضى: حكم وفصل وأنهى، وقضى الشيء: قدره وصنعه باحكام، وقضى حاجته: نالها وبلغها، والأجل: غاية الوقت والمدة المحددة للشيء، والجمع: آجال، وجاء أجله: حان موته.. والمراد: لو يعجل الله جل جلاله لهؤلاء الحمقى إجابة السؤال بالشر كاستعجاله إجابة السؤال بالخير الذي يرغبونه لذاته، لحقتهم العقوبة وانتهى أمرهم وهلكوا، ولكن الله جل جلاله يمهلهم بلطفه ورأفته ورحمته - رغم تماديهم في غيهم وضلالهم - ولا يوقع بهم عقوبة الاستئصال التي يستحقونها، لكي يمنحهم الفرصة للتوبة والعودة إلى الحق عن الضلال، ولكي يتحملوا مسؤولية تصحيح الأوضاع السلبية والمواقف الخاطئة بصورة حاسمة رشيدة ويجبروا الضرر، وذلك:

- لأن الدنيا في الأساس دار ابتلاء وامتحان وليست دار العقوبة والجزاء.

- ولأن التسريع بالعقوبة يعطل حالة الاختبار التي هي أساس التكليف وملاك التكامل الإنساني: الفردي والمجتمعي، حيث تنزل العقوبة بمجرد المعصية وظهور الحمق والعناد، وهو إن لم يلغي الاختيار في الحقيقة التكوينة الداخلية الثابتة للإنسان، فإنه يعطلها في الواقع الخارجي، فتكون الطاعة بحسب الواقع الخارجي حالة جبر واضطرار.

- ولأن التعجيل بالعقوبة لا يتيح إقامة الحجة البالغة، حيث أنه لا يترك للناس مجالا للتبرير والعذر فيما يذهبون إليه من التقصير والانحراف ويموتون عليه من الضلال والمعصية.

- ولأن التعجيل بالعقوبة خلاف ما كتب الله عز وجل على نفسه من اللطف والرحمة لجميع العباد، حيث ينقطع بتعجيل العقوبة السبيل إلى التوبة والتصحيح.

- ولأن الله عز وجل لا يخاف الفوت، لأن الحياة في قبضية يمينه، وهو

على كل شيء قدير، فلا يستطيع أحد الهرب من مملكته وسطوته وحكمه.

قال الله تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴾(١).

فنذر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون: نذر: ندع ونترك، ورجا: أمل، والمرجوا: موضع الرجاء، ولقي: استقبل، ولقاء الله: حسابه يوم القيامة، والذين لا يرجون لقاء الله: هم المستسلمون لزخارف الحياة الدنيا المنكرون للبعث وما يترتب عليه من الحساب والجزاء، والطغيان: مجاوزة الحد المقبول، وطغى: تجبر وأسرف في الظلم والعصيان، والطاغية: عظيم الظلم، والطاغوت: كل رأس في الضلال، والعمه: شدة التحير والتردد والضلال، وعمه في الأمر: لم يدر وجه الصواب فيه، والعمه في البصيرة، كالعمى في البصر.. والمراد: نترك - بمقتضى الحكمة والرحمة - الكافرين المنكرين للمعاد المارقين عن ربقة الدين المتمردين على قيم الحق والخير والعدل متحيرين في باطلهم عماة عن الرشد والصواب في الحياة، رغم استعجالهم بالشر، وذلك:

- استدراجا لهم.
- ولمنحهم فرصة التوبة والعودة إلى الرشد.
- أو يأتي حين العقوبة بالاستئصال أو عذاب يوم القيامة.

- ولأن الحيرة والتردد عقوبة في نفسها، لأنهم مهما أوحوا إلى أنفسهم بمنطق العذر والتبرير، فإنهم لا يشعرون أبدا باليقين والاطمئنان، لأن اليقين والاطمئنان لا يمكن تحصيلهما إلا بالواقعية في التفكير والفعلية في الموقف، وبذكر الله سبحانه وتعالى، ولا سبيل لخروج الإنسان من الحيرة والتردد، إلا بالتوفيق

---

(١) الكهف: ٥٨.

الإلهي وحسن التفكير والتصرف. وهكذا يعاني الكافرون والعاصون المنقطعون عن الله عز وجل عذاب الحيرة والقلق في الحياة الدنيا، قبل أن يعانوا عذاب الله في الاخرة بحقيقة أفكارهم وصفاتهم وأعمالهم في نار جهنم.

وهو يدل على أن السنة الإلهية في خلق الأشياء والاتيان بالمسببات بعد أسبابها، تقتضي إسراع الشر وهو الهلاك بالعذاب إلى القوم المسرفين، لأن سببه قائم، وهو: الكفر بلقاء الله عز وجل والطغيان في الحياة، إلا أن الله عز وجل – وهو المهيمن على الوجود بأسره والحاكم على نظامه – يمنح بحكمته ورأفته ورحمته هؤلاء المسرفين الفرصة من أجل التوبة والعودة عن الغي والطغيان.

وفي الآية الشريفة المباركة: تحذير شديد من الاستغراق في الغفلة، ودلالة على التشديد في الوعيد لمن لا يتعظ في فترة الامهال.

وإذا مس الإنسان الضر: المس: اللمس والإصابة، تقول مستهم البأساء والضراء: أي أصابتهم، ومسه الشيطان: عرض له، ومس المرأة: باشرها، والضر: الخطر والجهد والألم والأذى والمشقة والشدة والنائبة والنكبة والفقر والبلاء وغيره من مظاهر الشر النسبي الذي يصيب الإنسان وسوء الحال في الحياة، والضراء: الحالة التي تضر وتظهر آثارها على صاحبها، والضار المؤذي، والمس يدل على المرتبة الأقل من مراتب الإصابة بالضر.

دعانا لجنبه أو قائما أو قاعدا: دعا: ناد واستغاث، والدعاء: مصدر دعا، والجمع أدعية، والدعوة: الدعاء إلى أمر بطلب تحقيقه، والجنب والجانب: الناحية والشق، والقيام: الوقوف والانتصاب والاعتدال والتولي والثبات والعزم، والقعود: الجلوس والاهتمام والتهيؤ، والقاعد عن الأمر: من يتراخى في انجازه، والقاعد: المرأة التي انقطعت عن الحيض أو الولد، والجمع: قواعد، والقعيد: المجالس والحافظ وغير القادر على القيام، والقاعدة من البناء: أساسه، والجمع: قواعد.. والمراد: أن الإنسان بحسب سجيته يتوجه دائما (في الماضي والحاضر والمستقبل) إلى الله

سبحانه وتعالى إذا أصابه الضر داعيا مستغيثا ملحا من أجل أن يكشف ما به من الضر، وكان ذلك منه وهو مضجعا أو قائما أو قاعدا.. أي في جميع حالاته: من الصحة والمرض، وفي جميع حركاته وسكناته، ما ذكر منها وما لم يذكر.

فلما كشفنا عنه ضره: كشف الشيء: رفع عنه ما يغطيه وأظهره، وكشف الله غمه وضره: أزاله.. والمراد: أن الله تبارك وتعالى يستجيب لدعائهم، ويكشف ما بهم من الضر.

- ليقيم عليهم الحجة.
- ويفسح لهم المجال للتوبة والتصحيح وجبر الضرر.
- ويدفعهم إلى مقام الإيمان والطاعة وأداء الحقوق.

مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه: مر: جاز وذهب ومضى، واستمر: مضى على طريقة واحدة.. والمراد: كناية عن الغفلة والنسيان والاعراض والاندفاع والانطلاق فيما كان فيه قبل الشدة وكشف الضر، وعدم عنايته بشأن من كان ولا يزال محتاجا إليه وهو متقلب في نعمه وإحسانه، فقد شعر بعد كشف الضر بالطمأنينة، وارتفع عنه الشعور بالخطر، فلم يتعظ بما حصل له، ولم يتوقف من أجل التأمل والتدبر والمقارنة بين حالته الأولى المليئة بالآلام والأحزان والمشاكل، وحالته الثانية البعيدة عن كل سوء، ونسي من دعاه فاستجاب له، ولم يسعى لتصحيح السلوك والمواقف وجبر الضرر، ورجع إلى طغيانه وتمرده، لأنه في غفلة مطبقة بسبب الاستغراق في الشهوات والملذات الحسية، ولا يشعر بما هو فيه حقيقة من خطر الاسراف وتجاوز الحدود.

كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون: ذا: اسم إشارة للمفرد المذكر، وتلحقها كاف الخطاب فيقال: ذاك، وقد تتقدمها ها التنبيه، فيقال: هذا، وقد تتوسط لا البعد، فيقال: ذلك، وكذلك: الكاف بمعنى مثل، أي مثل ذلك، وزين الشيء: حسنه، وزين له

الأمر: حسنه ورغبه فيه، والمسرف: كل من فسد عقله وظلم نفسه أو غيره وكثرت معاصيه وتجاوز حد الاعتدال في أفعاله.. والمراد: أن الشيطان الرجيم قد زين لهؤلاء الحمقى المسيئين التزيين العجيب:

- باتباع الهوى والاستغراق في الشهوات والملذات الحسية، وصرف القوى والمشاعر التي منحهم الله تبارك وتعالى إياها فيما لا ينبغي لهم صرفها فيه.

- نسيان جانب الربوبية والإعراض عن ذكر الله عز وجل والآخرة.

- التوجه إلى الله عز وجل في وقت الشدة، ونسيانه والغفلة عنه وترك الطاعة والدعاء والعبادة في وقت الرخاء.

- عدم الالتفات إلى الاستدراج وخطر المصير وسوء العاقبة.

فخيل إليهم أن الحياة ممدودة لشهواتهم وطغيانهم بدون قيد أو شرط، وأسرفوا بدون وعي للحقيقة والمصير في طغيانهم، وساروا بذلك إلى حتفهم في طريق الشقاء والخسران.

وفيما سبق من القول:

- تحذير شديد من مغبة الاستغراق في الأعمال القبيحة، لأن ذلك يؤدي إلى التطبع بها، فتزول صورتها القبيحة (التي هي حقيقتها) من نفسه وعقله وقلبه، ويراها بعد الاستغراق فيها حسنة جميلة، وتلتذ بها نفسه الملوثة بخلاف الفطرة والطبع الأولي للنفس.

- وتهكم رباني باستهتار هؤلاء المسرفين.

- ودليل على مدى جهل هؤلاء المسرفين وحماقتهم وظلمهم الشديد لأنفسهم.

- وخذلان الرب الرؤف الرحيم لهم.

- وتعليل نسيانهم الرب الجليل والآخرة بتزيين الشيطان التزيين العجيب لأعملهم القبيحة.

ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة: أذاق: أنزل وأعطى، وذاق الطعام: تناوله بالفم ليعرف طعمه، فهو ذائق، وجمعه: ذائقون، وأذاقه الشيء: جعله يذوقه، وذاق العذاب: قاساه، والرحمة: رقة القلب، وهي من الله: الاحسان، وتطلق على كل ما يدل عليها من كتاب منزل أو رسول.. والمراد: لإن أنعمنا على الإنسان الكافر بالعلم والصحة والأمن والثروة والسلطة وغيرها من مظاهر النعمة، وذاق لذتها وأصبح يتقلب فيها مغتبطا بها لمدة من الزمن.

ثم نزعناها منه: نزع الشيء من مكانه: قلعه، ونزع الشيء منه: سلبه منه، ونزعه من عمله: عزله، ونزع يده من جيبه: أخرجها، ونزع يده من الطاعة: خرج منها.. والمراد: جاءت المفاجأة لتطوي صفحة قديمة وتفتح صفحة جديد، فسلبت منه النعمة التي كان شديد التعلق والحرص عليها منه، بسبب عمل السنن الكونية المنظمة للحياة، فانقلبت الصحة إلى مرض، والأمن إلى خوف، والغنى إلى فقر، والسلطة إلى تشرد وسخط ومحاكمات، وأصبح الحال غير الحال.

إنه ليؤوس كفور: اليأس: القطع بأن الشيء المتوقع لا يكون، والقنوط من رحمة الله سبحانه وتعالى، وهو نقيض الرجاء، تقول يئس منه: انقطع أمله منه وانتفى طمعه فيه، فهو يائس، ويؤوس: شديد اليأس ومنقاد له، وكفور: جاهل ظالم شديد الكفر بالله ومتجاهل لأداء حق النعمة عليه.. والمراد: أن الإنسان المنقطع عن الله تبارك وتعالى، يتصف بضيق الصدر والعجلة والانفعال والقصور، ويعيش اللحظة بما فيها من المآسي والأحزان ويستغرق في حيثياتها الحسية ولا ينظر بواقعية إلى الأسباب الحقيقية وما وراءها، فإذا نزعت عنه النعمة وفق السنن الكونية، أصابه اليأس والقنوط من رحمة الله سبحانه وتعالى، وانقطع أمله ورجاؤه في عودة النعمة له عاجلا أو آجلا، لقلة صبره وقصر نظره، وعدم توكله على ربه الذي لا يعجزه

شيء في الأرض ولا في السماء، فهو يرى في نفسه السبب المستقل في التدبير والحصول على النعمة، ولا يرى سبيلا إلى النعمة والأمل والقوة غير الأسباب الظاهرة، ولا يرى لله سبحانه وتعالى ملكا للنعمة ولا دورا في إيصالها إليه، قول الله تعالى: ﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1] وقد خبت عنه الأسباب الظاهرة ولم يعد ير لها وجودا، فأنقطع أمله وضاق صدره ودخل في ظلمات التخبط ودوامة التفكير الذي لا يعول على شيء، وتجاهل ما تبقى له من نعم الله تبارك وتعالى عليه ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾[2] وربما أقدم على الانتحار أو الاضرار بنفسه أو بغيره، وذلك لعدم خوفه من ربه، وبذلك ندرك خطورة الانقطاع عن الله عز وجل على حياة الإنسان: الفردية والمجتمعية، في الدنيا والاخرة.

ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته: النعمة: الرفاه وطيب العيش وحسن الحال، واليد والصنيعة والمنة، وما أنعم به من رزق ومال وغيره، وجمعها: نعم، والنعماء: النعمة تظهر على صاحبها، ونعم الشيء: لان ملمسه ونضر منظره، ونعم باله: هدأ واستراح، ونعم بالشيء: سر واستمتع به، وسمى الله تبارك وتعالى إحلال اللذات بالإنسان إذاقة نظرا لسرعة زوالها تشبيها بما يذاق ثم يزول سريعا.. والمراد: تبدل الحال من العسر إلى اليسر، ومن الفقر إلى الغنى، ومن المرض إلى الصحة، ومن الخوف إلى الأمن، ومن الشدة إلى الرخاء، وأصبح الإنسان في إشراقة ودعة.

ليقولن ذهب السيآت عني: القول: الكلام أو الخطاب أو الرأي أو المعتقد، والجمع: أقوال وأقاويل، وذهب: سار ومضى وزال ومات وانفرد، تقول ذهب بالشيء: أزاله وأضاعه، وأذهب حسناته: أضاعها، وذهب كل إله بما خلق: انفرد به واستقل،

---

(١) الزمر: ٤٩.

(٢) إبراهيم: ٣٤.

والسوء: كل آفة وشر، والسيء: الفاسد والقبيح والخبيث والمحزن والمضر، والسيئة: مؤنث السيء ونقيض الحسنة، والجمع: سيئات، والمسيء: من يأتي بالإساءة وهو نقيض المحسن، والسوأى: مؤنث الأسوء وهي العقوبة المتناهية في الشدة والسوء، وسوء العذاب: أشده وأسوؤه، والسوأة: العورة وكل ما يسوء منظره إذا انكشف، والجمع: سوءات.. والمراد: يقول زالت عني البلايا والمصائب والشدائد التي تسوؤني وتحزنني وتدخل علي الهم والغم، وكان زوالها بما أوتيت من علم ودراية وقوة وحسن تدبير، ولا فضل لأحد علي فيما أوتيت، فزوالها بسببي أنا وحدي، ولن تعود لي السيئات بعد زوالها، ولن تنزل علي ثانية بعد ارتفاعها. فهذا الإنسان يعيش الغفلة والاسترخاء والاستغراق في اللحظة، ولا يحتسب لمخاوف المستقبل وزوال النعمة وما يمكن أن يحدث من مفاجاءات وتغيرات في الأوضاع استنادا إلى السنن الكونية الحاكمة بالتغير والتبدل وعدم الثبات بحكم العقل والتجربة أي حساب، وهذا يدل على:

- خطورة الاستغراق في الذات والأسباب الظاهرة.
- وأن الترقب لورود المساوء والشدئد يكدر نشوة السرور والفرح وينغص صفو العيش لاسيما لدى غير المؤمنين.

إنه لفرح فخور: الفرح: السرور والابتهاج وانفتاح القلب بما يلتذ به، وضده: الغم والحزن، وفرح: استخفته النعمة فأشعرته بالغرور، والفخر: الاعجاب بالنفس والتباهي والتكبر والتعال على العباد بما أوتي من النعمة، والتفاخر: التعاظم والزهو، والفخور: الذي يكثر فخره ويعدد مناقب نفسه تعاظما وزهوا على العباد والاستهانة بهم.. والمراد: أخذته النشوة واستخفته النعمة وتجاهل الأحكام والقيم ولم يقف عند حدود الواقع، وذلك نظرا لرؤيته القاصرة، وفهمه الخاطيء لحصول النعم وزوالها، فهو ينظر فقط إلى صورة النعمة وأسبابها الظاهرة، وينشغل بها ويستغرق فيها، ولا ينظر إلى المنعم وإلى غاية النعمة ودورها الأساسي في حياة

الإنسان: الفردي والمجتمعي، فتكبر بسبب ذلك وتعاظم على الناس، ولم يقتصد في فرحه، ولم يشكر النعمة، ولم يؤدي حقها إلى الله سبحانه وتعالى وإلى الناس، ونسي ما كان فيه بالأمس من الشدة والخوف والعسر، ولم يحتسب إلى المستقبل وإمكان عودة السيئات إليه من جديد استنادا إلى السنن الكونية الحاكمة لحياة الإنسان على الأرض.

إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات: الصبر: التجلد على احتمال البلوى ومنع النفس من الجزع والشكوى، وصبر عن الشيء: أمسك نفسه وحبسها عنه، والصالح: المستقيم والنافع والمناسب والسليم من العيب والكثير الوافر وهو نقيض الفاسد، والصالح من الناس: المستقيم المؤدي لواجباته، والجمع: صلحاء، تقول أصلح في عمله: أتى بما هو صالح نافع، وأصلح الشيء: أزال فساده، وأصلح ذات البين: أزال ما بينهم من خلاف وعداوة وخصومة وشقاق، والصلاحية: الاتساق في العمل وحسن التهيؤ له، والصلاحية الإدارية: مدى ما يخوله القانون والنظام التصرف فيه.. والمراد: استثناء المؤمنين الصادقين في إيمانهم المخلصين في نياتهم من الصفات السيئة المذكورة في الآيات الشريفة المباركة، فهم:

- صابرين في البأساء والضراء، إيمانا بالله عز وجل واحتسابا إليه ورضا بقضائه وتسليما لأمره.

- ويؤدون حق النعمة عليهم من الشكر والتواضع والبذل وغيره.

- ويؤدون الأعمال الصالحة والنافعة للناس بأمانة واستقامة، ويبتعدون عن كل ما هو مضر وفاسد.

وهذا يدل على أن الإيمان يؤدي إلى:

- سمو الروح، وسعة الأفق، وانشراح الصدر، وبعد النظر، والواقعية

الصافية في التفكير.

- عدم الغفلة عن ذكر الله ذي الجلال والإكرام وعن الواجبات والمسؤوليات العامة والخاصة.

- التوزان في الشعور والقدرة الفائقة على هضم مختلف الحالات وتجاوز الصعوبات بالصبر والنفس الطويل.

- العدل في السلوك والمواقف.

- التحلي بالأخلاق الحسنة وعمل الصالحات والاحسان إلى الناس وتجنب السيئات.

أولئك لهم مغفرة وأجر كبير: غفر الشيء: ستره وغطاه، وغفر الله ذنوبه: سترها وعفا عنه، واستغفر الله لذنبه: طلب منه أن يغفره له، والأجر: الثواب.. والمراد: أن الله تبارك وتعالى يغفر ذنوب المؤمنين الصادقين في إيمانهم مغفرة عظيمة، ويمحو آثار الطباع الذميمة من أنفسهم، ويحل محلها الصفات الحميدة، فهم الذين صبروا في البأساء والضراء إيمانا واحتسابا، ولم يصابوا بالغرور والبطر في الرخاء، وعملوا الصالحات في الحالتين: الشدة والرخاء، ويدخلهم الجنة خالدين فيها أبدا، حيث النعيم المقيم والرضوان الذي لا يعلم حقيقته وكنهه إلا الله سبحانه وتعالى، لأنهم أخلصوا له العبودية في الفكر والشعور والقول والعمل، فلا يصدر عنهم إلا الصدق والعمل الصالح.

واسم الإشارة (أولئك) يدل:

- على فضلهم من حيث هم يتصفون بالصفات الحميدة المذكورة.

- وعلى علو درجتهم ومنزلتهم عند الله عز وجل.

مضامين الآيات الشريفة المباركة

الآيات الشريفة المباركة تتضمن حقائق عديدة، منها:

الحقيقة (١) للإنسان الكافر حالتين، وهما:

- إذا حصل على النعمة بجميع أشكالها من الأمن والصحة والمال والجاه والسلطة والأبناء والرفاهة والرخاء والسرور وطيب العيش، ووافقته على ذلك الأسباب الظاهرية التي أخلد إليها ووضع عليها كل أمله في الحياة، أصبح ثملا، وأصابه الغرور وانجر إلى الفساد والعمل السيء، ولم يشكر النعمة ولم يؤدي حقها، واندفع مع تيار الحياة بدون حدود ولا كابح ولا زاجر ولا مبالاة، واشتغل بالنعمة وتعلق بها قلبه وملأت كل وجوده، ولم تدع له فراغا لرؤية خالقه ومربيه والمنعم عليه، ونسيه وتباعد عنه ولم يذكره ولم يشكره واتخذ لنفسه جهة أو مكانا بعيدا عنه، وربما عاداه وحاربه مع كافة أوليائه.

- وإذا سلبت منه النعمة الموهوبة له، وأصابه الشر بأي مستوى كان وبأي شكل من الأشكال - حتى وإن كانت الإصابة خفيفة كالمس - أصبح شديد اليأس والجزع والهلع والذلة والمهانة، ولم ينظر إلا مظاهر النعمة الأخرى التي لا تحصى عليه، ودخل في دوامة التفكير، وانقطع رجاءه عن الخير والنعمة والعافية، لأنه لا يرى سببا للخير والعافية والقوة والأمل إلا الأسباب الظاهرة، فهو يخلد إليها وينسى مسبب الأسباب ومصدر القوة في الوجود كله وهو الله سبحانه وتعالى، فيرى نفسه - وقد زالت عنه الأسباب الظاهرة ولا يجد من يستطيع تخليصه من الشدة والشر غيرها - ضعيفا عاجزا أمام صعوبات الحياة وشدائدها وسطوتها وجبروتها وقهرها، فيصاب باليأس والوهن وضعف الإرادة والشعور بالخيبة والضياع، ويفقد الشعور بالأمل، وربما أقدم على الانتحار أو استسلم للمصيبة وأصبح أسيرا لها وغير قادر على مقاومتها ومواجهتها.

وينتج عن الاستغراق في الحالة الحسية:

- السطحية والانفعالية والعجلة وقصر النظر وضيق الأفق وعدم الاستيعاب للحقائق وتجاهلها وعدم الاكتراث بها عند معرفتها.

- فقدان التوازن في التفكير والشعور والسلوك والمواقف.

- عدم الشعور بالمسؤولية المطلوبة: الخاصة والعامة.

- معصية الرب الجليل وعدم شكره على النعمة.

- الانحراف عن الحق والعدل والخير في السلوك والمواقف.

- الاستبداد والاستغراق في الذات والأنانية والانكماش على النفس والمصالح الخاصة والشخصية والاستغراق فيها.

- تمكن الصفات السيئة من نفسه، مثل: الكبر والحسد والعناد والكراهية والبغضاء وحب الدنيا والظلم للآخرين والصراع على المناصب والمغانم في الحياة وغيرها.

الحقيقة (٢) أن حال الإنسان الكافر يختلف عن حال الإنسان السوي، وهو حال الإنسان الباقي على أصل الفطرة، وهو على قسمين:

- الإنسان المؤمن الذي حافظ على أصل فطرته بتأييد إلهي وتسديد رباني، فلم ينحرف ولم يضل وبقي على أصل الفطرة التي تهديه مستنيرا إلى ربه في جميع الأحوال، فهو يفكر بواقعية وموضوعية وهدوء، يشكر النعمة ويؤدي حقها على العباد حفاظا عليها من الزوال، ولا يصيبه الغرور والبطر خوفا من الاستدراج، ولا يهتز ويتهاوى وييأس من رحمة الله عز وجل إذا أصابته المشاكل والمصاعب والفتن والمحن، بل تزيده إيمانا واحتسابا وتسليما وتثبيتا وشعورا أعمق بالمسؤولية في الحياة على طريق الهدى والرشاد، ويقف قويا كالجبل الشامخ

أمام المتغيرات والصعوبات والشدائد منتظرا فرج ربه ورحمته، مستقيما على طريق الهدى، طريق الحق والعدل والخير والفضيلة، وذلك بسبب اعتماده على ربه وتوكله عليه وثقته المطلقة به والتسليم المطلق لأمره، وهو حقيقة الإيمان والصدق فيه، قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾[1].

- الإنسان العادي الذي يغفل عن الله عز وجل في وقت السعة والعافية، حيث يحجبه الانشغال بالأسباب الظاهرة عن خالقه العظيم، ثم ترجعه الشدة والمصيبة إلى أصل الفطرة، حيث تهز الشدة والمصيبة مشاعره، وتزيلا الحجب عن الفطرة، وتنسياه الأسباب الظاهرة، وتفتحا قلبه على قدرة خالقه وربه، فيعود إلى خالقه العظيم خاضعا مبتهلا ويسأله كشف الضر عنه، ويستمد منه القوة والعون للخروج من المحنة والشدة. فيكون في الحالة الاعتيادية مشغولا بالأسباب الظاهرة غافلا عن ربه عز وجل، ويكون في الشدة والمصيبة خاضعا متذللا لربه جل جلاله، وهذا يدل على أن الشدة والحوادث الخطيرة، تزيل الحجب والظلمات والطبقات السوداء عن فطرة الإنسان، فيسطع فيها نور التوحيد، ويعود الإنسان إلى ربه الجليل خاضعا خاشعا متذللا. قول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا ﴾[2].

الحقيقة (٣): أن الإنسان الكافر وتحت تأثير الضعف في المصيبة أو الضعف عن مواجهة الحقيقة الناصعة يضيق صدره ويفقد الصبر وتنهار أعصابه ويصاب بالطيش والغرور، وبدلا من التوبة والرجوع إلى الحق:

- فيقدم على الانتحار وإيذاء النفس في مواجهة مصائب الدنيا

---

(١) المعارج: ١٩ - ٢٤.

(٢) يونس: ١٢.

وصعوباتها، ولو صبر قليلا وبحث عن الحل لمشكلته بروية لوجده وربما يكون سهلا.

- أو يدعو بما هو شر في ذاته على نفسه وأهله وماله، وقد يسأل نزول العذاب في مواجهة الحقيقة الجليلة الناصعة، ليتخفف من الالحاح ويتخلص من الإحراج والترقب والانتظار، كقول النضر بن الحارث: " اللهم إن كان ما يقوله محمد حقا فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ".

غير أن الله جل جلاله - بمقتضى حكمته الثابتة ورحمته الواسعة - لا يستجيب لهم في الحالة الثانية، ويستبقيهم إلى أن يحين وقت الاستئصال أو عذاب يوم القيامة أو إلى ما أراده لهم من الخير الحقيقي:

- فربما عادوا إلى رشدهم بعد زوال العارض، وتابوا من غيهم وآمنوا بربهم وأطاعوه.

- أو يخرج الله جل جلاله من صلبهم ذرية صالحة تثقل الأرض بلا إله إلا الله.

إلا في حالات نادرة، كما في قوله تعالى: ﴿ سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ۝ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ۝ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ﴾[1].

وهذا يدل على خطر:

- الاستغراق في عالم الحس والمنافع المادية والوقوف عند النتائج المباشرة في الواقع، وتجاهل عالم الغيب والغفلة عنه وتجاهل عواقب الأمور ونتائجها البعيدة في تحديد المصير الوجودي والنهائي للإنسان.

---

(١) المعارج: ١ - ٣.

- صفة الاستعجال وعدم التأني لدى الكافرين والمنقطعين عن الله تبارك وتعالى في دراسة حقائق الأمور وتحديد المواقف، فهم يسارعون إلى اتخاذ المواقف المضرة بهم وبغيرهم تحت تأثير الانفعال والطيش والغرور والعناد غافلين عن عواقبها الوخيمة عليهم مما يسبب لهم المشاكل والخسائر في الدنيا والاخرة، ولو تريثوا وتبينوا حقائق الأمور والمواقف وما فيها من الخير والصلاح أو الشر والفساد من خلال الدراسة الموضوعية، لكانت المواقف غير المواقف، والنتائج غير النتائج.. أما المؤمنين: فإن ما لديهم من الاستعجال يفوت عليهم الكثير من الخير، ولهذا تتفاوت المراتب والدرجات.

قال الرسول الأعظم الأكرم ﷺ: « إنما أهلك الناس العجلة، ولو ان الناس تثبتوا لم يهلك أحد »[1].

- الجهل وعدم الاطلاع على حقائق الأمور الكونية والمتعلقة بنفس الإنسان ومصيره ومنافعه الواقعية، فتضيع عليه رؤية الخير والحقيقة بحيث يساوي بين دعائه بالخير وطلبه له، وبين دعائه بالشر وطلبه له، ويقود نفسه باتجاه الشر والأعمال السيئة والضارة، وهذا أسوء بلاء يصاب به الإنسان ويحول بينه وبين السعادة الحقيقية في الدنيا والآخرة.

- الحمق وعدم الشعور بالمسؤولية الخطيرة الملقاة على عاتق الإنسان في الحياة.

- الضعف وعدم القدرة على كبح جماح النفس وضبط زمامها.

- الخلق السيء لديهم، ومنه: الاستهزاء بالحقيقة والأدلاء عليها من الأنبياء والأوصياء والحكماء.

---

(١) سفينة البحار. ج١. ص١٢٩.

الحقيقة (٤): أن بعض البشر إذا أصابتهم الشدة ونزلة بهم النازلة يستجيبون لنداء الفطرة ويعودون إلى ربهم يستغيثون به ويطلبون منه تخليصهم مما هم فيه من الشدة والمصيبة، وبمجرد كشف الضر والبلوى وانصراف المشاكل عنهم، يعودون مستهترين إلى ما كانوا عليه من الغي والكفر والنفاق والمعصية، ولم يقفوا موقف التدبر والتأمل والتفكير ليتعظوا، وكأنهم لم يدعوا ربهم لضر مسهم فكشفه عنهم.

وذلك العقوق ونكران الجميل هو بسبب:

- الضعف العقلي وعدم التوازن في التفكير.

- الخبث النفسي وتمكن الشهوات والمنافع الحسية والاطماع المادية والأمراض والخصائص السيئة من نفوسهم وعقولهم وقلوبهم.

- الاستهتار والتنكر للقيم الإنسانية النبيلة، مثل: شكر المنعم وحفظ الجميل.

- اللامبالاة وعدم الشعور بالمسؤولية الإنسانية العظيمة في التصرف: فكيف يهدر الإنسان رأس ماله في الوجود، وهو: العمر والطاقات والمواهب والاستعدادات الإنسانية، في الفساد والمعصية والأخطاء، ولا يربح سوى الخسران والشقاء في الدنيا والاخرة؟!

الحقيقة (٥): أن الله جل جلاله قد وضع طريقا سويا واقعيا في الحياة يوصل الإنسان إلى كماله وسعادته ويحقق له غاية وجوده، ووضع على هذا الطريق علامات وقادة يدلون عليه ولا يخطؤون فيه. وترك للإنسان حرية الاختيار، وهو يعلم بأن بعض الناس سوف يختاروا طريق الهدى، وبعضهم سوف يختار طريق الضلال، وكل يعبر باختياره عن حقيقة نفسه وجوهرها، وأن الله جل جلاله سوف يحاسبهم في يوم القيامة على حقيقة أعمالهم التي تعبر عن حقيقة أنفسهم التي

صنعوها باختيارهم، ويجازيهم عليها بالثواب والعقاب، ولا عبرة بصورة العمل وظاهره.

نتائج مهمة

نتوصل مما سبق إلى النتائج المهمة التالية:

النتيجة (١): أن بين الفعل وفاعله مناسبة وجودية وخصوصية واقعية، بحيث يكون وجود الفعل كأنه مرتبة نازلة من وجود الفاعل، ووجود الفاعل كأنه مرتبة عالية من وجود الفعل، وهذا ينطبق على العلاقة بين الخالق والمخلوق، حيث تدل أفعال الخالق على وجوده وأسمائه وصفاته، كما ينطبق على العلاقة بين شاكلة الإنسان وأفعاله.

النتيجة (٢): أن الإنسان بحسب فعلية بشريته نوع واحد، ولكنه بحسب الباطن أنواع متباينة بالقوة، فهو يصنع ماهيته بنفسه من خلال عقيدته وعمله، وينقسم الناس إلى ثلاثة أقسام:

- من يتصرف كالحيوان حيث يقتصر همه على المنافع والأضرار المادية.
- ومن يتصرف كالشيطان فيما يوقعه من الشر والضرر بالخلق والخلائق، فيثير الحروب والعداواة والفتن ويقتل ويسرق ويظلم بدون رادع من عقل أو دين.
- ومن يتصرف كالملائكة فيما ينشره من الخير والنفع للخلق والخلائق، فيدعوا إلى الحق والعدل ويعمل بهما ويفعل الخير للناس جميعا ويأمر به.

النتيجة (٣): أن شأن الله تبارك وتعالى مع عباده في الأصل الرحمة والجود والاحسان والمغفرة، فهو يريد بهم الخير واليسر على أحسن ما يكون، وهو

الجانب الذي يلتقي مع إرادته سبحانه وتعالى لحياة الإنسان التي أقامها على أساس الحكمة واللطف والرحمة والعناية والتسديد، فهو يبتدئهم بالنعم، ويفيض عليهم من غير طلب، ويمدهم من غير استحقاق، ويؤيدهم إذا شكروا، ليدفعهم إلى مواقع الشكر والطاعة، ويبعدهم عن مواقع الغفلة والتمرد والعصيان، فتتكامل بالشكر والطاعة نفوسهم، ويكونوا في مقعد صدق عنده. إلا أن بعض العباد قد يُصير باختياره السيء وعمله القبيح تلك الرحمة إلى غضب وانتقام وعذاب، وهنا ينبغي التنبيه إلى بعض الأمور المهمة:

- أن إذاقة النعمة ونزعها ومس الضر، مما يدخل في ابتلاء الإنسان الذي يدفعه نحو الكمال بحسب الغاية الربانية من خلق الإنسان، قول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾[1] وأن الفوز في الامتحان والتوفيق للعمل الصالح والحصول على السعادة في الدنيا والآخرة، لا يكون إلا بالصبر الناشيء من الإيمان بالله ذي الجلال والإكرام والتوكل عليه والتسليم لأمره. أما الكفر بالله سبحانه وتعالى وإنكار البعث والحساب، فلا ينتج عنها إلا البطر والطغيان في حال النعمة، والخوف والجزع في حال الشدة، وعمل السيئات، وبالتالي الشقاء في الدنيا والاخرة.

- أن نعم الله تبارك وتعالى - ومنها الهداية - تصل إلى الإنسان عن طريق التفضل والرحمة وليس عن طريق الاستحقاق، ولو كانت عن طريق الاستحقاق، لما نالها إلا قليل من الناس، وربما لا ينالها أحد من الناس.

- أن الغضب والانتقام والعذاب ليس مقصودا بالأصل ولكنه نتيجة واقعية بالتبعية لحرية الإنسان وكماله المقصود بالذات.

- أن سلوك الكافرين والمنافقين والعاصين مهما بلغ من الجهل والحمق

---

(١) الملك: ٢.

والعناد لا يخرج فعل الله عز وجل عن الحكمة البالغة التي لا تهتز ولا تتزلزل.

- أن ما يصيب الإنسان من الضر هو شيء يسيرٌ كالمس، وأن ذلك يجرى مجرى الحكمة وفق السنن الكونية المنظمة لحياة الإنسان، وكنتيجة لكفران النعم لعلهم يرجعون، قول الله تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[1] وإعطاء العبرة لغيرهم، وهذا لا يتنافى مع الرحمة الإلهية بل يجرى مجراها.

- أن ما يجده الإنسان في الدنيا من النعم والضر، هما نماذج خفيفة لما يجده من النعيم والعذاب في الآخرة.

النتيجة (٤): أن مصدر كل خير يفعله الإنسان هو الارتباط بالله ذي الجلال والإكرام وطاعته، ومصدر كل شر يفعله الإنسان هو الغفلة عن الله جل جلاله والانقطاع عنه ومعصيته، حيث يستحوذ عليه الشيطان فيكون نسخة من الشيطان، وهذا يدل على أن الإنسان يصنع ماهيته بنفسه من خلال أفكاره وأعماله، وهذا يفسر لنا اختلاف حديث القرآن عن الإنسان وصفاته وأفعاله، وهو على قسمين:

القسم (١) وفيه الإشارة إلى الصفات السلبية والأفعال القبيحة، مثل:

- أنه ضعيف: ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾[2].

- أنه ظالم: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾[3].

---

(١) الروم: ٤١.

(٢) النساء: ٢٨.

(٣) إبراهيم: ٣٤.

- أنه بخيل: ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا ﴾[1].

- أنه عجول: ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولاً ﴾[2].

- أنه كفور: ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴾[3].

- أنه جهول: ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾[4].

- أنه كثير الجدل: ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴾[5].

القسم (٢) وفيه إشارة إلى الصفات الجميلة والعمال الحسنة، مثل:

- أنه خليفة الله ذي الجلال والإكرام في الأرض: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[6].

- أنه كائن كريم: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ ﴾[7].

- أنه خلق في أحسن تقويم: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾[8].

- أن الله علمه ما لم يعلم: ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[9].

---

(١) الإسراء: ١٠٠.

(٢) الإسراء: ١١.

(٣) الإسراء: ٦٧.

(٤) الأحزاب: ٧٢.

(٥) الكهف: ٥٤.

(٦) البقرة: ٣٠.

(٧) الإسراء: ٧٠.

(٨) التين: ٤.

(٩) العلق: ٥.

- أن الله علمه البيان: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾[1].

- أنه كادح إلى الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴾[2].

فالقسم الأول يبرز صفات الأشخاص الذين انقطعوا عن الله ذي الجلال والاكرام، واتبعوا الأهواء واستغرقوا في الشهوات والملذات الحسية واطلقوا لها العنان في حياتهم، واتبعوا الطاغوت، ولم يستفيدوا من الهداية الربانية، ولم يتعلموا من الأنبياء والأوصياء، ولم يتعظوا من الحوادث اليومية والتجارب التي مرت بها الأقوام والأمم السابقة.

أما القسم الثاني فهو يبرز صفات المؤمنين الصادقين المخلصين الذين اتبعوا أنوار عقولهم، وتجنبوا الطاغوت، واستفادوا من الهداية الربانية وتعاليم الأنبياء والأوصياء والصالحين، وتربوا على أيديهم، وقيدوا بتعاليمهم نفوسهم، وهذبوا بها سلوكهم وضبطوا مواقفهم في الحياة، ولم يسترسلوا في الشهوات والملذات الحسية، ولم يتبعوا الهوى والنفس الأمارة بالسوء، وبذلك تتجلى لنا قيمة الإيمان في حياة الإنسان: الفردية والمجتمعية، في الدنيا والآخرة.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴾[3].

والخلاصة: أن الإرتباط بالله ذي الجلال والإكرام وطاعته والتسليم إلى أمره، يوجه الإنسان إلى غاية وجوده، ويدفعه إلى العمل الصالح، ويكسبه الصفات الحميدة، فإذا انقطعت صلته بالله جل جلاله: ضل عن غاية وجوده، وتورط في

---

(١) الرحمن: ٣ - ٤.

(٢) الانشقاق:٦.

(٣) البينة: ٧ - ٨.

الرذائل والأفعال القبيحة، وكانت أوصافه على نحو الحقيقة والواقع: الخبث والظلم والكفر والطغيان والخسران وغيرها من الصفات الذميمة، فلا تنفصل الهداية والاخلاق الحسنة والعمل الصالح عن الفطرة الصافية والإيمان الصادق بالله وباليوم الآخر وهدي الأنبياء والأوصياء عليهم السلام بأي حال من الأحوال.

النتيجة (٥): أن الإيمان بالله عز وجل والتوكل عليه في جميع الحالات يمنح الإنسان السعة في الأفق والواقعية في التفكير، ويخلق التوازن في قلب الإنسان المؤمن في حالتي: القوة والضعف، ويدفعه إلى الخير والعمل الصالح والاحسان إلى الناس:

- فلا ينتفخ ويتعالى ويطغى في حالة القوة، وإنما يشكر ويتواضع.
- ولا يهتز ولا ييأس ولا يتهاوى ولا يسقط في حالة الضعف، وإنما يصبر ويرجو الفرج.

فإن الإيمان نصفان: نصف خوف، ونصف رجاء. بينما يفقد غير المؤمن هذا التوازن في حياته، ويفقد الاستقرار والواقعية في التفكر والشعور والمواقف ويهتز ويسقط، لأنه يفتقد إلى القاعدة الصلبة التي يقوم عليها الاستقرار وتقوم عليها الواقعية في النظر للأمور والحوادث، وهو الإيمان بالله القوي العزيز والتقوى:

- فيصاب بالغرور والطغيان في حالتي: الغنى والقوة.
- ويصاب باليأس والقنوط في حالتي: الفقر والضعف، ويصبح في مهب الريح.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟

ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴾[1].

والخلاصة (١): أن الإنسان بما هو إنسان (أي بطبعه) إذا انقطع عن الله تبارك وتعالى اختل توازنه وسار في طريق الضياع والخسران المبين في الدنيا والاخرة.

والخلاصة (٢): أن لدى الإنسان طبائع مذمومة بحكم العقل والدين، مثل: اليأس والانكماش عند الضر والبلاء، والفخر والتطاول عند النعمة والرخاء، وهي أمراض خطيرة من شأنها الفتك بالإنسان: ماديا ومعنويا، وتظهر هذه الطباع المذمومة في حال انقطاع علاقة الإنسان بالله ذي الجلال والإكرام، وعلاجها الإيمان بالله ذي الجلال والإكرام والثقة به والتوكل عليه والرضا بقضائه وقدره والتسليم لأمره، حيث يتولد الصبر والأمل والرجاء والعمل الصالح.

النتيجة (٦): أن كل إنسان خلق على الصفاء الروحي والفطرة الطاهرة التي تقوده إلى الله عز وجل والحق والعدل والخير والفضيلة، ولكنه قد يتجاهل نداء العقل والوحي ويضعف أمام المغريات والشهوات، فيحجب ذلك الفطرة عن رؤية الحق وتتشوش رؤيتها للأمور، فينحرف عن طريق الهدى ويضل في طريق الشيطان الغوي الرجيم، وينحدر نحو أسوء الأحوال، وتبقى الفطرة تقاوم هذا الانحراف والضلال، وتتحين الفرص للتأثير في الشخصية وفق التجارب التي تمر بها الشخصية في الحياة، فربما تعود إلى الحق والهدى، وربما تستمر في غيها بسوء اختيارها.

النتيجة (٧): أن الحياة الدنيا للبلاء والامتحان والحياة الآخرة للجزاء، ويجب على كل إنسان من أجل الوصول للخير والسعادة، أن يصبر ويتحلى بالعقلانية ويتجنب التسرع والعجلة والاندفاع العاطفي والانفعالي، وأن يدرس

---

(١) العصر: ١ – ٣.

المواقف دراسة موضوعية متأنية شاملة لجميع الجوانب، وأن يتعامل مع الحياة ويحكم تصرفاته ومواقفه بمنطق الواقع والسنن الكونية، وأن يتبع الأدلاء على الحق ويحذر من اتباع الهوى والنفس الأمارة بالسوء، وأن ينظر بعين قلبه إلى ربه سبحانه وتعالى ويقتبس من نوره الملكوتي ليهتدي بعشقه ونوره في ظلمات الحياة ودروبها ويتوكل عليه ويستعين بحوله وقوته ولا يستغني بنفسه عنه فيضل ويهلك.

البحث (٨): مسير الإنسان إلى الله عزّ وجلّ

قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴾[1].

بيان المفردات

يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا: الكدح: السير والعمل والسعي والكد والعناء والدأب وإجهاد النفس في العمل والكد فيه بحيث يؤثر فيها، والكادح: المجد في الطلب، والرب: المالك والسيد والمصلح والمنعم والمربي، والجمع: أرباب، والرب: من أسماء الله الحسنى، والنسبة إليه: رباني، والرباني: العارف بالله ذي الجلال والإكرام، شديد التمسك بدينه وطاعته والتسليم لأمره.. والمراد: أيها الإنسان!! المجد في سعيه، والنشيط في عمله، السريع في تحصيل معاشه، الكادح في طلب الدنيا، تنبه (النداء لتنبيه الإنسان من غفلته) لنفسك وحركاتها ولا تغفل عنها، فإنك لم تخلق عبثا، وإنما خلقت لغاية عظيمة، فقد خلقك ربك بإحسانه، وميزك بخصائص تتفرد بها على جميع خلقه من عقل وإرادة وحرية اختيار، وأودع فيك القدرة على الاتصال به والتحلي بصفات جماله وجلاله، وأنك غير مخلد في الحياة

---

(١) الانشقاق: ٦ - ١٥.

الدنيا، فأنت أسمى من ذلك، وهي أضيق من أن تسعك، فأنت سائر مجد في السير على هذه الأرض إلى ربك سبحانه وتعالى ومنتهي إلى أجلك في هذه الحياة (الموت) وما بعده من الأحوال والأهوال والثواب والعقاب على الأعمال، فليس بينك وبين لقاء ربك سبحانه وتعالى إلا الموت، ثم تبعث وتحاسب في يوم القيامة وتجازى على عقائدك وأعمالك الحسنة والقبيحة، فليست الحياة للعبث واللهو والاسترخاء، وإنما هي للعمل والكدح والانتاج في مختلف المواقع والمجالات المتنوعة في الحياة. وأعلم أن طريق الحياة شاق وصعب، والسير فيه يستوجب العناء والتعب والمشقة والألم، فقد جبلت الحياة الدنيا على هذا العناء والتعب والألم للروح والبدن، لأنها دار ممر وامتحان، حتى لمن يرفل في ثياب الترف والرفاه المادي، فراحة الحياة الدنيا لا تخلو أبدا من تعب ومشقة، فلا يجد الإنسان الراحة الخالصة فيها بأي حال من الأحوال، فإن لم يكن جهد وعناء البدن، فعناء التفكير وتعب القلب وألم المشاعر والوجدان، فعليك أيها الإنسان!! أن تسير فيها وتتحمل العناء والتعب والجهد والبلاء من أجل رضوان الله سبحانه وتعالى، في ظل مسؤوليات الحياة المتنوعة العديدة التي فرضها الله عز وجل عليك، حتى يظهر أثر عملك في حقيقة نفسك وتكون من الصالحين، وتستمر في ذلك حتى وقت حلول أجلك ونهاية عمرك في هذه الحياة، فإن الحياة خلقت للكفاح والكدح والعمل لجميع بني الإنسان من أجل السعادة والفوز بالجنة والرضوان.

فملاقيه: لقيه: قابله واستقبله وصادفه، وألقى الشيء: طرحه، وألقى عليه القول: أملاه، والتقى الجمعان: إجتمعا، والملقيات ذكرا: الملائكة التي تلقي الوحي إلى الأنبياء عليهم السلام، ويوم التلاقي: يوم القيامة لتلاقي الخلق فيه، والملتقى: مكان اللقاء، ولاقى الله: صار إلى حسابه في يوم القيامة.. والمراد: أن المسار والرجوع والنهاية إلى الله سبحانه وتعالى والوقوف بين يديه عز وجل للحساب والجزاء، فهو سبحانه وتعالى غاية السير والسعي والعناء، وكأن لسان الحال يقول: أيها الإنسان!! إعلم إنك ملاق ربك في يوم القيامة لا محالة، بدون حجاب يحجبك عنه، حيث لا حكم إلا

حكمه المطلق، وستلاقي جزاء عملك: من خير وشر، ويكون بين يديك أوضح من الشمس، قول الله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾[1] وفسر اللقاء بمعنى لقاء ذاته المقدسة عن طريق الشهود الباطني، فأعمل في دنياك على هذا الأساس، وانظر ماذا أعددت لهذا اللقاء العظيم، والحساب الخطير، والجزاء المصيري، فأمامك طريقان عليك أن تختار بينهما وتتحمل مسؤولية اختيارك وعملك:

- طريق ينتهي بك إلى الراحة والاستقرار والسعادة في ظل رحمة الله تبارك وتعالى ورضوانه في يوم القيامة.

- وطريق ينتهي بك إلى العذاب والشقاء والخسران في يوم القيامة، حيث غضب الرب الجليل على الإنسان لسوء عقيدته وقبيح عمله، وذلك بعد كدح الدنيا وعنائها الشاق، حيث أنها دار عناء ومشقة، فيخسر الإنسان بذلك: الدنيا والآخرة.

فنتيجة عملك وكدحك أيها الإنسان في الحياة الدنيا، سوف يفرزكم يا بني الإنسان إلى طائفتين:

فأما من أوتي كتابه بيمينه: أتي: جاء، وأتى الأمر: فعله، وآتاه: أعطاه، ووعد آتي: لا شك فيه، وكتب: خط، والكتاب: الصحف المجموعة، واليمين: البركة وضد اليسار، والجمع: أيمان، ويمن: أخذ جهة اليمين وكان مباركا، والعرب تستعير جهة اليمين للخير، وجهة اليسار للشر.. والمراد: أوتي كتاب عمله الطيب بيمينه، وهو المؤمن الصالح الذي آمن وأحسن وسار على هدي المخطط الرباني لحركة الإنسان على الأرض، وكدح في ذات الله تبارك وتعالى، وكان كل عمله خالصا لوجهه سبحانه وتعالى وإبتغاء رضوانه، فكتب الله عز وجل له النجاة والسعادة.

ويكون التعبير باليمين:

---

(١) الحاقة: ١٨.

- دلالة على فعليته الإلهية (إنسان رباني) لصحة إيمانه وقبول أعماله، حيث يكون عقله ونفسه وقواه البدنية تحت تصرف فعليته الإلهية وحالته الربانية.

- أن يكون مضمون الكتاب مدعاة للفخر والاعتزاز أمام أهل المحشر.

فسوف يحاسب حسابا يسيرا: سوف: حرف مبني على الفتح، يدخل على الفعل المضارع فيدل على حدوثه في المستقبل، ويستعمل في الوعد الوعيد وفي الوعيد أكثر، والحساب: العد والاحصاء، وحاسبه: أقام عليه الحساب، والحاسب والمحاسب والحسيب: من يقوم بالمحاسبة، والحسيب: أسم من أسماء الله الحسنى، واليسير: السهل والخفيف والقليل واللين، والحساب اليسير: هو الحساب الذي لا مناقشة فيه ولا تدقيق ولا حرج ولا مشقة، وهو ضد العسير، وتيسر: تسهل وتهيأ، والميسرة: السهولة والسعة والثراء وجهة اليسار، والدين يسر: أي سهل قليل التشديد، واليسار: السهولة والرخاء وضد اليمين.. والمراد: يعرض عليه عمله في يوم القيامة، ويشمله العفو الإلهي، ويدخله الله تبارك وتعالى في رحمته الواسعة، فيثاب على حسناته، ويُتجاوز عن سيئاته، وذلك نظرا لحسن عقيدته، وأعماله الصالحة، وخلو صحيفته من الذنوب الكبيرة التي تستوجب غضب الرب الجليل عليه، فلا يطول حسابه ولا يناقش فيه ولا يدقق معه، وإنما يحاسب حسابا خفيفا لينا سهلا لا مناقشة فيه ولا تدقيق، وفي حديث الصحيحين وغيرهما: " من نُوقش الحساب يوم القيامة عذب ".

وينقلب إلى أهله مسرورا: ينقلب: يرجع، وتقلب: تنقل، والمنقلب: المآل والمصير، والأهل: العشيرة والزوج وذوي القربى، والجمع: الأهلون، وتأهل: تزوج، وأهل الدار: سكانها، وأهل الكتاب: من يجمعهم كتاب سماوي، ويطلق على اليهود والنصارى، والسرور: الفرح، والسراء: المسرة ورغد العيش وضد الضراء.. والمراد: يرجع إلى الذين ارتضاهم الله تبارك وتعالى ليكونوا أهلا له في مجتمع الجنة، من الحور العين والولدان المخلدون والملائكة المقربين وأهله وأولاده وآبائه

وعشيرته وأمثاله من المؤمنين الصالحين الذين كانوا معه في الحياة الدنيا، حيث يتجه إليهم مبتهجا مسرورا بالنجاة واللقاء في الجنة، كما يتجه إلى أهله وعشيرته وأحبته في عالم الدنيا، قائلا: هاؤم اقرؤا كتابيه، ويجتمع معها في الجنة (على سرر متقابلين) كما كانوا يجتمعون في عالم الدنيا.

وأما من أوتي كتابه وراء ظهره: وراء: خلف، والوراء: ما استتر وتوارى عن العين أكان في الخلف أو في الأمام، والظهر من الإنسان: مؤخر الكاهل إلى أدنى العجز، والجمع ظهور، وأظهر الشيء: جعله وراء ظهره، وظاهر أمرأته: قال لها: أنت علي كظهر أمي (أي: هي عليه حرام) والظهير: المعين، وتظاهر القوم: تجمعوا ليعلنوا رضاهم أو سخطهم على أمر يهمهم.. والمراد: أوتي كتاب أعماله السيئة من وراء ظهره، حيث تغل يمناه إلى عنقه، وتجعل يسراه وراء ظهره، ويدار وجهه إلى دبره نكاية به، وإمعانا في تحقيره وإهانته وتخجيله، فهي هيئة الكاره المكره الخزيان من المواجهة، لسوء عقيدته، وقبيح أخلاقه وعمله، قول الله تعالى: ﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ ﴾[1] فيأخذ كتاب أعماله بيساره من وراء ظهره، وهو الكافر المجرم الفاجر الذي قضى حياته كدحا في المعصية والإثم والضلال، وتكون الحالة التي يأخذ بها كتابه تعبيرا:

- عن حالته الشيطانية أو الحيوانية: السبعية أو الشهوية، التي هي خلف الإنسانية السامية، التي هي حالة لطيفة مقبلة على الله ذي الجلال والإكرام، مدبرة عن الشيطانية والحيوانية.

- أن مضمون الكتاب لا يمثل العمل الذي يقدمه الإنسان بين يديه فرحا به وفخرا بما فيه من الحسنات، وإنما يمثل العمل الذي يجعله وراء ظهره ليخفيه جزعا منه وحياء وخجلا مما فيه من السيئات.

---

(١) النساء: ٤٧.

- أن مضمون الكتاب خال من العمل الذي يقدمه الإنسان بين يديه من أجل الله سبحانه وتعالى والآخرة، فقد أفنى صاحب الكتاب عمره في العمل من أجل الدنيا التي تركها وراء ظهره، وأن ما حصل عليه من لذة في الحياة الدنيا، قد تحول إلى ألم كبير وتعاسة وبؤس شديد وشقاء في الآخرة.

فسوف يدعوا ثبورا: دعا: ناد واستعان ورجا وطلب، تقول دعا له: رجا له الخير، ودعا عليه: طلب له الشر، والدعاء: مصدر دعا، والجمع: أدعية، والدعوة: الدعاء إلى أمر يطلب تحقيقه، والداعي: من يدعو الناس إلى دين أو مذهب أو أي أمر، والثبور: الويل والهلاك، ويدعو ثبورا: يتمنى الهلاك.. والمراد: يتمنى الكافر عند رؤية ما تضمنه كتاب عمله الموت لما فيه من الفضائح والخزي والعار، فرارا من الموقف الصعب وما هو مقدم عليه من الشقاء والعناء الطويل، الذي أوقع نفسه فيه بسوء عقيدته، وقبيح عمله، ومكابرته على الباطل، ويرفع صوته - كما هو متعارف عليه عند نزول البلاء أو وقوع حادث شديد الخطورة - قائلا: يا ثبوراه (أي واهلاكاه) ولسان حاله يقول: لقد أهلكت نفسي وقدتها إلى هذا العذاب العظيم الذي لا ينتهي ولا يتوقف!! وما أفجع أن يدعو الإنسان بالهلاك على نفسه لينجو به، حيث يكون أقصى أمانيه الهلاك، فإن ما ينتظره أعظم من مجرد الهلاك، فأي تعاسة أعظم من هذه التعاسة، وأي شقاء أعظم من هذا الشقاء؟!

ويصلى سعيرا: صلى: دخل وأثوى وشوى وأحرق، وأُصلي النار: أدخل فيها وأحرق بنارها، وصالي الجحيم: من قدر عليه دخولها، والسعير: النار المتقدة، والجمع: سعر.. والمراد: يغادر أرض المحشر ويدخل النار الحامية المؤججة، حيث تحيط به من كل جانب، ويقاسي حر نارها وعذابها العظيم الذي لا يوصف.

إنه كان في أهله مسرورا: سبقت معاني الألفاظ.. والمراد: كان في عشيرته وبين جماعته من المجرمين في الحياة الدنيا يلهو ويلعب في غفلة وغرور، فرحا بالمال

والجاه وأتباعه لشهوات نفسه وهواه وجرائمه، وتقلبه في متاع الحياة الدنيا ولذاتها ونعيمها بغير حق، والبحث عن الترف والسلطة والشهرة وغيرها من زخارف الحياة الدنيا الفانية بغير وجه شرعي، لا يشغله شيء سوى أمر الدنيا، ولا يعنيه شيء من أمر الآخرة، فهو غافل عن مولاه عز وجل وعن الآخرة وما ينتظره فيها، لا يفكر في حساب ولا جزاء ولا يتذكر العواقب الخطيرة لأعماله - كما يفعل الصالحون - ولا يغتم ولا يحزن لعمل فاته من أجل مولاه عز وجل والآخرة.

إنه ظن أن لن يحور: ظن: اعتقد بغير يقين - وقد تأتي بمعنى اليقين - والجمع: ظنون، والظنين: سيء الظن ومن لا يوثق به، والحور: الرجع والتردد والذهاب والإياب في الفكر والعمل، والمحور: العود الذي تجري عليه البكرة، والمحاورة: المرادة في الكلام، وتحير في الأمر: تردد بين أن يقدم أو لا يقدم.. والمراد: اعتقد أنه لن يرجع حيا إلى ربه في يوم القيامة ويقف بين يديه ويسؤل عن عمله ويحاسب عليه ويجزى، وذلك تكذيبا منه بالمعاد، بسبب التوغل في الذنوب والآثام الداعية إلى الدنيا والصارفة عن الآخرة، وهو علة سروره في الحياة الدنيا، وانشغاله بزينتها وزخارفها الفانية، إذ لو كانت له نفس طاهرة من الذنوب، وقلب منفتح على الحق والهدى، لما وقع في هذا الظن الباطل، ولاعتقد الرجوع إلى ربه عز وجل خضوعا لمنطق العقل والفطرة، وعمل من أجل آخرته واستعد للحساب، والخلاصة: أن عدم الإيمان بالآخرة والغفلة عنها، يؤدي إلى الوقوع في محرقة الغفلة والغرور، وارتكاب المعاصي والآثام والجرائم الكبيرة ضد النفس والإنسانية في الحياة.

بلى: حرف يجاب به عن المنفي خاصة، سواء اقترن النفي باستفهام أم لم يقترن، وقد يكون المنفي صريحا، وقد يكون مفهوما من السياق.. والمراد: سوف يرجع الإنسان إلى ربه سبحانه وتعالى ويحاسب على عمله حسابا كاملا ويجزى عليه: إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، ما في ذلك شك ولا ريب، قول الله تعالى:

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه ﴾[1] وأن على الإنسان أن يؤمن بذلك ويخضع لأمر الله سبحانه وتعالى ونهيه قبل فوات الأوان وحلول الحسرة والندامة.

إن ربه كان به بصيرا: البصر: العين، والإبصار: العلم والادراك، والبصير: الخبير.. والمراد: أن ربه عالما بحقيقة نفسه، وبحقيقة عقيدته، وبحقيقة عمله الذي قدم به عليه، علما كاملا محيطا بحيث لا يخفى منها عليه خافية، فهو مطلع على الخلفيات الفكرية التي يضمرها في نفسه وتقوده إلى الايمان ولكنه يواجهها بالعناد والاستكبار والرفض، قول الله تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[2] ويعلم بالدوافع الحقيقية الظاهرة والباطنة لسلوكه ومواقفه في الحياة، قول الله تعالى: ﴿ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾[3] وقد كلفه بالإيمان، وفرض عليه الفرائض والسنن، وجعل له كتاب يحصي كل أعماله، وجعل لأعماله جزاء من ثواب وعقاب، فلا بد أن يرجع إليه، ليجازيه جزاء موافقا لما كان منه من عقيدة وعمل، فالآية حجة على وجوب المعاد.

مضامين الآيات الشريفة المباركة

تؤكد الآيات الشريفة المباركة، أن أمر الحياة الدنيا سوف ينتهي ويأتي أمر الآخرة، حيث يبعث الإنسان في يوم القيامة، ويتقدم كل إنسان بما عمله في الحياة الدنيا من خير وشر، وفي ذلك اليوم:

---

(١) الزلزلة: ٧ – ٨.

(٢) النمل: ١٤.

(٣) الملك: ١٣ – ١٤.

- لا حجاب يحجب الإنسان عن ربه عز وجل.

- ولا حكم في ذلك اليوم إلا حكم الرب العزيز الجبار.

- وأن الإنسان يحاسب على عمله من خير وشر.

وتبين الآيات الشريفة المباركة: أن أحوال الناس في الحساب يوم القيامة ليست واحدة:

- فهناك من يحاسب حسابا شديدا ويدخل النار ويعذب فيها عذابا عظيما، وهم الكفار الذين تمتعوا بلذات الحياة الدنيا، وأساؤوا إلى أنفسهم وإلى الآخرين، ظانين بأنهم لن يبعثوا بعد الموت للحساب على أعمالهم، فلم يستمعوا إلى نداء الفطرة والعقل، ولم ينظروا في النظام المحكم للكون والحكمة السارية في الخلق والحياة، وتجاهلوا كل ذلك ولم يكترثوا به، ولم يستمعوا إلى تذكير الأنبياء والمؤمنين لهم بالحقائق وتحذيرهم من العواقب، ولهذا سوف يدخلون النار ويواجهون فيها عذابا عظيما لا مثيل له في دار الدنيا.

- وهناك من يحاسب حسابا لينا ويدخل الجنة وله فيها ثواب دائم ونعيم مقيم، وهم المؤمنون الصالحون الذين جاهدوا أنفسهم وطهروها وأحسنوا إلى الناس، لأنهم استمعوا جيدا إلى نداء الفطرة ونداء العقل، وأحسنوا النظر والتدبر في الخلق والحياة، وأهتدوا بهدي الأنبياء والأوصياء والأدلاء إلى الحق، فآمنوا بربهم، وأيقنوا بالحياة بعد الموت والرجوع إلى الله العزيز الحكيم، ولهذا سوف يدخلون الجنة التي أعد الله تبارك وتعالى لهم فيها النعيم المقيم، فيرون فيها من النعيم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر في الدنيا.

نتائج مهمة

ونتوصل مما سبق إلى النتائج المهمة التالية:

النتيجة (١): حتمية الرجوع إلى الله عز وجل بعد الموت، وأن هذه الحقيقة تدركها العقول بمنطقها السليم، وتقود إليها الفطرة الإنسانية السليمة بتكوينها الرباني المحكم الهادي إلى الحق، وأن كل من يكفر بهذه الحقيقة، هو في الحقيقة والواقع، معاند لمنطق العقل، ومتمرد على منطق الفطرة.

قال الله تعالى: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ۝ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾[1].

النتيجة (٢): أن الإنسان بما هو عبد مربوب لله عز وجل، وأنه ساع إليه وملاقيه لا محالة، فإنه لا يملك إرادة مستقلة عن إرادة ربه عز وجل، وعليه أن لا يريد ولا يعمل إلا ما يريده ربه ويأمره به.

النتيجة (٣): أن كلمة الرب تدل على الارتباط بين تكوين الإنسان وسعيه وكدحه في الحياة، وبين البرنامج التربوي الذي أعده الخالق له من أجل الوصول إلى كماله وغاية وجوده، قول الله تبارك وتعالى: ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝ الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾[2].

النتيجة (٤): أن مقتضى الحكمة والعلم والقدرة والعدل الإلهي، أن لا يترك الله سبحانه وتعالى الإنسان سدى، بلا حساب ولا جزاء، وإنما يبعثهم ويحاسبهم ويجزي المحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته، وبدون ذلك يتساوى المحسن والمسيء، وهو عين العبث في الخلق (تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا) وأن تركهم ناتج:

- إما لأنه غير قادر على ذلك.

---

(١) المطففين: ١٠ – ١٤.

(٢) الأعلى: ١ – ٣.

- وإما لأنه لا يعرف حالهم.

- وإما لأنه فاقد لصفة العدل.

وحاشا لله سبحانه وتعالى ذلك، فلا بد من رجوعهم وحسابهم وجزائهم على عقائدهم وأعمالهم حتما، ولا شيء يمكن أن يصرف الرب الجليل عن ذلك أبدا.

النتيجة (٥): أن الإنسان يدرك بعقله وفطرته وحكم التجربة والواقع: عز الربوبية وذل العبودية، وأن الدائرة التي تربط بين حلقات عز الربوبية وذل العبودية، لا تكتمل إلا بوجود:

- مسؤولية واقعية يتحملها الإنسان في الحياة الدنيا.

- وأنه يحاسب عليها في يوم القيامة، ويحصل على الجزاء المناسب لعمله.

- ولا مسؤولية واقعية، ولا حساب عادل، ولا جزاء واقعي، بدون عقل وإرادة وحرية اختيار لكل مكلف.

النتيجة (٦): أن الإنسان يدرك بعقله وفطرته بأن لا قيمة إنسانية له بدون حياته المعنوية، قول الله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴾[1] وأنه لا يمكن أن يحفظ حياته المعنوية إلا بمحبة الله ذي الجلال والإكرام وطاعته.

النتيجة (٧): أن الانغماس في لذات الدنيا، وأتباع الشهوات، والتوغل في ارتكاب الذنوب والمعاصي والآثام، يؤثر تأثيرا سلبيا على إدراك الإنسان للحقائق، وعلى حياة الضمير، وروحية الإنسان وحياته المعنوية، قول الله تعالى: ﴿ إِذَا تُتۡلَىٰ

---

(١) الأعراف: ١٧٩.

عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾[1]. فلا يبصر حقائق الأمور، ولا تنفع معه المواعظ والتذكير، قول الله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾[2] مما يؤدي إلى نسيانه ذكر الله عز وجل، وغفلته عن الآخرة، وكلما زاد انغماسه في الشهوات، وتوغله في المعاصي، كلما قلت فرصته في النجاة.

والخلاصة: أن سعادة الإنسان تقع في جانب الإيمان والتقوى، وشقاؤه يقع في جانب التمرد والمعصية لله عز وجل.

النتيجة (٨): أن إيتاء الكتب ونشر الصحف يوم القيامة يكون قبل الحساب، قول الله تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ﴾[3] وأن إيتاء الكتاب من وراء الظهر يخص الكفار ولا يشمل أصحاب الكبائر من المؤمنين الذين يدخلون النار ثم يخرجون منها بالشفاعة، فهؤلاء يقعون في حالة وسط بين:

- المؤمنين الذين يحاسبون حسابا يسيرا ويدخلون الجنة.
- والكفار الذين يحاسبون حسابا عسيرا ويدخلون النار ويخلدون فيها.

وسيوضح ذلك أكثر في البحوث القادمة، إن شاء الله تعالى.

---

(١) المطففين: ١٣ – ١٤.

(٢) الملك: ١٠.

(٣) الإسراء: ١٣ – ١٤.

الباب الثامن

« الموت وعالم البرزخ والآخرة »

الفصل الأول: الموت

الفصل الثاني: عالم البرزخ

الفصل الثالث: عالم الآخرة

كان في خطة الكتاب هذا الباب بفصوله الثلاثة، ليكون الكتاب شاملا لمسيرة الإنسان الوجودية من بداية الخلق إلى نهاية المطاف، إلا أنه حذف لأسباب خارجية – بعضها خارج عن الإرادة – ولكي لا تتأخر طباعة الكتاب كثيرا بسبب التوقف عن البحث لفترة طويلة من الزمن، برجاء أن يخرج في كتاب مستقل متى سنحت الفرصة، وما توفيقي إلا بالله العلي العظيم، عليه توكلت وإليه أنيب.

تم الانتهاء من تأليف الكتاب في صباح يوم السبت بقرية النويدرات – البحرين،

بتاريخ: ٣ / ربيع الأول / ١٤٣٠هـج – الموافق: ٢٨ / فبراير – شباط

الفهرس